

د. يعقوب يوسف الغنيم

الأزمنة والأمكنة

المجلد السابع

مقـــالات

الأزمنـــة والأمكنـــة

عـــام ٢٠١٢

نحن نتذكر القطا[1]

نتذكر دائماً طائر القطا، فهو طائر محبب إلى النفوس لشكله الجميل ولصفاته التي يمتاز بها دون غيره من الطيور؛ وذكره يتردد على الألسنة وبخاصة ألسنة الشعراء من الناس، فهم يذكرونه في أشعارهم الغزلية بصفة خاصة، ومما سمعناه منهم، ورددناه بعدهم قول الشاعر:

بكيتُ على سربِ القطا إذ مررنَ بي
فقلتُ ومثلي بالبكاءِ جديرُ
أسِرْبَ القطا هل مَن يُعير جناحَهُ
لعلَّ إلى مَن قد هويتُ أطيرُ

والأبيات لمجنون ليلى: قيس بن الملوح وهي أربعة، يلي البيتين قوله:

وأيُّ قطاةٍ لم تُعِرني جناحها
فعاشت بضيرٍ والجناح كسيرُ
وإلا فمن هذا يُؤدِّي تحيةً
فأشكرهُ، إنَّ المحبَّ شكورُ

كنا ونحن صغار نعرف القطا، ونسعد برؤياه فقد كانت أسرابه الكثيفة تمر في سماء الكويت فوق بيوتنا وفق الموسم الذي تفد إلينا فيه، وذلك حين يشيع الدفء في الأجواء، وكان أهلنا يلفتون أنظارنا إلى هذا الطائر العابر وهو ينادي بصوت نكاد نسمع منه كلمة قطا قطا وكان العرب يرون أن السبب في تسمية هذا الطائر هو هذا الصوت الذي يصدره وهو طائر.

---

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠١٢/١/٤م.

أذكر جيداً أحد أيام أوائل سنوات الأربعينيات وكان الجو في الكويت قائضاً، وكنت يومها صغير السن، ولكني لاحظت عبور القطا كعادته وكانت أعداده كبيرة جداً، وكنا في البيت نتأملها ونعجب لكثافة أعدادها ولأصواتها ولطريقة طيرانها التي تدل على ترابطها ببعضها، وبينما كنا في تأملنا هذا جاءنا من نقل إلينا خبراً آخر يتعلق بالقطا: كانت أسراب القطا قادمة – فيما يبدو – في غاية الاحساس بالعطش، وكانت مندفعة بقوة، وبجميع أعدادها بحثاً على مورد من موارد المياه، ولشدة عطشها فإنها عندما وصلت إلى منطقة الوطية على ساحل جون الكويت الجنوبي شاهدت الماء. وكان الجو هادئاً والماء في حالة المد، وكان لونه الازرق الجميل يلفت الأنظار، وقد اجتمع هذا المنظر مع شدة عطش القطا فأثار نزعة هذه الطيور إلى شرب الماء فحطّت بأعداد كبيرة على الماء ظانة أنه ماء عذب. وكان أن صعب عليها الخروج من المأزق واجتمع الناس بكثرة لمشاهدة هذا المنظر الفريد للقطا المعتقل في مياه البحر عند الوطية، وهو القسم الثاني من المجموعة الكبرى التي مر بعضها وشاهدناه ونحن في المنزل ولكن الباقي هو الذي سقط في الفخ الذي نصبه جون الكويت. ولم يكتف المشاهدون من الناس بالمشاهدة فقفز عدد منهم إلى البحر للحصول على هذا الصيد السهل، ثم قفز جميع الحاضرين وأمسكوا بهذا الطائر الذي يحبونه.

كنت أتوق إلى حضور هذا الموكب، ومشاهدة ما يحدث هناك وفقًا للوصف الذي سمعته من الشخص الذي نقل لنا الخبر. فطلبت من والدي أن يذهب بي إلى هناك، فقد أثارني الوصف ودعاني إلى التحرك، ولكن الوالد وقد علم بالأعداد الغفيرة من الناس التي كانت تحضر المشهد، أبى أن يأخذني معه حين غادر، قائلا: لن تستطيع ذلك لأن الزحام شديد وأنت صغير، ولكني سوف أذهب إلى هناك لكي أحضر لك القطاة لتراها مباشرة بعد أن كنت تراها وهي طائرة في جو السماء. وقد استطاع أن يعود بواحدة من القطا السابح في الماء وهو يكاد يموت غرقًا.

وشرح لي كيف استطاع الإمساك به فقال: إنه غاص تحتها وأمسك برجليها، ولم يكن يريد أكثر من واحدة؛ ولذا عاد سريعًا بصيده الثمين بالنسبة لي على الأقل.

نزعنا بعض الريش من جناحيها، وتركناها في (حوش) البيت نطعمها ونسقيها حتى ألفتنا وألفناها عدة أشهر، وعلى الرغم من أن ريشها بعد هذا الزمن الذي قضته عندنا قد عاد إلى وضعه عندما جلبها الوالد، فإنها استمرت في المنزل حتى ظننا أنها لا تستطيع الطيران. وفي يوم من أيام ذلك الزمان حاولت الإمساك بها، ولكن لم أكد أقترب منها حتى طارت واختفى عنا شكلها، وتركت لي حزنا شديدًا لأنني تعلقت بها كثيرًا.

هكذا كنا نحب طائر القطا، ونترقب مروره بأجوائنا، وكان له من أبناء الكويت من يسعى إلى صيده بشتى الوسائل، وكان الماء هو نقطة الضعف لديه؛ ولذا فإن (المشرع) هو من أهم وسائل صيده. فالمشرع يعتمد على حوض الماء الممتلئ المغطى بالشباك، وعندما يأتي القطا من أجل الشرب فإن المتابع لعملية الصيد سرعان ما يُطبق الشباك على الحوض فيصيد القطا الذي كان فيه.

ومن مظاهر الاهتمام بهذا الطائر أن صنعت النساء نوعًا من الحلوى اللذيذة التي يعتمد صنعها على الطحين والسكر وقليل من المكسرات والدهون تسمى «بيض القطا» وهي حلوى معروفة في الكويت إلى يومنا هذا، ولكنها صارت تصنع في مصانع الحلويات وتباع في الأسواق بعد أن كانت من المصنوعات المنزلية.

ومن المظاهر – أيضًا – اهتمام الشعراء النبطيين عندنا بذكر القطا في أشعارهم، وهم يشبهون دائمًا مشي المرأة المتأنية في سيرها بمشي القطا لأن مشي هذا الطائر موصوف منذ القدم بأنه جميل، والمرأة التي تتأنى في مشيها كانت توصف عند الشعراء العرب القدامى أنها ذات خطوات مماثلة لخطوات القطاة.

ولما كان من المعروف أن القطا لا يطير في الليل وإنما في وقت الفجر عندما يبدأ شعاع نور النهار في الظهور، فإن أسراب هذا النوع من الطيور قد صارت بمثابة إنذار بشيء ما عندما تطير ليلاً لأن من المعروف أنها لم تغادر مكانها إلا لسبب أثارها وجعلها تنطلق من مكان آمن والمثل العربي القديم يقول: «لو ترك القطا لنام» ويقول الشاعر:

ولولا المزعجات من الليالي

لما عاف القطا طيب المنامِ

ومما يروى من الأحداث التي مرت في تاريخ جزيرة العرب في الأوقات المتأخرة أن قبيلة كانت تتوقع هجومًا عليها من قبيلة أخرى ولكنها لم تستطع تحديد الوقت المنتظر الذي يتم فيه الهجوم، وفي ليلة من الليالي رأى هؤلاء أسرابًا من القطا تطير على غير عادتها، منطلقة في أجواز الفضاء مارَّةً بهم فعدُّوا ذلك إنذارًا ببدء الهجوم عليهم، واستعدوا للقاء، مما أفسد وقع المفاجأة على خصومهم.

هذه قصة تروى عما حدث في زمن مضى نرجو ألا تتكرر أحداثه.

وذكر العلماء القدامى المواضع التي يكثر فيه القطا ضمن جزيرة العرب فكان مما ذكروا «كاظمة» الموقع الكويتي المعروف حتى اليوم باسمه هذا.

وممن أتى على ذكر هذا الموقع ابن منظور في كتابه «لسان العرب» الذي لم يكتف ببيان الاسم بل استشهد ببيت من الشعر للدلالة عليه؛ ولذا فهو يقول: «وكاظمة معروفة، موضع، قال امرؤ القيس:

إذ هنَّ أقساطٌ كَرِجْلِ الدّبا

أو كقطا كاظمةِ الناهلِ

تحدث أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ في كتابه «الحيوان» ج٥، ص٥٧٣، وهو من تحقيق شيخي عبدالسلام محمد هارون، نشر مكتبة مصطفى البابي الحلبي بمصر، ١٩٤٣م.

فقال ما فحواه:

- يقال في الأمثال أصدق من قطاة، وإنما ضربوا بها المثل في الصدق لأن لها نداء بصوتها لا يتغير وهو: قطا قطا قطا.

- ويقال: «أهدى من قطاة» لأنها تهتدي إلى مواضع بيضها في المجاهل، وتعرف مواضع المياه.

- من عجائب القطا أنها لا تضع بيضها أبداً إلا أفراداً ولا يكون أزواجًا كغيرها من الطيور.

- يأتي بيضها منقطًا.

- وذكر أن أجود قصيدة قيلت في القطا هي قصيدة المرار التغلبي وهي طويلة، ومطلعها:

بلادٌ مَروراةٍ يَحَارُ بها القطا

ترى الفرخ في حافاتها يتحرّقُ

(المروراة: التي لا يهتدي فيها إلا العارف بها، يتحرق: يتضور جوعًا).

- كما ذكر للشاعر البعيث ما قاله في القطا، وهي أبيات جميلة يصف القطاة وهي مرتفعة في الجو ذاهبة إلى حيث تستقي الماء بحواصلها لكي تسقي به فراخها.

وفي كتاب «حياة الحيوان الكبرى» لكمال الدين الدميري، نشر المكتبة التجارية الكبرى بمصر، سنة ١٩٥٤م. ج٢ ص٢٥٢ ذكر القطا فقال ما نوجزه هنا:

- القطا نوعان: كدري وجوني، وقد أضاف بعضهم إليهما نوعًا ثالثًا هو: الغطاط. وقد بين أن الكدري منها غُبْرُ اللون دُقش البطون والظهور، صفر الحلوق

قصار الأذناب، والقطاة الجونية سوداء البطن والقوادم ظهرها أرقط تعلوه صفرة وهي أكبر من القطاة الكدرية.

- في طبع القطاة أنها إذا أرادت الماء ارتفعت من أفاحيصها أسرابًا غير متفرقة عند طلوع الفجر فتقطع إليه مسافة طويلة، وإذا هبطت عليه شربت كما تشرب الإبل وهو ما يُسمَّى النهل، ثم بقيت مقداراً من الوقت شربت بعده مرة أخرى وحملت في حواصلها ما تقدر على حمله لكي تسقي صغارها. وهي تأتيهم بحملها هذا ليلاً في بعض الأحيان فلا تخطئ مكانهم؛ ولذلك فقد وصفها العرب الهداية.

ولقد ورد ذكر القطا مرارًا في الشعر النبطي الكويتي. وممن تحدث عنه من شعرائنا الشاعر خالد المنشرح العجمي الملقب: بشاعر الإسلام. وقد كتبت عنه في الأزمنة والأمكنة لأكثر من مرة وعرضت شيئًا من شعره على قراء «الوطن». والواقع أنه شاعر جيد الشعر لطيف العبارة. ألفاظه قريبة إلى الفهم ومعانيه فيها من المعاصرة الشيء الكثير. وهو يتطرق في قصائده إلى موضوعات كثيرة ومتنوعة، ولن يستطيع محبو الشعر أن يطلعوا على إنتاجه كاملاً إلا إذا قام بطبع ديوانه، وهذا أمر لا يصعب عليه.

ومن المناسبات الجميلة التي تتيح لنا الاستماع إلى شعر هذا الشاعر المبدع - وهي كثيرة والحمد لله - عندما يقوم بزيارتنا في ديوانية الثلاثاء، وفي هذه الزيارة نرى الفرصة سانحة للاستماع إلى شعره، وهو بطبعه يلبي رغبات الرواد الذين لا يضيعون الفرصة فيطلبون منه أن يسمعهم من جديده الشعري.

كان آخر لقاء معه هو الذي أنشد فيه لنا قصيدته التي جعل عنوانها: «طير القطا». وهي قصيدة غزلية تدل على ملاحظته لهذا الطير في جمال الشكل، وجمال المشية بحيث شبهه بالفتاة الجميلة أو أنه شبه الفتاة به. فقال يوم ذاك:

أنا ليا شفت القطا بالمرابيع
جتني كثيرات الطواري تبارا
قمت أتذكر لابسات الدراريع
إليا تمشّن وسط هاك الخضارا
معهنْ حبيبنْ فوق خَدّه مراديع
اللي من اسبابه غيوني سهارا
الجادل اللي في وْصُوفه مطابيع
من حسنها شبَّتْ قْلوب العذارا
غرو مْلَوَّغني له سنين تلويع
عقب الهنا صارت حياتي دمارا
أدعج غنج فيه المزايا تناويع
لو هي ذهب ما حصلوا له عيارا
حسبي على طير القطا بالمواجيع
ذَكُرني أيام مضت واستذارا

وفي أبياته هذه يذكر خالد المنشرح العجمي ما يلم به من ذكريات (الطواري) عندما يرى القطا في الأماكن التي ازدهرت في الربيع، فعمَّها العشب، وزينتها الأزهار البرية، فإنه عندما صار في هذه الحالة تذكر معارفه من الجميلات اللابسات لأحلى الملابس (الدراريع)، وتخيلهن وهن يمشين وسط المروج الخضراء مَشْي القطا.

ويقول: إنه رأى مع هؤلاء الجميلات حبيبة قلبه الجميلة الأوصاف اللي بسببها سهرت عيناه، تلك الجميلة التي طبعت بطابع الحسن، واشعلت قلوب العذارى حسدًا لها على ما تتصف به من جمال. ثم يقول: هي في رونق شبابها، وتعرف بمشاعري نحوها ولكنها تُكلفني ما لا أطيق من اللوعة بسبب صدودها عني. فأنا بعد ما ذقت الهناء في حياتي أصلي نارًا من الوجد دَمَّرتني.

وعاد إلى وصفها قائلاً: هي ذات عينين دعجاوين (العين الدعجاء هي شديدة السواد مع سعتها) وذات دلال، فيها (تاويع) من المزايا الجميلة، فهي غالية عندي، وغالية في أعين الناس بما يجعلها لا تُثَمَّن بالذهب النفيس.

وفي آخر بيت له تذكر أن طير القطا هو السبب في إثارة كل هذه الشجون، وابتعث المواجع في نفسه وذكره بالأيام الماضية ثم تركه في حسرته؛ ولذا فهو يقول: «حسبي على طير القطا».

كان هذا تعبيراً صادقاً من الشاعر خالد المنشرح العجمي عن أحاسيسه، وعن ذكرياته، وكذلك عن تأثره بطائر القطا الذي أثار مكنون نفسه وذكره بمن يحب، وهذا هو الإبداع الذي عودنا عليه شاعرنا المبدع، وقدمه لنا في قصائده العديدة التي نسمعها منه ويسعدنا الإنصات إليها كلما أتيحت لنا فرصة الاستماع، والاستزادة من هذا المنبع الصافي.

ومما سمعناه من شاعر آخر من شعراء الكويت المجيدين وجاءت فيه إشارة إلى القطا؛ هذه القصيدة التي قالها الشاعر نقيان بن سالم العميري، ويلقب بالقروي لأنه من منطقة القرى، فهو أحد سكان قرية الفنطاس، له شعر كثير، وأغان مشهورة، وهو أحد الشعراء البارزين في مجال السامري، غنى له عدد من المطربين، وكان مشتغلاً في أعمال البحر، وفي الزراعة بحسب ظروف المواسم التي كانت تمر على منطقته.

ولهذا الشاعر قصيدة نبطية تم غناؤها من قِبَل بعض المغنين والفرق الغنائية الشعبية، وأعجب كثيرون بها، بل ولا تزال تعيش في وجدان أولئك الذين يستهويهم الغناء الشعبي، ولا سيما السامري منه، يقول الشاعر في مطلع القصيدة:

البارحة يا عبيد عييت انام

درب الخطا كثّر على الهواجيس

وعبيد تصغير لاسم عبدالله وهو أحد أقاربه، وقد ورد البيت برواية يا عبيدي فكأنه نسب عبيد إلى نفسه، ومما ورد في أبياته:

غديت مثل اللي طواه الهياما

يا حالي اللي مثل طي القراطيس

يا لايم فرخ القطا والحماما

ومخضّبات يطربنْ النواميس

إنه يقول لعبيد: إنني أَبَيْتُ أن أنام الليلة البارحة، وعييت هنا بمعنى: أَبَيْت، ولكنه يقصد بها: لم أستطع، وأراد بقوله: درب الخطا طريق العشق الذي أكثر عليه الوساوس وأضرم في ذهنه الأفكار المتضاربة حتى جفاه الرقاد، وقوله: غديت بمعنى صرت، وهي في العربية: غدوت بمعنى أصبحت، وقد مر بنا تفصيل ذلك. ثم شبه حاله المنطوية على الحزن لشدة هيامه بحال القراطيس المطوية، ثم يَعْجَبُ من الذي يلومه، فكأنه يلوم فراخ القطا والحمام المخضبة (التي يُشَبَّه لون أرجلها بلون الخضاب وهو الحناء) وهن يطربن النواميس ويقصد لها الناس، والنواميس جمع نامسة في اللهجة؛ وهي الروح فجعلها خاصة بالناس.

نعود الآن إلى الشعر الفصيح فنذكر نموذجًا أو اثنين من نماذج ذكر القطا فيه، ولو أردنا الزيادة لوجدنا كثيراً من ذلك ولكن المجال أمامنا ضيق.

ولعل من مشهور ما ورد في هذا السبيل ما ذكره ابن منظور في كتابة «مختار الأغاني» فقد أورد ضمن حديث له عن قيس بن الملوح (مجنون ليلى) بيتين قالهما وهو يستذكر بهما ليلاه:

كأن القلب ساعة قيل يُغدى

بليلى العامرية أو يُراحُ

قطاةٌ عزّها شركٌ فباتت

تجاذبه وقد علق الجناح

(عزها: شدد ضغطه عليها).

والاختيار الثاني لنا فيما يتعلق بقصائد الفصحى التي ذكر فيها القطا يتعلق بما قالته الشاعرة العربية ليلى الأخيلية وهي ليلى بنت حذيفة بن شداد، وسميت بالأخيلية لأنها تنتمي إلى الأخيل وهو كعب بن معاوية الذي سمي بالأخيل لأن الأخيل طائر نشيط لا يستقر في مكان وهذا الرجل مثله في نشاطه وحركته.

قالت ليلى الأخيلية قصيدتها هذه في مدح مروان بن الحكم وهو والد الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان، وقد كان مطلعها:

طربتُ وما هذا بساعة مَطْرَبِ

إلى الحيِّ حَلُّوا بين عاذٍ فَحَبْحَبِ

(طربت: اهتزت نفسي لذكر هذا الحي وتقصد به أهل الحي، وعاذ فحبحب موقعان)، ومنها قولها:

إذا حركتها رجله جنحت به

جنوح القطاة تنتحي كل سبسبِ

جنوح قطاة الورد في عُصب القطا

قرين مياه النهي من كل مقرب

تحدثت ليلى عن نفسها أولاً، وعن أهلها ومكانتهم، ثانياً، ثم عن مقدرتهم في القتال، ولكنها تركت ذلك لكي تتحدث عن راكب تتمنى ذكره، فهو رجل صادق في قوله، له ناقة واسعة الخطو ضخمة الخلقة، ولها رحل متين، تتباعد مرفقاها عن صدرها، يحركها الراكب فتسير به مائلة إلى حيث يريد كما تميل القطا حين تنتحى كل ناحية.

واتخذت هذا البيت بداية للحديث عن القطا فقالت: إن جنوح هذه الناقة أي ميلها يشبه ميل القطاة الذاهبة إلى مورد الماء رحّل مجموعات أخرى من القطا، فإن هذا السرب يجنح مائلاً إلى الماء حين يرى الغدير، لقد تركن المنعطفات التي كنّ بها وغادرن صباحاً مارات ببلدة صواعق وهن متجهات إلى مجرى الماء عند موضع يسمى ذات العين. ولقد انتشين بمنظر الماء حين رأينه، ثم عدن سريعاً بعد أن نلن نصيبهن من الماء.

أما القطاة - التي تفرغت الأخيلية الآن لوصفها - فإنها كما قالت عنها: تبيتُ في الخلاء، مقيمة في الأفاحيص التي صنعتها لتبيض فيها والأفاحص جمع أفحوص وهو شبيه بالحفر صالحة لوضع البيض.

وحين نالت القطاة قليلاً من الماء جعلت شيئاً منه في حوصلتها لكي توصله إلى صغارها، وطارت بما تحمل ضامة جناحيها على جوفها وصدرها وكأنها تحمل سقاءً. تراوح في تحريك جناحيها بين الشدة والارتخاء متجه إلى حيث تريد.

ولقد أحس فراخاها بقدومها، وسمعت هي الأصوات فتدلت إليهما بما تحمل وسقتهما ثم فرغت إلى مناغاتهما وقد خف حملها من الماء ورضبت بسقاية فرخيها وصارت كما تقول ليلى:

غدت كنواة القسب عنها وأصبحت

تراطنها ذرية لم تَعَرَّبِ

وبعد أن وصفت حياة القطاة اتجهت الشاعرة إلى استكمال القصيدة وفق الهدف الذي قالتها من أجله، وهو الذي أشرنا إليه فيما سبق.

وإضافة إلى ذلك نذكر قصيدة لحميد بن ثور الهلالي ورد فيها ذكر القطا بوصف قريب من الوصف الذي قدمته ليلى الأخيلية، ويمكن الرجوع إلى قصيدته هذه في ديوانه المطبوع في الكويت سنة ٢٠٠٢م.

يقول حميد بن ثور: إنه حين ينعت القطا فكأنه يعارض صاحبه مزاحم بن الحارث العقيلي الذي كان له ذكر للقطا عندما يصوت ثم يبدأ بالحراك، أنه يبدأ بقطاة كدراء ينحو لونها نحو السواد، ويقال: هي كدرية والقطا الذي من نوعها كدري، أرقت هذه الكدراء في منطقة اسمها السبال عند منعطف واد يسمى جبة (جزع جبة) وسبب أرقها إحساسها بقرب الماء منها عندما أحست بريح الندى (ريح الثرى).

لقد طارت طيراناً شديداً حتى لتحسب بها جنة حين تهوي: الأمر الذي يقطع حشا صاحبه مزاحم لشدته.

هذا وعدد أبيات القصيدة خمسة عشر بيتاً وهي في ديوانه، والأبيات التي اخترناها هي:

كـأنّـي أبـاري قـطـا صـاحـبـي
إذا هـو صـوت ثـم ابـتـدا

بـكـدراءَ أرّقـهـا بـالـسَّـبـا
ل مـن جـزع جـبـةِ ريـحِ الـنَّـدى

هُـويَّ تـخـال بـه جِـنَّـةً
يُـقـطِّـعُ فـيـه قـطـاك الـحـشـى

وهذا ما تم شرحه أعلاه.

وذكر الاخطل التغلبي القطا في شعره اثنتي عشرة مرة وأول ما ذكره، كان في قصيدة يمدح بها عبدالملك بن مروان، وفيها وصف، ناقته التي تفوق في سرعتها النياق المصاحبة لها في الطريق إلى الممدوح وشبه تزعزع رحالها وكأنها قطا من مكان يسمى عالج وهذا القطا قد احتبس عنه المطر، فهو يسابق الزمن كي يدرك الماء لفراخه، وهي إذا حملت الماء من مورده في حواصلها عادت إلى الفراخ التي قال: انها توائم، أي أنه يؤكد ما سبق لنا قوله من أن القطاة تضع في كل مرة بيضتين.

وذكر في قصيدة أخرى بيض القطا الذي ذكرنا أنه منقط فقال يهجو قبيلة (جُشم):

ولا جُـشَـمُ، شـرُّ الـقـبـائـل، إنـهـا
كـبـيضِ الـقـطـا لـيـسـوا بـسُـودٍ ولا حُـمْـرِ

وفي قصيدة ثالثة، وفيها يصف مسافرين لا يَقِرّ لهم قرار حتى يرحلوا مسرعين وكأنهم القطا الجوني المائل في لونه للسواد، وهو مشهور بالسرعة، ويقول: إن سبب سرعته هو أنه قد فزع بسبب المطر المباغت.

وفي القصيدة الرابعة يتحدث الأخطل عن قطا يسعى جهده في البحث عن الماء لفراخه، وهي صغيرة قد علاها الزغب وكل واحد منها منكمش والمح الساقط منه والقشرة العليا من البيضة وقد كسرت في الأفحوص (وهو موضع بيض القطاة) فكأن الكسرتين وقد تفلقتا: صدفان.

وفي القصيدة الخامسة وهي في مدح يزيد بن معاوية، يذكر القطا في بيت واحد منها ويذكر أن هذا الطائر كان نائماً ولكنه استيقظ بسبب حركة الجمال القادمة نحوه:

عـوامـد لـلألـجـام، الـجـام حـامـز
يُـثـرن قـطـاً، لـولا سُـراهـن هُـجَّـدا

(الألجام: جمع لجم وهو بين السهل والجلد، حامز: أسم مكان).

ويؤكد في قصيدته السادسة ما ذكرنا من أن القطا قوي الاهتداء إلى الأماكن التي يريدها، فيقول:

وفـلاة يـعـفـور، يـحـاربـهـا الـقـطـا
وكـأنـمـا الـهـادي بـهـا مـأمـومُ

واليعفور ظبي بلون التراب شبه به تلك الفلاة، وقوله مأموم: مصاب بشبح في رأسه بحيث لا يستطيع أن يدرك الأماكن التي يريدها.

وفي قصيدة أخرى ذكر الأخطل القفار والمفاوز وعرج على ذكر القطا الذي أجهده الصيف، وأدناه السُّرى من الماء فعاد وهو يحمله بحواصله ناقلًا إياه إلى حواصل فراخه العطاش.

ووصف القطا وهو يغادر مورد الماء بعد أن ملأ حواصله منه لكي ينقله إلى الفراخ، بعد أن روي هو منه فقال:

تراها، إذا راحت رِواءً كأنها
معلَّقة عند الحناجر حنتما

(الحنتم: كوز يشرب به الماء).

وذكر – أيضًا – القطا في قصيدة جاءت في آخر ديوانه: فقال: إن سرب القطا كان فوق جبل (عاهن) وأن بعضها كان ناجيًا فيه وبعضها الآخر هلك في مكانه.

إن الأخطل واسمه غياث بن غوث التغلبي، واحد من الشعراء الذين ذكروا القطا، ومن متابعتي لعدد من دواوين هؤلاء وجدت أن الأقل من هؤلاء هو الذي لم يرد ذكر القطا في شعره.

أما مزاحم العقيلي الذي مر بنا ذكره فله عدة قصائد كان يذكر (القطا) فيها، ومن بين تلك القصائد واحدة طويلة يزيد عدد أبياتها عن الأربعة والثمانين بيتًا تحدث فيها عن القطا حديثًا مفصلًا منذ البيت السابع والخمسين، ولم يترك شيئًا عن حياة هذا الطائر الجميل إلا وذكره، وفَصَّل فيه. وقد اطلعنا على ديوانه المطبوع فإذا بهذه القصيدة قد جاءت في مائة وعشرة أبيات، ولعلها هي التي أهاجت حميد بن ثور الهلالي، فأورد ما يدل على أنه يريد أن يباريه في إجادته لوصف القطا.

هنا نعود – مرة أخرى – إلى القطا حين يكون في الكويت، والواقع أنه لم ينقطع نهائيًّا فهو لايزال يتردد عليها وبخاصة في موسمه المعتاد، وقد ورد ذكر ذلك في كتاب ألَّفَهُ الأستاذ خالد صالح النصرالله تحت عنوان «الطيور في محمية صباح الأحمد الطبيعية»، وهذا الكتاب من أجمل ما قرأت من الكتب المشابهة له في الموضوع فقد زينه المؤلف بصور رائعة كلها تم التقاطها في المحمية بأيدي متطوعين من المصورين المتقنين ذكرهم المؤلف في آخر الكتاب، وعبر عن كل صورة بشرح موجز ولكنه غير مُخِلّ. فيه فائدة، وليست فيه زيادة تمل القارئ.

اجتهد المؤلف في أن يقدم كتابًا علميًّا ثمينًا لائقًا بالموضع وبالموضوع. وقد تحدث عن اثنين ومائتي طائر تمر كلها بهذه المحمية التي أوجدت للطيور المهاجرة مقرًّا أمينًا وممرًّا يكفل لها الماء والغذاء بل ويجعل بعضها يبيض ويرعى فراخه في فترة المرور التي لم تكن طويلة، ومكن الأمن الذي يشعر به الطائر في محمية صباح الأحمد من أن يجعله في راحة تامة يزاول خلالها حياته العادية ومنها التناسل.

ولقد جاء في الكتاب ذكر القطا، وهو قطا كاظمة كما قال عنه امرؤ القيس، لا كما ورد في الكتاب تحت اسم «القطا العراقي» وكنا قد أشرنا إلى وجود القطا في مواقع الكويت ومنها كاظمة التي لا تبعد عن المحمية إلا قليلًا.

في الصفحة الخمسين بعد المائة، صورة لقطاة جميلة تقف بين الأعشاب البرية وتحتها كتب المؤلف ما يلي:

«القطا: مهاجر عابر قليل العدد، يشاهد في الربيع على شكل أسراب متوسطة إلى كبيرة، قد تصل إلى مائة طائر، وفي سنة ٢٠١٠م شوهدت أعداد كبيرة منه، لوفرة الغذاء من حبوب وبذور في المناطق المكشوفة من المحمية، وفي شهر سبتمبر في السنة نفسها شوهدت فراخ القطا عند البرك المائية مما يُعطي مؤشرًا على أن هذا الطائر قد توالد ولو بأعداد قليلة داخل المحمية».

وهذا حديث شامل، ووصف يعطي القارئ تصوراً شاملاً لأوضاع القطا، في الوقت الراهن وبعد إنشاء المحمية، ومن المهم أن نشير إلى أنه قال في البداية عن القطا: إنه مهاجر قليل العدد، فذلك الذي يقصده في الزمن الحالي، أما في ماضي الكويت فإن الأعداد الواردة من طائر القطا كثيرة جدّاً كما وصفنا فيما سبق.

وفي الصفحة الثانية والخمسين بعد المائة نجد صورة رابعة للقطا وهو يطير في تشكيل جميل والصورة تحاكي تدفقات القطا على الكويت في الزمن الماضي، وإن كانت الأعداد قديما هي أكثر كثافة مما نراه في الصورة التي أثبتها الكتاب.

عند هذا يتوقف حديثنا عن القطا، وكل ما أرجوه أن تكون فيه الفائدة المطلوبة، وأن يقدم صورة واضحة المعالم عن القطا في ماضي الزمان.

****

رجال لن ينساهم الوطن: أحمد سعود الخالد[1]

هذا رجل من رجال الكويت الأوفياء، عُرف عنه النشاط القوي في مجال تنمية الحياة الاقتصادية في الكويت، فقد شارك في إنشاء عدد من المؤسسات المالية والتجارية ومؤسسات الخدمة، وتحمل طوال حياته أعباء كثيرة في سبيل إنجاز ما يرى أنه يجب أن يقوم بإنجازه.

أحمد سعود الخالد من أسرة الخالد العريقة المعروفة لدى الجميع، وهي أسرة لها مشاركة في أعمال الخير، من أبنائها فرحان بن فهد الخالد الذي أسس أول جمعية خيرية في الكويت سنة ١٩١٣م، ومن أبنائها أولئك الرجال الذين تبرعوا بالمال والجهد حتى نشأت دائرة معارف الكويت في سنة ١٩٣٦م، ولا ننسى منهم تلك المرأة التي تبرعت بالبيت الموقوف تحت يدها لكي يشمله مبنى المدرسة المباركية، ولذلك قصة جميلة ذكرناها في كتابنا «ملامح من تاريخ الكويت».

إذن فإنه ليس من المستغرب أن يعمل أحمد سعود الخالد في سبيل وطنه الأعمال التي سوف نذكر شيئًا عنها، وهي أعمال تذكر له حتى يومنا هذا.

وقبل أن نتحدث عن أعماله فإننا نستعرض هنا سيرته الذاتية وهي بحسب ما استقيته من ابنته الأخت فضة الخالد، وقد استعرضت معي كثيرًا من تطورات حياة والدها مما سهل لي مهمة الكتابة عنه.

ولد هذا الرجل في سنة ١٩١٠م، وقد توفي والده وهو صغير السن، فعاش في كفالة عمه حمد الخالد الخضير الخالد، وهو الذي تولى تربيته، وأتاح له سبل

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠١٢/١/١١م.

الدراسة واكتساب الخبرات، وكانت بداية ذلك هي في التحاقه بالمدرسة المباركية مع ابن عمه حمود الزيد الخالد الذي ارتبط به برباط الصداقة المتينة إضافة إلى الرباط الأسري الذي يجمعهما.

وعندما بلغ مبلغ الشباب تزوج للمرة الأولى من ابنة عمه لطيفة حمد الخالد وأنجب منها عددًا من الأولاد وابنة واحدة، ثم تزوج للمرة الثانية من السيدة نسيمة عبدالقادر الرفاعي، وله منها أبناء وبنات.

وبدأ العمل، وكان ذلك عندما لاحظ عمه الكافل له أن شخصية صاحبنا قد اكتملت، ووجد أن لديه نبوغًا في المجال التجاري فاقترح عليه هو وابن عمه حمود الزيد الخالد الذي كان مشابهًا له في إمكاناته أن يقوما معًا بعمل تجاري خاص بهما، وقدم لهما رأس المال الملائم لهذا العمل.

كانت بعض الأسر الكويتية قد افتتحت لها مكاتب تجارية في البصرة للمتاجرة ببعض المنتجات العراقية ومنها التمور، وقد فتحت هذه الأسر الباب لتصدير التمور إلى الهند وأفريقيا بكميات كبيرة، وكانت وسيلة النقل هي السفن الشراعية الكويتية التي لولاها لما وصلت هذه التمور إلى تلك الأماكن النائية. وكانت أسرة الخالد قد افتتحت لها مكتبًا هناك لهذا الغرض، وقامت بالنشاط التجاري الذي كان يقوم به هناك أمثالهم من أبناء الأسر الكويتية الأخرى.

ولما انفتح لهذين الشابين مجال العمل بدعم من عمهما، قاما بافتتاح مكتب لهما هناك وبدأ عملهما الأول الذي لم ينل النجاح المطلوب. ولكنهما نجحا في المرة الثانية ونالا ثناء عمهما، وتوالت نجاحاتهما، وكانت شركتهما تحت اسم: شركة أحمد وحمود الخالد، ولم ينقطعا عن هذا العمل التجاري في ذلك الموقع الذي اختاره إلا بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية في سنة ١٩٤٦م، حيث انتقلا

إلى وطنهما: الكويت، وصارا يعملان في مجالهما بعد أن اكتسبا خبرة كبيرة فيه، وعرفا تقلبات الأسعار ومصادر البضائع. ونتيجة لاتساع النشاط التجاري انضم إلى الشركة الثنائية اثنان من أولاد أحمد سعود الخالد هما سعود ومحمد.

ثم لاحت بداية لنشاط مكثف قام بها أحمد الخالد واشترك معه فيها عدد من تجار الكويت. وكان أهم المشروعات التي قام بها هؤلاء هو إنشاء بنك الكويت الوطني، وقد سعوا في سبيل إنشاء هذا البنك حتى أقاموه على أفضل وجه؛ فسدَّ فراغًا كبيرًا في اقتصاد الكويت.

وفي هذا الشأن تحدث المرحوم خالد العبداللطيف الحمد موجهًا حديثه إلى الأخ الأستاذ يوسف الشهاب الذي حاوره ونشر حواره معه في كتابه: «رجال في تاريخ الكويت» ج١ ص١٠٥، وكان أبوسليمان من الذين أسهموا في تأسيس البنك، وكان له جهد واضح في مسيرته، يقول في حديثه: «أذكر أنني كنت جالسًا في محل مشعان الخضير، وجاءنا خليفة الغنيم يشتكي من البنك البريطاني الوحيد في الكويت آنذلك، ولاحظت عليه علامات الحزن وسألته عن السبب فقال: لقد ذهبت إلى البنك البريطاني لفتح اعتماد لي، فقالوا نريد منك كفيلًا، ولا سبيل أمامنا الآن غير تأسيس بنك وطني. وقلت لخليفة الغنيم انت تعرف الإنجليزية وتقدم ونحن معك في تأسيس البنك، وذهبت معه إلى سيد علي وعرضنا عليه الأمر فوافق ثم ذهبنا إلى الصقر ووافق أيضًا وكذلك الخرافي ويوسف الفليج ويوسف الغانم، وكذلك يوسف إبراهيم الغانم.

لكن خالد الزيد وأحمد سعود اعتذرا لعدم توفر السيولة عندهما آنذاك، وكان السهم عاليًا، لكننا طلبنا منهما الاشتراك بأي ثمن، فوافقا ودفعا ١٥٠ الف روبية بينما كانت قيمة السهم ١٠٠٠ روبية وذهبنا إلى المغفور له الشيخ عبدالله السالم وتحدثنا معه في الأمر فوافق وساعدنا مساعدة مالية كبيرة ساهمت بشكل مباشر

وفعال في قيام البنك، وكان رأس المال ٩٨٢,٥٠٠ دينار وبالروبيات ١٣,١٠٠,٠٠٠ روبية موزعة على ١٣,١٠٠ سهم - ويضيف بعد أن تناول ورقة من أمامه - لقد بلغت أرباح البنك في أول ميزانية له بعد تأسيسه (مليونا وسبعمائة وأربعاً وثلاثين روبية) وقد وزع منها على المساهمين (تسعمائة وسبعة عشر ألف روبية).

وكنا ١٢ عضوًا، برئاسة خالد الزيد، ونائبه أحمد سعود الخالد، والأعضاء هم، محمد الخرافي، خليفة الغنيم، سيد علي سيد سليمان ، فهد المرزوق، يوسف الفليج، مرزوق جاسم بودي، يعقوب الحمد، عبدالعزيز الصقر، يوسف إبراهيم الغانم وأنا.

وعندما سأله الأخ يوسف الشهاب: هل أحضرتم مديرًا له؟ أجاب: «نعم .. فقد ذهب خليفة الغنيم، بعد تأسيس البنك إلى لندن للاتفاق مع مدير عام له .. وهناك استطاع أن يتفق مع شخص اسمه «مدليكوت». وجاء الرجل إلى الكويت ليكون أول مدير له، وكان رجلًا مصرفيًّا من الطراز الأول».

ولعل من يقرأ هذا المقتطف من حديث المرحوم خالد العبداللطيف الحمد سوف يلاحظ أمرين:

أولهما: عدم قدرة اللجنة التأسيسية للبنك على الاستغناء عن خالد الزيد وأحمد سعود الخالد عندما اعتذرا عن الاشتراك في المشروع بسبب ضخامة المبلغ المطلوب لا لأنهما لا يقدران على دفعه، ولكن لأنهما مرتبطان بأعمال تجارية كثيرة. وقد قال خالد العبداللطيف «ولكننا طلبنا منهما الاشتراك معنا بأي ثمن، فوافقا».

وثاني الأمرين: ما أشار إليه هذا المتحدث الثقة عندما قال إنهم ذهبوا إلى الشيخ عبدالله السالم الصباح وتحدثوا معه في أمر مشروع البنك الوطني، فوافقهم عليه، وساعدهم مساعدة مالية كبيرة، كانت لها أهميتها المباشرة والفعالة

في ابتداء العمل البنكي المراد وضعه أمام أبناء الكويت حتى لا يضطروا إلى الوقوف في المواقف التي وضعهم فيها البنك البريطاني الذي كان متحكمًا في سوق الكويت، ويملي مايشاء من قرارات على عملائه.

كانت وقفة الشيخ هذه من الوقفات المهمة في أعماله، هذا ومما يدل على معرفة الهيئة المؤسسة للبنك بمدى الإمكانات التي يحوزها كل من خالد الزيد الخالد وأحمد سعود الخالد، فقد وقع اختيار الرجال الذين تضمهم الهيئة على الأول ليكون رئيسًا لمجلس إدارة البنك، وعلى الثاني ليكون نائبًا له.

لقد كان أحمد سعود الخالد عند حسن ظن زملائه به، فمنذ أن تأسس مجلس الإدارة، وتولى منصبه فيه قام بجهود كثيرة في سبيل إنشاء البنك منذ أن أعد له المكان المناسب إلى أن أشرف على اختيار العاملين فيه، ثم إلى أن بدأت مسيرة هذا المشروع الوطني المهم، وسار من نشاط إلى آخر، مُتقدمًا في كل أعماله ولايزال موضع الاهتمام والتقدير في الكويت وفي خارجها.

ولم يتردد رئيس مجلس الإدارة خالد الزيد في دعم نائبه وإتاحة كافة الفرص له حتى ينتج ويبدع في كل ما ينتجه وهذه طباع الكويتيين الأوائل الذين يبذلون جهدهم في الأعمال العامة في كثير من الإيثار ونكران الذات .

ومما يذكر لأحمد سعود الخالد أنه ذو طبيعة هادئة، ونفس كريمة، وصدق في كل ما يؤديه من قول أو عمل، وكان قليل الكلام، دائم التفكير في ابتكار الجديد الذي يدفع بالأعمال التي يضطلع بها إلى الأمام، وكان يسعى للتطوير وتقديم الأفضل دائمًا. وإضافة إلى كل ذلك فقد كانت له نظرة بعيدة يتطلع من خلالها إلى المستقبل دون أن يقف عند الحاضر. وكان يستكشف بها الفرص التجارية المهمة على أن تكون مرتبطة بمصلحة الوطن مثل ما حدث مع بنك الكويت الوطني.

ولعل من المهم هنا أن نشير إلى عمل آخر من أعماله، له هذه الصفة التي يتيحها له استطلاع مستقبل الأعمال المقترحة فإنه بعد إنجازه الأمور البنكية التفت إلى شيء آخر مهم يقوم به، وكان هذا العمل هو إنشاء شركة طيران كويتية.

كانت فكرة إنشاء هذه الشركة قد جالت في ذاكرة الرجل الباحث عن الفرص التجارية المستقبلية التي تفيد بلاده وتعود بالنفع على مواطنيه، وتكون في الوقت نفسه نوعًا من الاعتماد على النفس في الأعمال التي كان يقوم بها أجانب عن الوطن بينما يستطيع المواطن الكويتي أن يقوم بها بالمقدرة نفسها.

كان أبو سعود هو صاحب فكرة إنشاء شركة الطيران التي نتحدث عنها، وكان القصد منها تنمية العلاقات مع دول العالم، وتعميق الاتصالات في وقت كانت الاتصالات فيه تكاد تكون صعبة، في سنة ١٩٥٣م اجتمع أحمد سعود الخالد مع صديقه نصف اليوسف النصف، وقدم إليه فكرته الخاصة بإنشاء شركة طيران كويتية، فوجد من الصديق اقتناعًا تامًا بالفكرة وترحيبًا بها، وهنا اطمأن أبو سعود إلى أن مسعاه سوف ينجح لأن نصف اليوسف لم يتردد لحظة واحدة في تأييده، وصار العمل بعد ذلك مشتركاً بينهما، فقاما بطرح الفكرة على عدد من زملائهما رجال الاعمال النشطين في ذلك الوقت، فوافق هؤلاء جميعاً، وأبدوا استعدادهم للعمل على إبراز الفكرة إلى حيز التنفيذ، وقد تحقق هذا الامل عندما وصلت أول طائرة في شهر فبراير لسنة ١٩٥٤م من أجل العمل في شركة الخطوط الجوية الكويتية.

وكانت خلاصة ما جرى هو ما ذكرناه في يوم ما وكان كما يلي: «لقد كانت فكرة إنشاء شركة طيران كويتية تدور في ذهني المرحومين أحمد سعود الخالد ونصف اليوسف النصف وهما اللذان طرحا الفكرة على عدد من التجار ورجال الأعمال الذين رحبوا وعملوا على تحقيقها وقد ساهم في المشروع الوليد كل من:

خالد الزيد الخالد، أحمد سعود الخالد، خليفة خالد الغنيم، خالد العبداللطيف الحمد، علي سيد سليمان، يوسف أحمد الغانم، عبدالعزيز حمد الصقر، يوسف العبدالعزيز الفليج، محمد عبدالمحسن الخرافي، مشعان الخضير، نصف اليوسف النصف، وآخرين.

إضافة إلى ذلك فإن الشركة الأهلية قامت في اليوم الرابع من شهر نوفمبر لسنة ١٩٥٤م بعد اتفاق مع مؤسسة الخطوط الجوية البريطانية لما وراء البحار، وكان من ضمن بنود هذا الاتفاق تزويد الشركة الكويتية بالملاحين وقد عمل عدد من هؤلاء منذ البدء في التشغيل وكلهم بريطانيون وكانت فترة عملهم تتراوح بين السنة والخمس سنوات، لأن الشركة الأم تقوم باستبدالهم دورياً.

نتساءل الآن: هل سيتوقف هذا الرجل النشيط بعدما شارك وأشرف على مؤسستين من أكبر المؤسسات في الكويت، وأكثرها نشاطاً واستمرارية؟.

والجواب: أن الأمر ليس كذلك، فقد سار في طريقه الذي يتمثل بالقيام بالتفكير في مشروع جديد كلما قام بتنفيذ مشروع سابق وهذا هو ما سوف نراه: كانت الخطوة الثانية هي البدء بمشروع مهم آخر، هو إنشاء شركة السينما الكويتية، ولم تكن في الكويت دار واحدة للسينما، وكنا نرى الأهالي يستأجرون الأفلام من محلات خاصة ثم يعرضونها في بيوتهم ويفسحون المجال لجيرانهم الراغبين في مشاهدة ما يعرض، وقد كانت المشكلات تعيق العرض في أحيان كثيرة، كما أن عدد المشاهدين يزيد كثيراً عن طاقة استيعاب المكان المختار في المنزل فيحدث شجار لا تحمد عواقبه في أكثر الأحيان، ولذا فإن إنشاء شركة للسينما يساهم بها المؤسسون والمواطنون سوف يكفل عرضاً جيداً للافلام مع حسن الاختيار لها، إضافة لجمال الموقع، والراحة في الجلوس.

وقدم لمصر قرضًا لاستعماله في تحسين خدمة قناة السويس يكاد يصل إلى عشرة ملايين دينار، وقد قصد منها أن يُسْهم في تعميق القناة وتوسيع مدخلها، وتحسين منشآتها ومعداتها.

وفي السنة المالية الرابعة ١٩٦٥م - ١٩٦٦م عاد الصندوق الكويتي للتنمية الاقتصادية العربية إلى تمويل مشروع سوداني آخر بعد الذي مر بنا ذكره في ميزانية السنة الأولى من عمله. وهذا المشروع الذي وقع على اتفاق القرض الخاص به في اليوم الخامس عشر من شهر يوليو لسنة ١٩٦٥م، كان من أجل تمويل مصنع السكر، وكان من المقرر أن تقرض حكومة السودان ما يتوفر لديها من قرض الصندوق إلى مؤسسة التنمية الصناعية السودانية التي سوف تتولى تنفيذ وإدارة المشروع.

وفي السنة المالية ١٩٦٦م - ١٩٦٧م ازداد نشاط الصندوق بعد تجاربه في أربع سنوات مالية سابقة، فجاءت السنة الخامسة ليقدم أربعة قروض حصل منها المغرب على قرضين أحدهما لتمويل مشروع زراعي، وقد تمَّ اختيار موقع المشروع بحيث يفيد منطقة هي في أمسّ الحاجة إلى مثله بسبب ظروفها المعيشية، والقرض الثاني لتنمية منطقة زراعية تقع في شمالي جبال الأطلس في وسط المغرب.

وفي الوقت نفسه نالت تونس قرضًا للصرف على المرحلة الثانية من مشروع حلق الوادي وذلك بإضافة وحدتين للطاقة تزيد بهما قدرة الكهرباء التي تحتاج إليها المنطقة، مع إنشاء خطوط لنقل الطاقة.

وحصل لبنان - في الميزانية ذاتها - على قرض لتمويل مشروع محطة الكهرباء في جونية. وقد منح القرض للمصلحة الوطنية لنهر الليطاني بكفالة من الحكومة اللبنانية.

لم يتباطأ الصندوق الكويتي للتنمية الاقتصادية العربية منذ نشأ عن القيام بمهماته التي أنشئ من أجلها، ولئن كنا قد لاحظنا همَّة القائمين عليه منذ البداية، فإن ما قام به الصندوق بعد ذلك أجدى، وكانت الحركة مستمرة إلى يومنا هذا، واكتسب بذلك سمعة طيبة في المحافل الاقتصادية الدولية. ونوَّع أعماله بحيث لم يعد خزينة مالية تدفع الأموال وتستردها وفق العقود التي تُبرم مع المقترضين، ولكنه أضحى مؤسسة إنسانية تهتم برقي الدول النامية في مختلف مجالات الرقي من تعليم وصحة وإنشاء طرق وسدود، ومن المشاركة في الندوات واللقاءات المختلفة التي تتداعى لها الأمم في سبيل دراسة أوضاع العالم الثالث بغية تطويره، وإيصاله إلى المستوى الإنساني المطلوب. وقد كان لصندوقنا اتساع في عملياته وصلت إلى عدد كبير من الأقطار في البلاد العربية وأفريقيا وآسيا وغيرها. وكل هذه العمليات تهدف إلى مصلحة الإنسان وتتحرَّى تقدمه وازدهار وضعه المعيشي والصحي والتربوي.

يمتلك الصندوق جهازًا إعلاميًّا راقيًا، يقدم لمن يريد كل ما يمكن من معلومات من مختلف الأعمال. ويقوم بنشر التوعية حول المشروعات المهمة التي يقوم بها الصندوق أو يشارك فيها وله مطبوعات عدة تتمثل فيما يلي:

- مطبوع إعلامي تحت عنوان: «شركاء في التنمية» يتحدث عن كل أعمال الصندوق من قروض ومنح ومساعدات. ويذكر مساهمات الصندوق في مؤسسات التنمية العربية والإقليمية والدولية، وقد صدر بمناسبة مرور خمسين سنة على نشأة الصندوق.

- كتاب يضم الحقائق والأرقام عن القروض والمنح والمعونات الفنية التي قُدِّمت للدول العربية حتى شهر مارس لسنة ٢٠١١م وهو من المطبوعات الخاصة بالاحتفال الخمسيني.

- التقرير السنوي عن الصندوق.

– مجلة فصلية باسم «الصندوق» يرأس تحريرها السيد عبدالوهاب البدر وتدير تحريرها الأستاذة منى العياف، والمجلة تقدم كل شيء عن الصندوق، وعن المواقع التي تصل إليها قروضه وخدماته الأخرى.

– مجموعة من المطويات تتناول بعض الأمور المهمة التي يُعنى بها الصندوق، إحداها عن مشكلة عمق النهر في أفريقيا، وأُخرى عن مشاركته في تنمية القطاع الزراعي، وكذلك عن المساهمة بتطوير قطاع المياه والصرف الصحي. بالإضافة إلى أعمال أخرى مبهرة يقوم بها هذا الصندوق الذي صار لنا فخراً ومجال اعتزاز.

ينبغي ألا ننسى ونحن في حومة الحديث عن الصندوق الكويتي للتنمية الاقتصادية العربية، رجلًا كانت له اليد الطولى في سير الصندوق وفي تقدمه، وفي اكتسابه السمعة الطيبة التي اكتسبها نتيجة للأعمال التي أداها. هذا هو الأخ الكريم عبداللطيف يوسف الحمد الذي شغل منصب مدير عام الصندوق بالوكالة في وقت مبكر من إنشاء هذا الصندوق. وفي شهر مايو لسنة ١٩٦٣م صار هو المدير الذي آلت إليه الإدارة الكاملة لهذا الصرح الاقتصادي الكويتي الكبير.

والأخ أبو أحمد رجل نشيط إلى حد كبير، أمين على عمله، حريص على أن يتفوق حتى على نفسه منذ كان طالبًا في المدرسة القبلية في الكويت إلى أن درس في كلية فيكتوريا بمصر ثم في الجامعة الأمريكية هناك وأكمل دراسته في أمريكا وتولى مناصب عدة، وشارك في مهمات كثيرة، ولجان متنوعة منها ما هو في الكويت ومنها ما يخص دول العالم الأخرى، وهكذا نرى أنشطته في طوكيو ونيويورك وبانكوك وهلسنكي واستوكهولم وشيكاغو ولندن وغيرها.

بارك الله فيك يا أبا أحمد، وبارك في جهودك، وأمدَّك بالصحة والعافية، ونشكرك فقد رفعت رأسنا عاليًا.

****

رجال لن ينساهم الوطن: حمود الزيد الخالد[1]

تحدثنا عن هذا الرجل بصورة خاطفة ضمن المقال الذي نشرته لنا «الوطن» في «الأزمنة والأمكنة» عن ابن عمه المرحوم أحمد سعود الخالد، ولقد لاحظنا – عند ذاك – أن علاقتهما كانت أقوى من أشد العلاقات التي تتم بين الناس؛ فهو ابن العم والصديق والشريك المالي لأبي سعود. ولأسباب متعددة فإن حمود الزيد الخالد يستحق منا أن نقدم المزيد عنه. فهو من رجال الكويت المخلصين الذين بذلوا جهودًا كبيرة في خدمة الوطن، إضافة إلى ما كان يتمتع به من فكر ثاقب يدل على عقلية ناضجة. ومن أخلاق حميدة سامية، وصلات طيبة بالناس الذين أحبوا فيه تلك الصفات، ووجدوا فيه مثالًا للرجل المخلص الوفي، الصادق في تعامله معهم، الحريص على أن يكون دائمًا على الصورة المثلى التي عرفه الجميع بها.

ولد المرحوم حمود الزيد الخالد في مدينة الكويت خلال سنة ١٩١١م، وكانت وفاته في اليوم السادس عشر من شهر أغسطس لسنة ١٩٧٤م، وعاش منذ نعومة أظفاره في بيت عرف بالاهتمام بأعمال الخير، وبالنشاط المتعدد النواحي، فقد كان أهله: آل خالد من أبرز الأسر المساهمة في نهضة الكويت بشقيها التعليمي والصحي. وكان صاحبنا رائدًا من رواد الديموقراطية في وطنه، ورجلًا بارزًا في ميادين الخدمة العامة، وفي مجال الاقتصاد بصورته الواسعة.

شارك في عضوية المجلس البلدي منذ سنة ١٩٥٠م إلى سنة ١٩٥٣م، وكان ممثلًا لهذا المجلس في مجلس الإنشاء.

---

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠١٢/٤/١٨.

وفي سنة ١٩٥٢م جرت في الكويت انتخابات لاختيار أعضاء مجالس إدارات بعض الدوائر الحكومية بمعدل اثني عشر عضوًا لكل مجلس منها. وقد فاز حمود الزيد الخالد بعضوية مجلس البلدية، وكان معه في العضوية كل من يوسف الفليج وعبدالعزيز العلي المطوع وعبداللطيف النصف وعبدالله السدحان وآخرون، وكانت رئاسة المجلس البلدي للشيخ فهد السالم الصباح.

وفي اليوم السادس والعشرين من شهر أغسطس لسنة ١٩٦١م صدر المرسوم الأميري رقم ٦١/١٢ بتأليف هيئة تدعى هيئة التنظيم. وجاء في ديباجته ما يلي: «رغبة منا في إقامة نظام للحكم على أسس واضحة متينة، وتمهيدًا لإصدار دستور للبلاد يستمدُّ أحكامه من ظروفها، ويستند إلى المبادئ الديموقراطية، ويستهدف رفاهية الشعب وخيره رسمنا بالآتي: وكان الآتي هو ما جاء في المادة الأولى من المرسوم الأميري وهي تنص على تأليف هيئة التنظيم مع ذكر أسماء الأعضاء وكانوا أحد عشر شخصًا منهم حمود الزيد الخالد.

وكان من أعمال هيئة التنظيم الاشتراك مع أعضاء المجلس الأعلى (وكان بمنزلة مجلس الوزراء) في وضع مشروع قانون لانتخاب أعضاء المجلس التأسيسي الذي يتولى عند تأليفه إعداد دستور البلاد.

وأمضى حمود الزيد الخالد في لجنة التنظيم منذ بدأت إلى أن انتهت في سنة ١٩٦٢م، ذلك لأن فترة الحياة البرلمانية بدأت في هذا الوقت.

وفور بدء الترشيح لانتخابات المجلس التأسيسي قدم نفسه مرشحًا ففاز بالعضوية، وساهم في عدة أعمال من داخل هذا المجلس منها المشاركة في لجنة إعداد الدستور التي شكلها المجلس، ثم استمر في نشاطه في مختلف مجالات العمل التي تتطلبها عضويته.

كانت الجلسة الثانية من جلسات المجلس التأسيسي قد انعقدت في يوم الأربعاء الحادي والثلاثين من شهر يناير لسنة ١٩٦٢م. وقد جرى فيها بحث خمسة موضوعات هي: إقرار محضر جلسة الافتتاح التي تمت في يوم العشرين من شهر يناير لسنة ١٩٦٢م، والاطلاع على الرسائل الواردة، وتأليف لجنة للرد على الخطاب الأميري، ومناقشة اقتراح قدمه العضو الدكتور أحمد الخطيب بشأن علنية الجلسات، أما الموضوع الخامس فيتعلق بتأليف لجنة تتولى وضع مشروع اللائحة الداخلية للمجلس، تتبعها لجنة الطعون والاقتراحات.

وتهمنا هنا الإشارة إلى الموضوع الثالث، وهو لجنة الرد على الخطاب الأميري، فقد ذكر محضر الاجتماع الثاني للمجلس التأسيسي أن رئيس المجلس طلب من الأعضاء ترشيح أربعة منهم يُشكلون هذه اللجنة، فأجمعوا كلهم على اختيار كل من: سمو الشيخ سعد العبدالله السالم، والسيد حمود الزيد الخالد، والسيد سليمان الحداد والسيد يعقوب الحميضي.

ومن هذا الذي ذكرناه يتبين لنا أن نشاط صاحبنا قد ابتدأ مع ابتداء عمل المجلس لم يتأخر عن ذلك. وقد اختاره الرئيس ضمن من اختار للمهمة التي قامت بها اللجنة لأنه يعرف قدراته التي تميز بها، ويرى أن باستطاعته أن يُسهم في أداء هذا العمل، وقد تبين ذلك فيما بعد عندما قدمت اللجنة تقريرها عن الرد على الخطاب الأميري، وعند مناقشاته أثناء عرض مشروع الرد كما صاغته اللجنة.

هذا وفي الجلسة ذاتها تم اختيار حمود الزيد الخالد مع اثنين من زملائه الأعضاء للإشراف على انتخاب اللجنة التي وكل إليها أمر اللائحة الداخلية. وهذا أمر آخر يضاف إلى أعماله المتسارعة داخل المجلس التأسيسي.

وفي جلسة المجلس التأسيسي المنعقدة في مساء يوم السبت الرابع والعشرين من شهر فبراير لسنة ١٩٦٢م. تطرق المجلس إلى أمور كثيرة منها الحصانة التي

ينبغي أن يتمتع بها العضو. وقد شارك حمود الزيد الخالد – يومذاك – في إبداء الرأي حول هذه المسألة، وكان وزيرًا للعدل إضافة إلى عضويته في المجلس، فقال على سبيل التوضيح بعد أن تساءل سمو الشيخ جابر الأحمد الجابر عن مدى قانونية منح الحصانة للأعضاء بقوله: «إنني أريد أن أسأل السيد الخبير القانوني: هل بحث هذه النقاط من حيث المبدأ مخالف للقانون أم لا؟

فكان الرد من وزير العدل:

«إن الحصانة برأيي غير مخالفة للقانون والحصانة البرلمانية موجودة في جميع برلمانات العالم، ولا أعتبره اقتراحًا بل حقًا من حقوق الأعضاء، وأصر على أن تكون للمجلس وللأعضاء حصانة».

كانت هذه هي الجلسة الرابعة للمجلس وكان الأسلوب البرلماني جديدًا على الأعضاء ولكنهم أبدوا مقدرة وتفهمًا لهذا الجديد.

وقال حمود الزيد الخالد عن الحصانة مرة أخرى: «إن الحصانة ضرورية جدًّا، ونحن مستعدون للتقيد بجميع جوانبها».

وفي اليوم السابع عشر من شهر يناير لسنة ١٩٦٢م صدر المرسوم رقم ٦٢/٢ الذي يقضي بتعيين الوزراء، وقد تم صدوره بتوقيع الشيخ عبدالله السالم الصباح. واشترك في هذه الوزارة ثلاثة من رجال الكويت المعروفين من خارج نطاق الأسرة الحاكمة وهم حمود الزيد الخالد وعبدالعزيز الصقر ومحمد بن يوسف النصف. وتولى حمود الزيد الخالد حقيبة وزارة العدل وسار فيها منذ ابتدأ سيرًا يدل على الوفاء لآرائه التي يجاهر بها دائمًا من حيث حرصه على المصلحة العامة ومساعدة الناس على نيل حقوقهم.

واشترك حمود الزيد الخالد – أيضًا – في الحكومة التي تم تشكيلها في اليوم الثامن والعشرين من شهر يوليو لسنة ١٩٦٣م، ولكنه استقال في اليوم

الحادي والعشرين من شهر مارس لسنة ١٩٦٤م، واعتزل العمل السياسي نهائيًا. ولكن الاستغناء عن خدماته مستحيل ففي هذه الفترة تم إنشاء ديوان المحاسبة فكان هذا الرجل هو أول رئيس له، فقد تم تعيينه في اليوم العشرين من شهر يونيو لسنة ١٩٦٤م واستقال منه في شهر مارس لسنة ١٩٦٥م.

وعلى الرغم من استقالته، وعزوفه عن الأعمال الرسمية، فإنه كان مشاركًا في لجان مهمة كثيرة منها عضوية لجنة تعديل القوانين التابعة لمجلس الوزراء. وقد بقي عضوًا فاعلًا فيها حتى وفاته في اليوم السادس من شهر أغسطس لسنة ١٩٧٤م. (رحمه الله).

وكان في فترة من فترات حياته المليئة بالعمل وبالنشاط منخرطًا في العمل الخيري كما كان أهله من قبل، وكان عضوًا في اللجنة الشعبية لجمع التبرعات مع مشاركته في أية لجان تعقد لغرض مشابه. إضافة إلى لجان التّسْويات التي تقوم بالتحكيم بين الأسر عند وجود أي اختلاف وهذه لجان تخص كل موضوع وكل أسرة على حده، وليس لها صفة الديمومة إذ هي تشكل كلما دعت الحاجة، ووجدت المشكلة التي يحرص حمود الزيد الخالد ومن هم على شاكلته على حَلِّها حفظًا للأسر حتى لا تتفكك.

كان دور الرجل في التجارة والاقتصاد بصورة عامة دورًا مهما منذ فترة شبابه. وكان حريصًا على تطوير عمله في هذا المجال، ولذا فقد ساهم في نهضة الكويت الاقتصادية والعمرانية على حد سواء.

وعندما اجتمع عدد من زملائه العاملين في الميدان التجاري وهو واحد منهم في سنة ١٩٥٩م، وتحدثوا فيما بينهم عن ضرورة إنشاء هيئة شعبية تجارية تنهض بالعمل التجاري وتدعم التجار عندما يرغبون في تنمية أنشطتهم، دَلَّهُمْ البحث إلى ضرورة إنشاء غرفة تجارة الكويت، ومنذ ذلك التاريخ تأسست الغرفة التي

لايزال نشاطها بارزًا مفيدًا سواءً أكان ذلك محليًّا أم خارجيًّا يتمثل في الاشتراك في الوفود الاقتصادية وعضوية الهيئات الدولية والإقليمية المماثلة، واستقبال زوار الكويت من المهتمين بالتجارة والصناعة والاقتصاد بوجه عام، وهذا ما نشهده اليوم من نشاط الغرفة. وقد بقي حمود الزيد الخالد عضوًا في مجلس إدارة الغرفة حتى وفاته، ولم يتأخر عن القيام بأي عمل من أعمالها، وكان خلال تلك الفترة نائبًا لأمين الصندوق الفخري، وكان عضوًا في مكتب الغرفة، وفي لجنة التحكيم ولجنة المبنى. وكان ممثلًا للغرفة في كثير من اللقاءات التي تقوم عن طريق اللجان الاقتصادية والقانونية.

ولم يكتف – رحمه الله – بذلك فقد كان قطبًا في كثير من التحركات المتعلقة بتنشيط الاقتصاد في الكويت، وكان شريكًا دائمًا في تأسيس الشركات المساهمة الكبيرة التي برزت في فترتي خمسينيات وستينيات القرن الماضي، وقد كان من أبرز المساهمين في إنشاء بنك الكويت الوطني وغيره من الشركات مما سوف نراه بعد قليل.

كل هذه الأمور تدلنا على مدى نشاطه، وقدرته على تحمُّل المسؤوليات بمختلف مجالاتها. كما تدلنا على إحاطته بمعلومات كثيرة في كل عمل يضطلع به، ولذا فقد كان لافتًا للنظر في خبرته القانونية، فهو إذا ناقش القانونيين حسبته واحدًا منهم، وكانوا يظنون أنه من المختصين بمهمتهم والدارسين لما قاموا بدراسته خلال حياتهم والواقع أن إلمامه بذلك ما هو إلا نتيجة من نتائج ذكائه المفرط.

ومما يجب أن يذكر هنا عن مساهمات حمود الزيد الخالد في المجال الاقتصادي الكويتي إسهامُهُ في قيادة شركة ناقلات النفط الكويتية فترة من الزمن. وهذه الشركة من أهم ما تم انشاؤه من شركات في بداية النهضة التي شَهِدَتْها البلاد خلال فترة الخمسينيات. ففي سنة ١٩٥٧م طرحت أسهم هذه

الشركة التي أقبل عديدون من المواطنين على شرائها والاستثمار فيها. ولما كان الأساس الذي بنيت عليه متينًا، فإنها كانت تزداد تمكنًا ويتسع عملها يومًا فيومًا. ويكفي أن عملها الآن يشمل منازل سكان الكويت بأسرها إذ لا يستغني منزل عن قارورة الغاز التي صارت لها أهمية عند الجميع فهي أهم وسيلة من وسائل إعداد الأغذية. وتهتم الجمعيات التعاونية بتوصيلها إلى المساكن بحسب الطلب.

وقد ابتنت الشركة أول ناقلة نفط لها في اليوم الخامس عشر من شهر أبريل لسنة ١٩٥٩م. وأطلقت عليها اسم كاظمة تَيَمُّنا بهذا الموقع الكويتي العريق. ثم استمرت في تزويد نفسها بالناقلات، ومنها ناقلتان رست مناقصة إنشائهما على شركة يابانية وذلك في سنة ١٩٦٤م وقد تسلمت الشركة أول ناقلة منهما في آخر السنة التي طرحت فيها المناقصة وتسلمت الناقلة الثانية في مطلع سنة ١٩٦٥م.

وقد أعلنت الشركة في سنة ١٩٦٤م ميزانيتها، وقدمت لها بمقدمة بينت فيها العوامل التي كانت وراء تأسيس هذه الشركة المهمة ومما ذكرته:

١ – إن الكويت إحدى دول العالم الرئيسية المنتجة للنفط، بل إنها لتأتي في المرتبة الرابعة بعد الولايات المتحدة وفنزويلا والاتحاد السوفييتي من حيث إنتاجاتها النفطية.

٢ – إن الكويت ذات تاريخ في الأعمال البحرية من حيث بناء المراكب وشق البحار سعيًا وراء التجارة وجلبًا لأسباب الرزق والمعيشة.

٣ – انتشار الوعي بأن الخدمات هي المقومات الرئيسية لاقتصاد هذا البلد وأن النقل البحري يأتي على رأس الخدمات الواجب الاهتمام بها ورعايتها بل واستثمار أكبر قسط من رؤوس الأموال فيها.

وكانت ميزانية الشركة المشار إليها مذيلة بتوقيع حمود الزيد الخالد بصفته رئيسًا لمجلس إدارتها. وقد لاحظنا أن فترة صدور الميزانية كانت فترة من فترات النشاط الواضح كما أشرنا سلفًا، وكان صاحبنا هو صاحب هذا النشاط.

من أبرز أعمال حمود الزيد الخالد في المجلس التأسيسي مشاركته في عضوية لجنة صياغة الدستور، وكان حينذاك وزيرًا للعدل، وتتكون اللجنة من رئيس المجلس عبداللطيف الثنيان وسمو الشيخ سعد العبدالله السالم وسعود العبدالرزاق ويعقوب الحميضي بالإضافة إلى صاحبنا. وكانت له مناقشات كثيرة يهدف من ورائها إلى حماية الحريات، والحرص على تطبيق القانون في جميع الأحوال. وقد حدث أن نوقشت المادة رقم (٢٢) من الدستور في إحدى جلسات اللجنة المذكورة وكان نصها:

«لكل فرد أن يخاطب السلطات العامة، كتابة وبتوقيعه، ولا تكون مخاطبة السلطات باسم الجماعات إلا للهيئات النظامية والأشخاص الاعتبارية.

فتكلم حمود الزيد الخالد في هذا الشأن قائلاً: «هل يتعارض هذا النص مع رفع عريضة من عدة أشخاص؟».

ولم يتوقف عن الاستفسار، ومتابعة البحث في الموضوع إلا بعد أن تحدث الخبير القانوني (الأستاذ محسن عبدالحافظ) فقال: «إن ذلك يعتبر موقفًا من أشخاص ولا يعتبر من جماعة».

وتحدث السيد حمود الزيد الخالد - أيضًا - عندما تلا الخبير القانوني المادة السادسة من الدستور ونصُّها:

«الجنسية الكويتية يحددها القانون. ولا يجوز إسقاطها ولا سحبها إلا في حدود القانون».

فقال: «اقترح أن يُنَصّ صراحة على كيفية إسقاط الجنسية عن الكويتيين بالولادة. فيجب أن يكون هناك نص صريح يبين كيفية ذلك، كما أنه يجب ألا تسقط الجنسية الكويتية عن الكويتي بالولادة مهما كانت الظروف.

وعندما احتدم النقاش حول هذا الموضوع باعتبار أن النص فيه عبارة احترازية وهي: «إلا في حدود القانون» قال صاحبنا: «اعترض على النص، فجعل اسقاط الجنسية جائزًا في حدود القانون؛ أمر غير صحيح، والواجب النص في الدستور على أنه لا يجوز إسقاط الجنسية، أي أن تحذف العبارة: «إلا في حدود القانون».

ثم عقب على مداخلة أحد أعضاء اللجنة فقال:

«إننا نخشى أن تتخذ الحكومة في الكويت هذا الإجراء القانوني في سبيل سحب جنسية الكويتيين، وترمي بهم خارج الحدود دون محاكمة».

لقد كان نقاشاً راقياً، ونحمد الله أن محاضر جلسات لجنة صياغة الدستور محفوظة إلى اليوم حتى نقرأ ما كان يفكر به رجال الكويت في تلك الفترة من حياة وطننا وندرك كم كانوا مخلصين للأمانة التي تحمَّلوها، وقد رأينا مدى الاهتمام بمستقبل الوطن والمواطنين معاً.

ومن دلائل ذلك ما قاله حمود الزيد الخالد في الجلسة الأولى من جلسات تلك اللجنة، فقد وصفت بأنها كلمة معبرة وهي بالفعل كذلك صدرت من رجل حكيم محب لوطنه له تجارب وخبرات عميقة في مختلف شؤون الحياة. لقد تحدث يومذاك فقال: «إن دستور الكويت هو الأحدث، لذا يجب أن يكون دستوراً مثالياً تقتدي به الدول العربية».

في جلسة المجلس التأسيسي رقم ٦٢/٢٩ التي جرت وقائعها في اليوم السابع والعشرين من شهر نوفمبر لسنة ١٩٦٢م، كان موضوع النقاش حول مكافأة عضو مجلس الأمة، وكان المبلغ الذي يستحقه عضو المجلس على سبيل الاقتراح في الجلسة مبلغًا يتراوح النقاش حوله، ولكن أعلاه كان ثلاثمائة وخمسين ديناراً، صحيح أن أحد الأعضاء قد تفلسف في سبيل رفع المبلغ قائلًا إن الدول الأخرى

تزيد على المكافأة الشهرية أمراً مهما هو الإعفاء من الضرائب والرسوم، وقد غاب عن ذهنه أن حكومة الكويت إلى هذا اليوم لا تتقاضى ضرائب من الناس.

وكنا على الرغم من ذلك نرى القناعة التامة سائدة لدى الجميع على عكس ما نراه الآن من تسابق على الزيادات، وكأن هؤلاء إنما أتوا من أجل المكافأة التي صعدت بناءً على إلحاحهم إلى مبلغ طائل وخيالي.

وكأن حمود الزيد الخالد يرى المستقبل بعين ثاقبة، ويُحسُّ بالطمع الذي سوف يسيطر على (بعض) الأعضاء بعد أن تمر السنوات على تلك الجلسة، ويأتي أعضاء هم غير زملائه الذين عرفهم وعاش معهم، ورأى قناعتهم التي كان منبعها الإخلاص والوفاء للوطن.

لكل ذلك قال في الجلسة التي أشرنا إليها ما يلي: «أنا أعتقد بأن المكافأة التي يأخذها النواب هي مكافأة رمزية، والشرف أثمن من (٣٠٠ دينار). وأشرفُ لنا أن يظل (المبلغ كما هو في حدود) مائتي دينار».

هكذا كان يرى، ونلاحظ أنه قد وصل به الرأي إلى الاعتقاد بأن التكالب على زيادة قيمة المكافأة أمر مخالف للشرف، لأن تمثيل الأمة في مجلسها المرتقب خدمة ينبغي ألا يتقاضى عليها العضو مقابلًا ماليًّا، وإن كان لابد من ذلك فليكن المبلغ رمزيًّا.

ثم أشرق الدستور بعد أن رعاه رجال كرام حريصون على المصلحة العامة، وعلى أن يكون دستور الكويت مثالياً كما قال حمود الزيد الخالد. ولا ننسى هنا أن نتذكر الكلمة التي ألقاها المرحوم الشيخ عبدالله السالم الصباح في المجلس التأسيسي حين قال: «أنصحكم كوالد لأولاده أن تحافظوا على وحدة الصف وجمع الكلمة».

ولقد استجاب أولئك الرجال لحديث والدهم الشيخ عبدالله السالم الصباح فلم نسمع عنهم إلا كل خير، ولم نجد بينهم هذه الاختلافات التي نراها بين أعضاء مجلس الأمة خلال هذه الأيام من مناكفات ومنازعات، حتى صارت خدمة الشعب الكويتي هي آخر ما يفكرون به، وهذا الذي أقوله أمر مكروه يبغضه الناس جميعا، والمؤلم أنه - أيضًا - أمر معروف نقرؤه في الصحف بعد كل جلسة للمجلس.

وكان المرحوم حمود الزيد الخالد من أولئك الرجال الأوائل الذين ينبغي الاقتداء بهم في كافة الأعمال التي قام بها فقد امتاز بالدراية، واحترام الواجب، والحرص على حسن الصلة بالناس أجمعين.

كتب عنه حفيده فهد أحمد الفوزان فقال: «كان رحمه الله رجلًا ذا خلق كريم ومصدر ثقة، ومن أهل الحكمة والرأي السديد ويعتد برأيه في كثير من الأمور، كما كان يتميز بالنزاهة والحنكة والصراحة وعاش رحمه الله حياة حافلة رحل بعدها تاركا أعطر سيرة وأفضل قدوة للعمل البناء لهذا الوطن المعطاء».

وهذه كلمة حق في الرجل من أقرب الناس إليه، والواقع أن الأعباء التي اضطلع بها، والمهمات التي قام بها، والسلوك الكريم الذي تحلّى به طيلة حياته كلها تحتوي على التصديق الكامل الواضح لما كتبه الحفيد العزيز.

وفي نهاية المطاف نرى أنه من المستحسن أن نشير إلى ثلاث نقاط مهمة لا نريد أن ننتهي من مقالنا هذا قبل أن نذكرها هنا، وهي:

١ - مما جاء في مقالنا المنشور في عدد «الوطن» الصادر في اليوم الحادي عشر من شهر يناير لسنة ٢٠١٢م ضمن «الأزمنة والأمكنة» وكان عن المرحوم أحمد سعود الخالد أننا تطرقنا إلى ذكر ابن عمه حمود الزيد الخالد، وقلنا إن الرجلين قد قاما بالبدء بعمل تجاري مشترك استمر إلى فترة طويلة واشترك فيه عندما انتقل إلى الكويت بعض أولادهما وقد كان عملًا موفقًا فتح للرجلين طريق المستقبل التجاري الزاهر.

٢ - تحدث المؤرخ عبدالعزيز الرشيد في كتابه «تاريخ الكويت» (القسم الأول ج١ ص٢١٧) عن خالد الزيد الخالد، وهو شقيق حمود الزيد الخالد، وكان رجلًا بارزًا في أعمال كثيرة في البلاد، وقد نوهنا عنه في مقال سابق. وضمن حديث المؤرخ جاء ذكر والد هذين الرجلين حين قال عن خالد الزيد: «له أفكار صائبة، وآراء ناضجة، وتدقيق في كثير من المسائل العلمية والأدبية، مما يدع السامع يقف موقف المعجب بفطنته، وبرقة إحساسه وشعوره، ولا غرو في ذلك فقد اكتسب ذلك كله من أبيه المرحوم:

بأبه اقتدى عديٌّ في الكرم
ومن يشابه أبه فما ظَلَمْ

وما ذكره المؤرخ عن خالد ينطبق تمامًا على حمود فوالدهما واحد هو الموصوف بأكمل الصفات، وأنبلها. ومنه اكتسب صاحبنا تلك الروح الوثابة الكريمة تمامًا كما اكتسبها خالد الزيد الخالد.

٣ - احتفلت وزارة التربية في سنة ١٩٦٢م بمرور خمسين سنة على بدء الدراسة في المدرسة المباركية، وهي المدرسة التي افتُتِحَ بها التعليم النظامي في الكويت. وقد أصدرت بهذه المناسبة كتيبًا فيه كثير من المعلومات عن المدرسة ومدرسيها وطلابها. وكان في آخر الكتيب فصل بعنوان «الجيل الأول من طلاب المباركية» وفيه العبارات التالية: «ولنستكمل الصورة في الحديث عن المباركية، نسجل أسماء الطلاب الذين سارعوا إلى الالتحاق بالمباركية باعتبارهم من الجيل الأول الذي تلقَّى العلم بها».

وضمن الكشف الذي ورد في الكتيب وضَمَّ أسماء الطلاب من الجيل الأول جاء اسم: حمود الزيد الخالد. باعتباره من المبادرين إلى الدراسة في هذه المدرسة، وقد كان في الكشف عدد من أبناء الكويت من زملائه.

ومن أجل القيمة التاريخية لهذا الكتيب ولأنه غير متوافر في أيدي الناس فقد قامت وزارة التربية بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الكويتية بإعادة طبعه في نهاية سنة ٢٠١١م وذلك بمناسبة مرور قرن على بدء التعليم النظامي في الكويت.

٤ - كان أبو سليمان متمسكاً بمبادئه، متوائماً مع أفكاره ومع نفسه، وإذا كنا قد أشرنا إلى ما قاله عن المكافآت في مجلس الأمة حين أثير هذا الموضوع في المجلس التأسيسي وأبدى رأياً في ذلك الشأن فإنا نجده لا يخرج عما جاء في أطروحاته فقد كان وهو وزير للعدل لا يتقاضى راتبًا، وكان يعيد ما يرسل إليه على هذا السبيل قائلاً: عندي ما يكفيني والحمدلله.

ولم يكن - كذلك - يستغل سيارة حكومية بصفته تلك مكتفيًا بسيارته الخاصة، وهكذا يتبين لنا أن هذا الرجل كما يقولون: قول وفعل.

رحم الله أبا سليمان وأسكنه فسيح جناته.

****

من شعراء الكويت: عبدالله بن محمد بن غَصَّاب[1]

نتحدث هنا عن شاعر من شعراء الكويت المجيدين في الشعر النبطي. له قصائد كثيرة وإن كنا لم نتمكن من الحصول عليها كلها، وله مراسلات شعرية مع عدد من أصحابه الشعراء الذين عاشوا في الفترة التي عاش فيها، وله محاورات شعرية كثيرة، أما أغراض شعره فهي متعددة كما سوف يتبين لنا فيما يأتي.

هذا الشاعر من سكان منطقة الشعيبة الواقعة في جنوبي العاصمة، وقد كانت عامرة بالسكان إلى أن تغير وضعها في الوقت الحالي وانتقل سكانها إلى أماكن أخرى.

تحدثنا عن هذه القرية، وما كانت عليه وجرى لها في مقال من مقالات الأزمنة والأمكنة عنوانه: «الشعاب والشعيبة في الكويت»، وذلك في اليوم الثاني والعشرين من شهر يوليو لسنة ٢٠٠٩، ولا داعي لتكرار ما قلناه هناك عنها فما ورد في المقال كافٍ.

جاء الحديث هناك في تفصيل واسع عن قرية الشعيبة، وإن كانت تستحق المزيد، ولذا فقد قلت في ختامه:

«وبعد، فهذا كله حديث عن قرية الشعيبة التي زالت من الوجود، إذ لم يكد يتقرر نقل سكانها حتى أزيلت كافة مبانيها، ولم ينسوا أن يهدموا المسجد والمدرسة

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠١٢/٤/٢٥.

إن لم يكن هذان المرفقان أول ما تم هدمه هناك. ولقد حرصت على تقديم البيانات الممكنة حتى لا ننسى قرية عاش على ثراها عدد من أبناء الوطن، لهم فيها أعمال، ولهم فيها ذكريات.

وكل ما أتمناه أن يقوم أحد النشيطين بتأليف كتاب عنها يتضمن وصفها وبيان ما فيها من مبانٍ، ويتحدث عن رجالها وأعمالهم التي كانوا يزاولونها، وعن كافة الأنشطة القائمة فيها.

إن تسجيل كل ذلك أمر مهم، فيه حفظ تاريخ جزء عزيز من بلادنا، وإن لم نبادر إلى هذا العمل حالاً فسوف يتم نسيان كل شيء عن قرية الشعيبة.

ولقد أسعدني أنني تلقَّيتُ بعد يومين من نشر المقال المشار إليه هاتفاً من الأخ الكريم الفلكي عادل السعدون أفادني باتصاله أنه أوشك على إنهاء تأليف كتاب شامل عن الشعيبة يتحقق به أملي الذي ذكرته. ولقد شكرت للأخ عادل اتصاله واهتمامه بالموضوع، وتمنيت عليه سرعة إصدار الكتاب لأهمية موضوعه، ولأن مؤلفه عودنا على الإتقان في كل ما أصدره من كتب.

وفي أواخر السنة الفائتة ٢٠١١م صدر الكتاب تحت عنوان: «الشعيبة، قرية رحلت، وذكراها بقيت»، وهو من الحجم الكبير، يزيد قليلاً عن خمسين ومائتي صفحة، مليء بالذكريات والصور، حشد له المؤلف كل جهده حتى جاء كتاباً كاملاً يشكر على إنجازه، ويذكر ضمن الأعمال الجيدة التي صدرت حول الكويت.

يعجب المرء لوفاء المؤلف لقريته التي عاش فيها، وهو وفاء يدل عليه ما قام به في كتابه هذا من عمل كبير فهو لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وتحدث عنها ابتداء من مدرسته التي درس فيها وهو صغير وانتهاء بتتبع بقايا المباني وتصويرها للذكرى والتاريخ، وبين ذلك فإنه لم يهمل ذكر ناظر المدرسة ولا

المدرسين ولا الأهالي وأعمالهم المختلفة، ولا شعراء القرية، ولا الأنشطة المختلفة التي كانت تقام هناك. ولعل كمية الصور وتنوعها من الأمور التي تشد الانتباه، وتدل على الجهد الكبير الذي بذله الأستاذ عادل حسن السعدون حتى توصل إلى إنجاز هذا العمل القيم بجميع المقاييس.

هذا وإذا أردنا ان نتتبع كل ما كتبه عن الشعبية فإننا سوف نرى الأمر يطول، لأنه خاض بنا في غمار تاريخ قديم ثم عرج على نهاية القرية حين نُقل أهلها منها، وهدمت معالمها بكافة، وأصبحت أرضها ضمن منطقة الشعيبة الصناعية. وكم كنا نتمنى إبقاء بعض تلك الآثار للدلالة على أن هذه الأرض كانت قرية عامرة بأهلها، ثم أزيلت ولم تبق منها إلا هذه المعالم. ولكن ذلك لم يتحقق لأن المسؤولين في ذلك الوقت لم يكونوا يهتمون بمثل هذه الأمور وقد حصل هذا الهدر في المباني التراثية في العاصمة نفسها حتى صرنا اليوم نتحسر على ما فات، ونتمنى أن لو ترك لنا من تلك الآثار ما يدل على تاريخ الكويت سياسيًّا واجتماعيًّا.

كتاب الأستاذ عادل السعدون يغريك بقراءته، فهو منوع الموضوعات، مليء بالصور الموضحة لهذه الموضوعات وهو كاتب يحرص على سرد التاريخ ووصف الأماكن، كما يهتم بحكاية الذكريات، وهو حريص – أيضًا – على أن يتتبع المراجع التي كتبت عن الكويت عامة بما فيها قرية الشعيبة فلم ينس كتاب «دليل الخليج» الذي ألفه لوريمر، المطبوع في سنة ١٩٠٧م، ولا كتاب محمد بن خليفة النبهاني المسمى: «التحفة النبهانية في تاريخ الجزيرة العربية»، ولا الكتب التي ألفها بعض الكويتيين وأولها كتاب عبدالعزيز الرشيد «تاريخ الكويت».

وإضافة إلى كل ذلك فقد ذكر عددًا كبيرًا من أسماء الأهالي وبين مهنهم، ووضع صورهم اعتزازًا بهم، ولعل مما يلفت النظر أن عباراته تدل على علاقاته معهم، وحبه لهم، وتعلقه بالشعيبة التي كانت تحتويه مع هذه المجموعة الطيبة من

الناس الذين لم ينسوا على مر السنين – مسقط رؤوسهم ولا مراتع صباهم فصاروا يقومون بإعداد تجمعات بين الفنية والأخرى حيث يعيدون في هذه التجمعات وصل ما انقطع من علاقاتهم، ويتذكرون ما مر بهم من أحداث، ويتعرفون مسيرة الحياة التي عبرت بهم بعد الهجرة القسرية من تلك القرية.

لا أمل الحديث عن هذا الكتاب وأرجو أن تتاح قراءته لأبناء الكويت جميعًا حتى يعرفوا طبيعة الحياة في بلادهم على امتدادها شمالاً وجنوبًا إذ في هذه البقعة كان يصطاف ويقضي الربيع حاكم الكويت الأسبق الشيخ جابر المبارك الصباح وعدد من أفراد أسرته نذكر منهم الشيخ صباح الناصر المبارك الصباح وولده الشيخ ناصر، وغيرهم، وكانت الزراعة في الشعيبة ترسل إنتاجها إلى الكويت حيث تباع ويستفيد من مردود بيعها الأهالي الذين كانوا يعملون في هذا المجال إضافة إلى مجال الغوص الذي أعدوا له عدته من سفن ورجال وهم يشاركون إخوانهم وأبناء وطنهم الكويت في هذه المهنة ويتقيدون بنظمها المعروفة.

وكنت قد ذكرت الشعيبة في كتابي: «العدان بين شاطئ الكويت وصحرائها» فقلت إنها سميت بهذا الاسم نسبة إلى شعب كبير تقع عند مفيضه في البحر، ومازال ذلك الشعب أو الوادي واضحاً للعيان يشاهده كل من يمر بطريق السفر المتجه إلى النويصيب حينما يوازي منطقة الشعيبة، وقد بيّنت من ذكَرَهَا قديماً، وأثبت ورودها في الخرائط التاريخية القديمة. وممن ذكرتهم هناك كارل ريتر في خريطته التي وضعها في كتابه «علم الأرض» وقد نشر هذا الكتاب في ألمانيا سنة ١٨١٨م.

في هذه البيئة الطيبة نشأ وعاش شاعرنا عبدالله بن محمد بن غصَّاب، ولم تكن شهرته بصفته شاعراً مُجيداً في قرية الشعيبة فقط بل تعدتها إلى العاصمة، وقد ذكر أنه كان يجلس مع عدد من الشعراء في منطقة المرقاب، وقد اعتاد هؤلاء

عقد حلقات في مساء كل يوم يقضون الوقت خلالها بالسمر البريء ويتناشدون الأشعار ويزاولون بعض رقصات الفرينسي والمجيلسي، وكانت جلساتهم هذه في ما بين سنتي ١٩٣٥ و١٩٥٥. ولقد نال عبدالله بن غصّاب شهرة واسعة بين هؤلاء السامرين لأن شعره يشهد له بالتميز، وتنوع شعره يلفت إليه أنظار الشعراء وجميع محبي الشعر.

ولم يستطع هذا الشاعر أن يستمر مع زملائه هؤلاء إلى سنة ١٩٥٥، فقد توفي في مطلع خمسينيات القرن الماضي.

ولقد كتب عنه الأستاذ أحمد عبدالله العلي، في كتابه «قاموس تراجم الشخصيات الكويتية في قرنين» فقال ما يلي:

«عرف بابن غصاب، وكان يبدأ قصائده بهذا الاسم، (وهذا ما سوف نراه فيما بعد).

وهو من أرق شعراء الغزل في وقته، حتى كانت قصائده أكثر انتشاراً وذيوعاً بين الناس، فغناها الصغار والكبار منذ ذلك الوقت حتى الآن، وأصبحت جزءاً لا يتجزأ من تراث الكويت.

وكان شاعر (قلطة) متمكناً ينظم الشعر مرتجلاً، ويقابل كبار شعراء القلطة في الكويت».

ونحن نذكر منهم الشاعر صقر النصافي الذي تحدثنا عنه وعن شعره كثيراً في «الأزمنة والأمكنة».

وكما رأينا - فيما سبق - أن سكان قرية الشعيبة كانوا يؤلفون مجتمعاً مترابطاً متآلفاً، تَفي مرافقها باحتياجاتهم الضئيلة يجد فيها الواحد منهم

المستوصف والمدرسة والمسجد وكانوا يلتقون مع بعضهم ويتعاونون فيما بينهم، ويسعى كثير منهم إلى جلسات السمر في أوقات الفراغ القليلة التي يحصلون عليها بعد عناء العمل، ويتبادل الشعراء فيما بينهم فنون الشعر، وترتفع عندهم أغاني البحر وإيقاعات السامري، ويستقبلون في هذه اللقاءات أعداداً من الزوار ممن جاورهم من القرى أو من العاصمة ذاتها، فبرز منهم عدد من الشعراء كان منهم الشاعر عبدالله بن محمد بن غصّاب وهو شاعر من الشعراء المجيدين، له عدد كبير من القصائد ضاع أكثرها - للأسف الشديد - كما ذكرنا.

سكن هذا الشاعر قرية الشعيبة، وعمل في البحر، والزراعة، وتوفي في بداية الخمسينيات من القرن العشرين، وعُرفت له قصائد غنى بها المغنون، وله مطارحات ومراسلات شعرية مع عدد من شعراء الكويت منهم الشاعر فهد عبدالمحسن الخشرم، والشاعر زيد الحرب. وقيل إن بعض قصائده نسبت إلى غيره ومنها تلك القصيدة التي عرفت بأنها من قصائد الشاعر فهد بورسلي ونشرت في ديوانه وهي:

البارحة ساهرٍ والدَّمعِ يجري
والقلبِ حزنٍ على فرقا حبيبه
يا من يردَّ الحبيب وياخذ اجري
قفْي بلا سِبَّةٍ ربيٍّ حَسيبه
ما قدَّر الله على المخلوق يَجري
والعبد بالزُّور ما يخذ نصيبه

وهي قصيدة جميلة غناها عدد من المغنين، وترددت على الألسنة كثيرًا، ولا نستطيع هنا أن نجزم في نسبتها إلى أي من الشاعرين، غير أن الأسلوب الذي

تعودناه من فهد بورسلي واضح فيها. وعلى كل فإن هناك تضاربًا كبيرًا في نسبة القصائد النبطية إلى أصحابها كما بدا لنا فيما سبق، وكما سوف يبدو فيما بعد.

ألم نقرأ معا قصيدة نقيان العميري:

اه يـــا مـــرعــوب   مــن تــفــاريــج الــولايــف

إن هذه القصيدة ذاتها منشورة في ديوان فهد بورسلي في ص٢٤٢ على أنها من قصائده.

تنوعت الموضوعات التي تناولها عبدالله الغصّاب في شعره، وتحاور - كما قلنا - مع شعراء عصره، وأنشد الكثير من الشعر الغنائي الذي ذاع في كل مكان. وهو يسير في قصائده على طريقة غيره من شعراء ذلك العصر، حين يبدأ قصيدةُ بالدعاء مستعينًا بالله سبحانه وتعالى على صياغة المعاني التي يأمل في تقديمها من خلال القصيدة، ومن ذلك قوله:

بـديـت بـذكـر الـلـه ذا الخـيـر الـعـلي

محـصـي الـنـجـوم ومـحـصـي الجـراد

عـلاّم مـا بـالـغـيـب بـيّـن ومـا خـفي

يـا سِـعْـد مـن جـالـه ذرا وسـنـاد

الـبـادي الـلـه قـبـل قـول الـسـاني

مــن قَـــدَّم الخـــلاق حـظـه جـاد

جـعـلـه يـــعـــاونّـــي ويـــروف

بحـالي يلطف بجفنٍ مـا هَـتـنـا برقاد

ثم بعد هذا يبدأ في موضوع القصيدة قائلًا:

اخــلاف ذا دنــيــت لـــي حــرايــر

عــامــين مــاجــا فــوقــهــن شــداد

ومنه يستمر فيما هو بسبيله مستطردًا في وصفه للراكب، وللطريق، مبديًا الفخر بقومه، وتقديم النصح وعرض الحكم البليغة:

عيب عـلـى مـن بـان بـالـضـيـق يختفي

لـي جـا الـرخـا يـقـول انـا قـصـاد

وعـيـب عـلـى مـن ذل هــاش بْـصـاحْـبـه

نِـجـــزاه مـــن عـقـب الـبـيـاض سـواد

ومن مطارحاته مع الشعراء هذه الأبيات الجميلة التي أرسلها إلى الشاعر فهد العبدالمحسن الخشرم، وفيها يتحدث عن شعره وإجادته له وأنه يطرب السامعين، ويتحدث عن نفسه قائلًا إنه إنسان بسيط غير متكلف، ومع ذلك فإن الزمان لم يتركه على هدوئه وراحة باله وبساطته، فها هو يحس بقدوم البلاء الذي يدل عليه رفيف عينيه، وهو الأمر الذي أزعجه وجعله يتوقع الأذى القادم، لأنه كلما توقف هذا الرفيف عاد كما كان، حتى أصبح لا يعرف طريقه فمضى مسلِّمًا للطف الله، بعد أن أصبح كالمعلم الذي يهدي السفينة في عباب البحر، وقد ضيع مجراه، وأصبحت السفينة تسير على غير هدى، وفي هذا البيت الذي تحدث فيه عن المعلم والسفينة ومسيرها على غير هدى علامة من علامات علاقته بالبحر، وركوبه له:

قـال بـن غـصـاب نـزال الـطُـرَفْ

جِـيـل نَـظْـم كـنـه الـلـولـو نظيف

نـادر الـشِّـعـار لـو سـمْـعَـهْ وقـفْ

يـطـرب الـلاعـوب لـو نظمه خفيفْ

مـاشي بـالـهـون مـا هـو بـالـكـلفْ

حيث راعـي الـعرف ما يبغي اتْعريفْ

خـــذتِ لـــي يـــومـــين واعــيــونــي

تِـرفْ اشغلتني وابلشتني بالرفيف

كل ما قلنا رفيف العين كف
رفرفت عيني وصار امري عنيف
المعلِّم تاه والمجرى اختلف
دابريـنِ تحت لطفك يا لطيف
يا فهد يا مِسندي طاح الشرف
راحت الشيمات يا زبن الضعيف

ومما لابد من ذكره هنا أنني لم أجد في ديوان صقر النصافي أي ذكر لعبدالله بن غصاب، ولعل عدم ذكره بسبب ضياع الشعر المتبادل بينهما من الطرفين.

وقد وجدت قصيدة ابن غصاب التي وجهها إلى شاعر الكويت النبطي الكبير زيد الحرب، وهو يشكو فيها حالة مرت به ويطلب من زميله أن يفكر له في علاج لهذه الحالة أو المشكلة يقول في مطلعها:

عيني جزت عن نومها وش مجزيها
ما هي ابعادّه ميرياوش لجا فيها
ما هي ابرمدا والرمد يسهر الملا
رمدها إليا من هملجوا كثر طاريها
يا ونتى مَخدٍ دري يوم اونَّها
وَنَّتْ عجوز شايبات نواصيها

ثم يأخُذُ في رواية قصة هذه العجوز، وما حدث لها من أذى، إلى أن يقول عن زيد الحرب:

ولا اخبرت في شكواي الا صميدع
اكود زيد الحرب عيني يشاكيها
ويا زيد يا مشكاي يا منقع الندى
يا عيد هجن ناحلات سماريها

ويتضح في نهاية القصيدة أن ابن غصاب يُسقط كل ما فيها على حاله وما جرى له، لأنه في آخر بيت منها يقول:

يا وين أروح أو وين ابَجْلي من الوطن
كفالةِ ما يقبل العذر راعيها

وكان لابد وأن يرد عليه زيد الحرب لأن هذه عادته مع زملائه من الشعراء. ولكن قصيدة الرد المنتظر غير موجودة في كتاب «التحفة الرشيدية» وهو مجموعة كبيرة من الشعر النبطي جمعها مسعود بن سند الرشيدي وذكر فيها أن زيد الحرب رد بقصيدة مختلفة وزنًا وقافية عن قصيدة ابن غصاب وأنا أرى أن قصيدة زيد الحرب هذه هي قصيدة أرسلها مباشرة وليست ردًّا لأنها لا تدل على ذلك، ولأن الشاعر زيد الحرب يعرف فن المراسلات الشعرية ويدري جيدًا أنه لابد وأن يتقيد بشكل القصيدة الواردة إليه.

يقول زيد الحرب في مطلع قصيدته:

البارحه غَيَّا الكرى لا يجيني
كلٍّ رِقَدْ وانا عيوني سهيره
انا سهير والعرب هاجعني
والقلب الاقشر يصطفق في ضميره

ثم يتحدث عن مسائل سبق له الحديث عنها في عدد من قصائده ومن هذه المسائل المشكلات التي نتجت عن تدهور سوق اللؤلؤ ثم اندثار مهنة الغوص. ومنها حديثه عن التجار، وعن الربا الذي خضع لضغطه عدد كبير من الناس آنذاك. وفي آخر قصيدته:

واخلاف ذا دنيت حر سميني
حرٍّ ولد حرٍّ هميم مسيره

يلقى اغلام منوت الهاشليني
عبدالله الغصاب عينا قصيره
سلم عليه اعداد نجْم يبيني
وثني التحية عَدْ رمل الجزيره
وقل له يرد القاف عجل يجيني
حتى ينام اللي اعيونه سهيره

زيد الحرب يدعو شاباً فتيّاً نشيطاً ويكلفه بحمل رسالته الشعرية هذه إلى صاحبه عبدالله بن محمد بن غصّاب الموصوف بأجمل الصفات وأرقّها. وهو يعرض في البداية ما يحس به من ضيق أسهره طوال الليل، ثم يقول للفتى: عندما تصل إلى صاحبي أبلغه عني سلامًا كثيرًا عدد النجوم، وعدد رمال جزيرة العرب. ثم يأتي البيت الأخير الذي يدل دلالة واضحة على أن هذه القصيدة لم تكن ردًّا على ابن غصّاب بل هي قصيدة ابتدأها زيد الحرب. لأنه يقول هنا قل له يرد عليَّ عاجلاً حتى أنام بعد سهر طويل. ولو كانت القصيدة ردًّا لما طلب زيد الحرب من ابن غصاب ردًّا.

هذا ونحن نفتقد قصيدتين أولاهما رد زيد الحرب على ابن غصاب إذ لم أجد في ديوانه ذكرًا لها. وثانيتهما رد ابن غصاب على قصيدة زيد الحرب التي تحدثنا عنها هنا وقد وردت في ديوان هذا الشاعر. أرجو أن تكشف لنا الأيام القادمة عن ذلك.

أما في الغزل فله (أعني ابن غصّاب) قصائد كثيرة، فلم يمنعه ضيق الحال، والشقاء المعيشي الذي عاناه وظهر في بعض قصائده عن أن يبدع في المجال الغزلي الذي لم يكد يخرج عنه شاعر:

ياخوك تلعات المها صَوبَنّي
ليت الهوى خيره تْشره يالادي

لي قلت أجوزا مْن الهوى وازجهني
جاني على غفله بلايه اجتهادي

لقد أصابته سهام الحب المسددة إليه من الجميلات المشبهات للمها طويلات الأعناق، حتى صار يتمنى أن يكتفي بما كان فيه من انطواء، وأن يقابل الهوى خيره بشره، فلا تتعرض نفسه لما تتعرض إليه الآن بعد أن أدركته الإصابة البليغة، ولكن لا فائدة من ذلك فهو كلما قال لنفسه، سوف أمتنع عن الخضوع للحب وأصد بنفسي عنه فيهدأ بالي وأرتاح، جاءه هذا الهوى على حين غفلة، فأوقعه في شراك لا مخرج له منها.

ولا بأس في أن نستمر مع هذا الشاعر لنستعرض قصيدة أخرى له هي السامرية التي غنتها الفنانة عايشة المرطة، يقول ابن غصاب:

ش الراي يا اهل الهوى ش الراي
الشوق عزّم على غربالي
إن ما مشى صاحبي بِرِضاي
تصيبني خِفّة واهبال
يا كاشفين على معناي
ردوا على الحبيب الغالي
العب واغني على مبداي
جعل الطّربْ والسَّعَدْ يبري لي
لِعيون مِنْ شَدته يمناي
حلفت ما طاوع العذال

يشكو الشاعر ما أصابه، ويتساءل متجهًا بتساؤله إلى أهل الهوى الذين لابد وأنهم يدركون معاناته: ما هو الرأي الذي تشيرون به عليَّ فإن الشوق الذي هو المحبوب قد أكد العزم على غربالي أي على إلحاق الأذى بي عن طريق هجره

وصده. وإن الشاعر ليحس أنه مصاب بالخفة والجنون من جراء ذلك. ويدعوهم مرة أخرى قائلًا: أيها المطلعون على حالتي أعينوني بإعادة الحبيب الغالي، حتى إذا ما عاد لعبتُ وغنيتُ كما بدا لي، راجيًا أن يحلو لي الطرب، وأن تتم لي السعادة والحظ الطيب. وإنني بعد ذلك من أجل عَيني من شدَّته يمناي أحلفْ أنني سوف لا أطاوع العذال مطلقًا حتى لا يتكرر الهجران والصد كما عانيت من ذلك سابقًا.

وكما ذكرنا فإن قصائد الشاعر عبدالله الغصّاب، قد أخذت سبيلها إلى أفواه المغنين، وإلى أسماع المستمعين، وأحبها الناس ورددوها معجبين بها، ومن تلك الأغنيات:

هـاض بـن غـصّـاب بـرق لـه رعـود
نـازي نَـوُه وغـادي لـه ضـبـاب
جِعِلْ يسقي لـه مداهيـل العنود
جـادلٍ فـي ضـامـري علُـق صـواب
جاهـلٍ تـوه عـلـى الـغـي امـهْـدُود
وان نـطـحـنـي داخـل المـعـلـوق ذابْ

إلى أن يقول:

الخبـر فـي صاحبي طـاف الحـدودْ
سـنّـدوا بـه فـوق عـيـرات صـعـاب
جـعـلْ عِـدَّ يـارده بـعـد الـعـدود
لـلـحـيـا يـا بـومـبـارك والـسـحـاب

يقول في بدايتها أهاج ابن غصاب برق له رعود، مرتفع مطره، قد أصبح له ضباب، ثم يدعو فيقول: عسى أن يَسقي هذا المطر الأماكن التي اعتادت العنود ارتيادها، وهي ذات الشعر الجميل الذي أصابني النظر إليه في الصميم، إنها صغيرة السن لم تخرج إلى الحياة وما فيها من حرية وانطلاق إلا حديثًا، وهي التي إذا قابلتني ذاب قلبي وجدًا بها.

ويقول فيما بعد، إن الخبر الذي جاءني عن صاحبي ويقصد تلك الفتاة التي وصفها أنه خرج من البلاد وعبر حدودها إلى بلاد أخرى راكبًا الجمال الصعبة القوية مبتعدًا بها عن الأماكن التي كنت ألقاه بها، ثم يعود للدعاء قائلًا: عسى أن يكون مورد الماء الذي يَرِدُهُ هدفًا للسحب والأمطار الغزيرة، من بين كل الموارد التي هي على الأرض إكرامًا له بسبب ورود الحبيب إليه.

وفي بداية هذه الأبيات ما يؤكد حديثنا السابق الذي نص على أن هذا الشاعر كثيرًا ما يذكر اسمه في شعره، وها هو هنا يقول:

«هـاض بـن غـصّـاب بـرق لـه رعـود».

والى هنا ينتهي حديثنا عن الشاعر عبدالله بن محمد بن غصاب، وليس هذا كل ما يمكن أن يقال عنه ولكن المجال لا يتسع لأكثر مما قدمناه.

****

الحناء.. صبغة الطبيعة للمرأة [1]

الحناء نوع جيد من أشهر أنواع الأصباغ الطبيعية التجميلية التي تستعملها المرأة عندنا وعند غيرنا، فهو صالح لصبغة الشعر حيث يعطيه اللون الأحمر أو الأشقر بحسب مدة وضعه على الرأس وبين الشعر بعد عجنه جيدًا. وهو صالح لصباغ الأكُفّ والأرجل وله في ذلك فوائد كثيرة. والحناء أصلًا وَرَق شجرة تسمَّى بهذا الاسم، يؤخذ هذا الورق فيجفف تجفيفًا جيدًا ثم يجرى طحنه حتى يكون ناعمًا. وهو في هذا الوقت يطحن بالماكينات، ولكنه في الزمن القديم هنا في الكويت كان يطحن يدويًّا بواسطة الرحا الحجرية التي تقوم ربة البيت باستعمالها لهذا الغرض في وقت الحاجة إلى الحناء، وبخاصة قبل مناسبات الأعياد المختلفة.

وكما هي عادتنا حين نتحدث عن بعض الأعشاب فإننا نلجأ إلى البحث في الكتب التي تتناول الحديث عنها، وقد حدث لنا أكثر من مرة أن رجعنا إلى كتاب داود بن عمر الأنطاكي المسمى: «تذكرة أولي الألباب، والجامع للعجب العجاب» وكان آخر ما رجعنا إليه فيه موضوع السدرة وقد أفادنا - يومذاك - بمعلومات كثيرة عنها قدمناها ضمن مقالنا عن هذه الشجرة الطيبة. وهنا ونحن نتحدث عن شجرة «الحناء» فإننا نعود إليه مرة أخرى. فقد كتب عنها بمزيد من التفصيل فقال إنها نبت يزرع، ولا يعظم إلا بالماء الغزير، وهنا يرتفع حتى يحاذي الشجر العالي الكبير، وقال إن ورقة الحناء كورق شجرة الزيتون لكنها أعرض قليلًا، وله زهر أبيض يُسمَّى الفاغية. تخضب به الأيدي وليس في الخضابات أكثر سريانًا منه،

(1) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢/٥/٢٠١٢.

وله فوائد كثيرة لا يسهل علينا هنا ذكرها كلها ولكنها واردة في الكتاب المذكور عند الصفحة ١٣٤ من الجزء الأول.

وللحناء ذكر قديم، فهو معروف على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم. ووردت فيه أحاديث كثيرة تدل على ذلك. جاء ذكره في كتاب: «المنهج السَّوي، والمنهل الروي، في الطب النبوي» وهو من تأليف جلال الدين السيوطي، فقد تناول فيه ما ورد من الأحاديث الشريفة المتعلقة بأساليب العلاج النافعة في أيام الرسول الكريم، وكان أصحابه الكرام يتلقون منه هذه الأساليب ويَتَتَبَّعون ما يقوله لهم في هذا الخصوص.

ومن الأمور التي نود الإشارة إليها هنا أن الأدوية النبوية المذكورة في هذا الكتاب لا تخرج عن الأغذية والأعشاب وكان للحناء نصيب كبير من تلك الوصفات التي وردت إلينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك:

١ - «اختضبوا بالحناء فإنه يزيد في شبابكم...».

٢ - «اختضبوا بالحناء فإنه يُطيِّب الريح، ويُسكن الدوخة».

٣ - «عليكم بسيِّد الخضاب؛ الحناء؛ يطيِّب البشرة».

ولقد انطلق السيوطي في كتابه المذكور، متحدثا عن الحنَّاء وفوائده، وما ورد عنه من آثار، وكان من أهم ما ذكره تلك البيانات الكثيرة المتشعبة التي نقلها عن كتاب ابن القيم: «الطب النبوي» وقد جاءت في صفحة كاملة من الكتاب يستطيع القارئ الرجوع إليها في ص٢٨٥.

لا يزال الحديث مستمرًا عن الحناء، ففي أيامنا هذه نجد الكثير مما قيل عنه، وإذا تتبع القارئ ما كتبه المؤلفون المحدثون عن الأعشاب الطبية، وعن الأعشاب بصفة عامة فسوف يجد الكثير من ذلك.

وقد اهتم كثيرون من الكتّاب الذين يـزودون الانترنت بما يكتبونه بتزويد المواقع التي خصصوها للحديث عن هذه الشجرة المنتجة للحناء، ولهم كتابات كثيرة عنها في أكثر من موقع، ولم يكتفوا ببيان حال الشجرة ومواضع استنباتها، فتحدثوا عن فوائد الحناء، وطرق استعمالاته، ومن ذلك قولهم:

- أصل الحناء نبات يستخرج من ورق شجرة الحناء، إذ تجمع الأوراق ثم تجفف، وتطحن جيدًا بعد التجفيف وبعد أن يُعجن مقدار من الورق المطحون يتكون الحناء الذي تستعمله أغلب النساء الشرقيات (الدول العربية، والهند وباكستان وإيران وأفغانستان على سبيل المثال)، والقصد من استعماله هو الحصول على صبغة للشعر، واستحداث نقوش جميلة على أيدي النساء.

- نجد في بعض المجتمعات اهتمامًا بالحناء عند البدء بحفلات الزفاف، وفي يوم سابق عليه (يسمى يوم الحناء) يتم وضع هذه الصبغة على يدي العروس وصديقاتها، وذلك وفق نقوش جميلة.

- تدخل الحناء في صناعة بعض منظفات الشعر (الشامبوهات).

- وليس هذا - فحسب - بل إن الأمر كما بينا سابقًا يتعدى استخدامات التجميل إلى استخدامات العلاج، وقد ذكر في أحد المواقع أنه مفيد لعلاج الأمراض الجلدية، ويعالج بعض الأمراض الباطنية، وهو مفيد - أيضًا - لعلاج إصابات الأقدام.

- يقول أحد المواقع: يستعمل الحناء لعلاج الحروق حيث يتم وضع مسحوقه على الجزء المحروق، وهذا يقلل من الألم، ومن كمية الماء المفقود من منطقة الحرق، وهذا عامل مهم في حالة الحروق الكبيرة التي يكون فقدان الماء بسببها من العوامل التي تهدد حياة المصاب. فيلتصق المسحوق بالجزء المحروق، ويُكوِّن طبقة لا تنفصل حتى يلتئم الموضع المصاب، وفي الوقت نفسه فإن ذلك يكون عاملًا مهمًّا من عوامل تقليل الالتهاب الذي يهدد حياة المصاب إذا لم يتم علاجه.

- لحقت ذلك تنبيهات كثيرة تساعد على منع الضرر عن المرأة التي تستعمل الحناء، ففيها تحذير عن خلطه مع الخل، وعن خلطه كذلك مع المواد البترولية. يضاف إلى ذلك تحذير آخر يُنبِّهُ إلى أن استعمال الأكياس البلاستيكية بوضعها في الأيدي بعد صبغهما بالحناء من أجل الحفاظ عليه حتى لا يزول أثناء النوم أمر لا ينبغي أن تقوم به المرأة لأن له مضار جانبية كثيرة، والأفضل من ذلك استعمال القماش بدلا من الأكياس البلاستيكية.

- ثم تأتي بعد ذلك الوصفات اللازمة أو الملائمة لوضع الحناء وخلطه. وهذا الأمر يحتاج إلى شرح طويل، وخبرة كافية، علمًا بأن ما يستعمل في الكويت هو الحناء غير المخلوط وذلك بشكل عام.

وللحصول على الحنَّاء الصافي من الشوائب، والكامل شكلًا وموضوعًا، فإن ذلك يبدأ من التقاط الأوراق من شجرته أو مما تساقط منها. ثم تجفيفها وطحنها وتنقيتها في هذه المرحلة النهائية وتحضيرها للاستعمال، وهي في هذه الحالة خضراء اللون ذات رائحة زكية، ولكنها تتحول إلى اللون الأحمر إذا عجنت بالماء ووضعت في الشعر أو في اليدين أو القدمين.

وقد أشار بعض الكتاب، كما وجدنا من تجارب الناس أن إضافة مادة (الوسمة) تجعل آثار الحناء في الشعر وغيره تميل إلى السواد.

والآن فإن من المهم أن نرجع - قليلًا - إلى الماضي لكي نرى ما كان للحناء من أهمية. والحق أن هذه الأهمية تعود إلى موسم مهم في حياة المجتمع وهو موسم العيدين.

كان استعمال الحناء شائعًا جدًّا في الوقت الذي نتحدث عنه، وكان له سوق كبير يبدأ عمله قبل العيدين بأيام قليلة. يقع هذا السوق في ما كان يسمى «براحة ابن بحر» وهي ساحة كانت تباع فيها الفواكه والخضار بالجملة ولكن القائمين على

بيع هذه المواد ينسحبون في الوقت المناسب لكي يخلو المكان لهؤلاء الذين ينتظرون الموسم حتي يستطيعوا بيع بضاعتهم.

تقع البراحة غربي سوق الخضرة المعروف، يطل عليها من شماليها مسجد بن بحر. وفي الأيام التي أشرنا إليها تمتلئ بأعداد كبيرة من الباعة يضعون أمامهم بضاعتهم من الحناء والوسمة التي تسمى (السومار) وتوضع في نقوش جميلة على أيدي النساء أو تخلط مع الحناء لتسويد لونه. وقد ذكر لي الأخ أبو عبدالله صاحب محل العطارة الكبير الواقع بقرب سوق بن دعيج أن الوسمة هي التي تعرف اليوم باسم: الكتم. وهو نبات يطحن كما يطحن الحناء، ولكنه يُعطي لونًا يميل إلى السواد.

وفي وقت العصر - بصفة خاصة - نجد هؤلاء الباعة وهم ينادون على بضاعتهم بأصوات عالية جدًّا، وباستمرارية لا يتوقفون خلالها حتى لالتقاط الأنفاس.

هم ينادون على الحناء وعلى الوسمة، وعلى ما يخلط مع الوسمة ليسهل عجنها وتثبيت أثرها، وهذا هو النورة والنشادر، وهم يصرخون قائلين: نورة حارة واشناذر جديد، وهذا الأخير هو النشادر المعروف بالأمونيا. وفي هذا الوقت نرى النسوة يتدافعن لشراء حاجتهن من هذه الأشياء المعدة لزينة العيد. وقد تبين لي أن الوسمة تخلط مع النشادر والنورة، ثم تعجن بالماء، وعندما تنقش الأيدي بالحناء يتم وضع هذه المادة على النقش فيتم بذلك تحويل لون الحناء المنقوش إلى لون أسود.

هذا وتلجأ بعض النسوة اللاتي يصعب عليهن الشراء إلى استعمال مادة منزلية لا تكلفهن شيئًا، وذلك لأنهن يقمن بحك الدخان المتكثف على جدران مطابخ بيوتهن ويضعنه في صحن، لكي يستعملنه استعمال الوسمة وهذه المادة المتحصلة

من الجدران السوداء هي ما كان يُسمى (الغما). وقد قام بسد حاجة بعض النساء وهن يُحضرن أنفسهن لاستقبال العيد.

ومن المعروف أن اهتمام الكويتيات قديمًا بالحناء والسومار يزيد في فترة عيد الأضحى أكثر مما هو قائم في عيد الفطر، لأن فترة الصيام السابقة على هذا العيد لا تتيح الفرصة لهن من أجل إعداد أنفسهن لهذه المناسبة، ولكن الاحتفاء بعيد الأضحى كان مهمًّا، وكن يقضين وقتاً كبيراً في الاستعداد له، وشراء ما يلزم من أمور (حنائية).

ذكر الشعراء العرب قدماؤهم ومحدثوهم الحناء، ومنهم الشاعر الجاهلي الكبير النابغة الذبياني الذي ذكر هذا النبات في قصيدة له مشهورة وهي التي يقول في مطلعها:

أَمِنَ آلِ ميَّةَ رائحٌ أو مغتدِ
عجلان ذا زاد وغيرَ مُزوَّدِ
أزِفَ الترحُّلُ غير أن ركابنا
لما تزل برحالنا وكأن قدِ

ولقد جاء في ديوانه الذي وصل إلينا برواية الأصمعي أن الشاعر قال هذه القصيدة في (المتجردة) وهي زوجة الملك النعمان ابن المنذر. وكان النابغة دخل إلى مجلس الملك فوجد عنده زوجته التي أخذتها المفاجأة فسقط غطاء وجهها عنها، ولم تجد من حيلة لستر حالها إلا أن تغطي وجهها بمعصمها، وفي هذا يقول واصفًا لها، وذاكرًا الحالة التي كانت عليها عند دخوله إلى المجلس:

قامت تراءى بين سجفي كلةٍ
كالشمس يوم طلوعها بالأسعُدِ
أو دُرَّةٍ صدفية غوَّاصُها
بَهِجٌ متى يرها يهل وَيَسْجُدِ

أو دمية من مرمرٍ مرفوعةٍ
بُنيَتْ بآجُرٍّ يُشاد وقرمدِ

نظرت إليك بحاجة لم تقضِها
نَظَرَ السقيم إلى وجوه العُوَّدِ

سقط النَّصِيفُ ولم تُرِدْ إسقاطه
فتناولته واتقتنا باليدِ

بمخضبٍ رخصٍ كأن بنانه
عَنَمٌ يكاد من اللطافة يعقدُ

(تراءى: تبدو من وراء السجف، وهو الستر المشقوق الوسط. وقد شبهها بالشمس، والأسعد هو برج الحمل أحد بروج هذا الكوكب).

والأبيات جميلة، وهي- أيضًا - سهلة على الرغم من أنها لشاعر جاهلي عودنا على الصعب من القول، لقد رأى المتجردة وهي كالشمس البازغة من خلال ستار، أو هي كالدرة التي ابتهج بها غواصها وهلل لعثوره عليها، أو هي دمية منحوتة من مرمر، وبنيت لها قاعدة من الآجر والقرميد. ولقد كانت نظرتها غير مباشرة إلى الشاعر فقد أخذتها المفاجأة فكانت ترنو إليه كما يرنو العليل إلى وجوه عُوَّاده. وفي هذه اللحظة سقط نصيفها فعجَّلتْ برفع معصمها لكي تغطي وجهها حتى لا يراها أحد وكان كفها مخضبا بالحنَّاء، له بنان مخضوب بالأحمر كأنه ثمر نبات يُنتج العنم والعنم أحمر اللون، تُشَّبهُ به الأصابع المخضوبة، وهو لين حتى ليكاد يعقد.

ورد البيت الأخير بقافية مرفوعة، وكان ينبغي أن تكون كغيرها من قوافي الأبيات السابقة مخفوضة، وهذا وارد كثيرًا في الشعر، وقد روي الشطر الثاني برواية تصحح ذلك، وهي:

«عَنَمٌ على أشجاره لم يُعْقَدِ»

هذا بعض ما ذكر فيه النابغة الخضاب.

وفي عصر متأخر عن صاحبنا هذا، جاء قيس بن ذريح المسمَّى: قيس لبنى. فقال:

تمتع بها ما ساعفتك ولا تكن
عليك شجًا في الحلق حين تبينُ

وإن هي أعطتك الليان فإنها
لآخر من خِلانها ستلينُ

وإن حلفت لا ينقضُ النأي عهدَها
فليس لمخضوبِ البنانِ يمينُ

ولئن كنا لم نتحدث عن سيرة النابغة الذبياني فذلك لأنه من الشهرة بمكان مما لا يدعو إلى ذكر سيرته الذاتية ولا الحديث عن شعره، وبخاصة وأن ديوانه قد حظي بعناية كبار رواة الشعر، وعظم قدره بما ذاع منه من قصائد. وبتحقيق أحد كبار المحققين وهو الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم الذي عني به عناية كبرى، ونشره عن دار المعارف بمصر.

ولكننا ينبغي أن نتحدث عن الشاعر الآخر وهو قيس بن ذريح الذي أوردنا له الأبيات الثلاثة التي مرت، وهي أبيات ذكر في آخرها الخضاب في نوع من التعريف بشيء من طباع المرأة قائلًا إن النساء ليس لهن يمين يعتمد عليه أو يُعتدُّ به، لكثرة ما يحلفن، ولم يذكر المرأة صراحة فقال: «مخضوب البنان» وهذا القول كناية عن المرأة التي اعتادت وضع الحنَّاء (الخضاب) في يديها.

وقيس بن ذريح من الشعراء المحببين له شهرة واسعة جلبتها له أشعاره في لبنى، وكانت زوجة له، ولكنه طلقها بإلحاح من والدته، وبعد الطلاق تاقت نفسه إليها واشتعل قلبه حُبًّا لها، فقال فيها الكثير من القصائد وحاول رؤيتها دون أن يتمكن من ذلك وقد دفعت تصرفاته هذه والدها إلى أن يشتكي عند الخليفة

معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه. ولقد بقي ابن ذريح على حاله يسيل العبرات وراء من يحب دون طائل.

وممن أومأ إلى الحناء الشاعر المعروف قيس بن الملوح (مجنون ليلى) إذ قال يصف صاحبته وهي ترمي حصى الجمار في موسم الحج فيظهر بنانها المخضب بالحناء من بين بردها: فيقول:

ولم أرَ ليلى غيرَ موقف ساعةٍ
ببطنِ منى ترمي جمار المحصَّبِ
ويبدي الحصى منها إذا قذفت به
من البُردِ أطرافَ البنانِ المخضَّبِ

(والخضاب: هو تغيير لون الشعر أو النقش على اليد والرجل بواسطة الحناء أو الوسمة «الكتم»).

أما أبو الطيب المتنبي الشاعر العربي ذائع الصيت فله أبيات في غاية الروعة أشار فيها إلى الخضاب، كان في فترة الشباب وفتوَّته، له نشاط وعلى رأسه لمة شعر سوداء. وكان جانبًا راسه (فوداه) بشعر أسود هو فتنه للاتي ينظرن إليه. وهو في حد ذاته فخر لمن هو مثله ولكنه يراه أمرًا معيبًا لأنه في قرارة نفسه يتمنى خضابًا أبيض يغطى هذا اللون الأسود فيخفي شبابه عن الأعين، وهو يقول بعد أن كبر وصار الشيب في رأسه وفي فوديه منتشرًا إنني الآن لم أذمّ الشيب بعد أن انجلى عني ذلك اللون الأسود:

مُنًى كنَّ لي أنَّ البياض خضابُ
فيخفى بتبييض القرون شبابُ
ليالِيَ عند البيض فوداي فتنةٌ
وفخرٌ، وذاك الفخر عنديَ عابُ

فكيف أذمُّ اليوم ما كنت اشتهي
وأدعو بما أشكوه حين أجابُ

والقصيدة – كاملة – في ديوانه، وهي جميلة خصبة المعاني رائعة الألفاظ.

وممن ذكر نقش الحناء في أكف النساء الشاعر السيد مساعد ابن السيد عبدالله، وكان من شعراء الكويت الأوائل، له شعر غزير ومطارحات مع أصحابه من الشعراء الذين عاصروه، وشعره متنوع الأغراض، ذكر الرشيد في كتابه «تاريخ الكويت» بعضًا من شعره، وقال عنه: «يمتاز هذا الشاعر الفاضل على كثير من إخوانه شعراء الكويت بالارتجال والبديهة، وإجادته في الهجاء، وبرقته في الغزل».

له في الكتاب المذكور قصيدة عنوانها: «تعليم البنين والبنات» وفيها يتخيل نفسه متحدثًا مع امرأة، يوحي لها بضرورة أن يتعلم الفتى وتتعلم الفتاة، وفي آخر القصيدة تسأله عن حياة جنسها وأخلاق النساء في زمنهم ذاك، وهنا يرد عليها قائلًا:

فقلتُ لها معارفهنَّ أضحتْ
بنقش الكفِّ من لبس السِّوارِ
وتزجيجِ الحواجبِ واكتحالٍ
وصفُّ الشَّعر او سحب الإزار
ولا يستطعنَ تدبيراً لبيتٍ
ولا يُحسِنَّ تربيةَ الصِّغار

يرى الشاعر أن نساء ذلك الوقت كان كل هممهن في زينتهن التي ذكر منها نقش الكف، وهو يقصد بذلك أنهن ينقشن أكُفَّهنَّ بالحناء، وغير الاهتمام بالزينة فإنهن لا يُجدن تدبير المنزل ولا رعاية الأطفال وتربيتهم.

وله – أيضاً – قصيدة ثانية تحدث فيها إلى نسوة جالسات في منطقة برية يتنزهن في وقت الربيع وقد جلسن حوله وتحدثن إليه حديثاً طويلاً ومنه:

وقد طِفن من حولي وَهُنّ ضواحكٌ

ويرمينني بالغمز واللمز والرمشِ

ويظهرنَ لي حُمرَ الأكُفِّ تغنجًا

لا نظر طرز الرقش منهنّ والنقش

ومن الجليّ أنه يقصد بما جاء في صدر البيت الثاني أنهن وضعن الحنّاء على أكُفهنّ حتى صارت هذه الأكفُّ حمراء تلفت النظر، وتدل على اهتمامهن بابراز زينتهن وحرصهن على أن يبدين جمالَهنَّ له مما جعله يقول:

فابصرتُ شيئاً خامر العقل والنُّهى

به قد هوى قلبي إلى هوة الدَّهشِ

وهكذا نرى شاعرنا وقد ألمح إلى (الحناء) في موضعين من شعره، وكان الحناء في أيدي النساء منتشراً آنذاك.

وغنّى الفنان محمود الكويتي لإذاعة دولة الكويت قبل خمس وعشرين سنة أغنية جميلة على لحن (النّقّازي) وقد شاعت كثيرًا وغنتها الفرق الفنية الكويتية قبل أن يصدح بها هذا الفنان وبعد ذلك.

الأغنية لمؤلف غير معروف، وملحن غير معروف كذلك، يتحدث الشاعر عن نجم سهيل الذي يطلع من الجنوب، ويأتي ببرد خفيف لا يضر، ثم يقول إنه يحب الطيِّب من الناس حتى لو كان بعيدًا منه. ويصف مشية الحبيب (خِلّي) وهو يسير لابسًا المداس، وقد صبغ رجله بالحناء:

برده يجي نسناس   يا سهيل يا الجنوبي   برده يجي نسناس

لو من بعيد الناس   قلبي يحب الطيِّب   لو من بعيد الناس

بالحنا والمداس   يا زين مشية خِلّي   بالحنّه والمداس

(نسناس: يهب هبات خفيفة غير متسارعة، المداس: نعال تلبسها المرأة قديمًا).

وانتشر ذكر الحناء في الثقافة الشعبية العربية فذكر في الكويت وفي غيرها. جاء ذكره في الشعر الغنائي وفي الأمثال وفي ألعاب الأطفال.

ففي الشعر الغنائي نجد هذه الأغنية المشهورة القديمة وقد رددها المغنون على ألحان مختلفة ومطلعها:

يا بن سالم ترى قلبي عليكم هزيل

والسبب صاحبي زغلٍ ولا ارضيت اناه

ومنا قول الشاعر:

صاحبي غصن موز والهوى به يميل

ليت من هُوْ لغصن الموز يقطف جناه

صاحبي ينقش الحنه بكفٍّ جميل

مثل نقش المطوَّع بالقلم والدواه

ثم هذه أغنية سامرية أخرى لحنها قديم والشعر الذي جرى غناؤه فيها قديم، وهو الآخر مجهول الشاعر:

حمام يا اللي في البساتين

يلعي بْطربْ والهم ما جاه

هُوْ مولِّعِكْ تل الرمامين

أو معجبك خضاب جِنّاه

ومن ألعاب الأطفال لعبة كان الصغار يلعبونها وهي تؤدَّى حتى اليوم في بعض الاحتفالات دون أن يُذكر اسمها. نجد شرح طريقتها، وتصوير أدائها في كتابين تناول مؤلفاهما فيهما هذا الموضوع وهما الكتابان اللذان أصدرهما كل من الأستاذ سيف مرزوق الشملان، والأستاذ الفنان أيوب حسين تحت عنوان: الألعاب الشعبية الكويتية. وهي لعبة طرباش لوماش التي كانت تلعب في الماضي في «الفرجان» و«البرايح» ويقوم بها ولدان أو بنتان وهي أقرب ما تكون إلى النشاط الرياضي

في ذلك الوقت الذي كانت هذه اللعبة تُؤدَّى به، أما الآن فتأتي ضمن المظاهر الاحتفالية.

هذا في الكويت أما في خارجها من بلدان العرب، فقد وجدنا الاهتمام بذكر «الحناء» كبيرًا في مصر على سبيل المثال، وقد وردت حوله أعداد كثيرة من الأغاني منها تلك الأغنية التي كنا نستمع إليها قديمًا، وهي:

كفُّهْ مْحنِّى كفو مْحنِّى حتى شفايفه بْلون الحنه

وهذه الأغنية مما شدا به الفنان المصري كارم محمود.

هذا حديث عن «الحناء» واستعمالاته في الكويت وفي خارجها. وما ورد عنه في الماضي والحاضر أردت أن أُذَكِّر به كما جرت العادة في مقالات «الأزمنة والأمكنة»، لأن كثيرًا من الأمور تُنسى مع مضي الزمن ولا تعود إلى الذاكرة إلا بإعادة القول عنها. ولذا فإنني أرى موضوع «الحناء» على بساطته موضوعًا جديرًا بالاهتمام ينبغي إن نذكره ونُذَكِّر أبناء وطننا به، فهو وإن كان من الأصباغ المستعملة حاليًا فهو من حيث قدمه ومروره على فترات مهمة من فترات حياتنا لا يجب أن نغلق الباب دونه، بل يجب أن يكون كغيره من مسائل التراث أمام أعيننا فالتراث جزء من التاريخ كما يعلم الجميع.

****

ملحاق خير

لما كان وضع الحناء على كف المرأة وبنانها من أمور الزينة التي تحرص عليها النساء دائمًا، فإنَّ القدماء من العرب ما كانوا يضعون الحناء في حالات منها كون الزوج مسافراً، إذ إنهم يرون أن المرأة لا يجوز أن تتجمل في غياب زوجها لسببين أولهما حتى لا يطمع بها طامع فيتعرض لها بسوء، يدفعه إلى القيام به مايراه من تجملها في غياب زوجها. والسبب الثاني أن التجمل علامة من علامات الفرح والسرور، ومادام الزوج مسافراً فإنها ينبغي أن تبتعد عن كل مايجلب السرور أو ما يدل عليه حتى يعود الزوج من سفره.

ولقد ورد في الشعر القديم ما يدل على ذلك فقد تألم أحد الشعراء حين عاد من سفره فوجد بنان زوجته أحمر اللون بسبب الحناء. فأنشد:

فقلت خضبت الكف بعد فراقنا
فقالت معاذ الله ذلك ما جَرَى
ولكنني لما رأيتك راحلاً
بكيت دماً حتى بللت به الثرى
مسحت بأطراف البنان مدامعي
فصار خضابًا بالأكفِّ كما ترى

وهكذا تخلصت هذه المرأة من عتاب زوجها بأسلوب جعله يتقبل ما قامت به من استعمال الخضاب في غيابه.

ويقول شاعر آخر ذكروا أنه يزيد بن معاوية في موضوع مشابه، وقد ضمَّن قوله هذا في قصيدة بلغت ستة عشر بيتًا، وهذا هو ما يخصنا من قوله:

ولما تلاقينا وجدت بنانَها
مُخضَّبةً تحكي عصارة عَنْدَمِ
فقلتُ خضبتِ الكفَّ بعدي أهكذا
يكونُ جزاءُ المستهامِ المتيَّمِ
فقالت، وأبدتْ في الحشا حُرَقَ الجوى
مقالةَ من بالقول لم يتبرَّمَ
وعيشكَ ما هذا خضاباً عرفتُهُ
فلا تكُ بالبهتان والزور مُتْهمي

ثم راحت تتعلل بما تعللت به المرأة الأولى التي جاء حديثها في البداية فقالت:

بكيتُ دماً يوم النوى فمسحتُهُ
بكفِّي، وهذا الأثر من ذلك الدمِ

(الشعر في ديوانه ص ٦٣، طبعة صادر، بيروت)

ومن أجمل ماقاله المتنبي في المقارنة بين الحسن الذي يراه في الحواضر، والآخر الذي يراه في البادية، وهو يفضل الأخير على الأول لأسباب ذكرها في أبياته التي سوف نوردها هنا، وسوف نعجب لختامه الذي يقول فيه إنه لا يهوى إلا من كانت غير مموهة، فهى على طبيعتها التي خلقها الله سبحانه عليها، ولأنه كذلك فقد ترك شيبه ولم يقم بخضابه حتى لا يخالف الطبيعة:

حُسن الحضارة مجلوبٌ بتَطْرِيةٍ
وفي البداوة حُسنٌ غيرُ مَجْلُوبِ
أفدي ظباءَ فلاةٍ ما عرفنَ بها
مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيبِ

ومن هوى كل من ليست مُمَوَّهةً
تركت لون مشيبي غير مَخْضُوبِ

وقال شاعر آخر بضعة أبيات عن الحنَّاء نذكر منها آخر بيت قاله لنختم به هذا الملحاق، يقول:

يذوبُ القلبُ للحنَّا اشتياقًا
لغِيدٍ صاغها الجِنُّا وَعَطَرْ

****

أمين عام جامعة الدول العربية الأسبق

محمد عبدالخالق حسونة في الكويت [1]

هذا الرجل من مشاهير العرب في الوقت الحاضر، فقد كان آخر عمل تولاه هو الأمانة العامة لجامعة الدول العربية كما يبدو من عنوان هذا المقال. وهو رجل مخلص وفيٌّ، يريد أن يعمل ليلاً ونهاراً لمصلحة الجامعة ولمصلحة العرب بصفة عامة، ولكنه كان سيئ الحظ مع الناس إذ كانوا يضعون على كتفه هموم العرب كلها، وكانوا يرون أن باستطاعته حل كافة المشكلات العربية ولكنه على غير ما يظنون فيه، يتقاعس عن القيام بذلك.

والواقع أن هؤلاء يظنون أن هذه الجامعة تستطيع القيام بكل شيء وذلك أمر غير صحيح فالأمر يتعلق بشؤون كثيرة محلية وخارجية، ولكنهم منذ نكبة فلسطين صاروا يريدون بكل ما يستطيعون استعادة هذه البلاد السليبة.

وعندما تأسست الجامعة العربية في سنة ١٩٤٥م، وجد هؤلاء من يصلح لوضع المسؤولية عليه، فهم يرون أن هذا الكيان العربي مؤهل للقيام بدور كبير يكفل القيام به عودة الحق إلى أهله، وانتهاء دولة اسرائيل. ولذلك فقد وجدنا اللائمة تقع أولاً على عبدالرحمن عزام الأمين العام الأول لجامعة العرب، ثم صارت تقع على من جاء بعده وهو محمد عبدالخالق حسونة. وكان الكتَّاب والشعراء يتبارون

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠١٢/٥/٩.

في كيل التهم لها، ونعتها بالتقصير، ومن ذلك أنه لا تغيب عن بالي قصيدة كتبها الأخ المرحوم نايف الكبيسي تحدث فيها عن جامعة الدول العربية، وعن تقصيرها وتقصير من تولى منصب الأمانة العامة بها ومن ذلك شطر لايزال في ذهني وهو:

«عـــزَّام ولَّـــى وذا حَـسُّـونَـةُ فيها»

وكان أي شعر من هذا النوع يستفز العواطف ويثير المستمعين، فيحظى الشاعر بالهتاف والتصفيق الشديدين، لأنه يضرب على وتر حساس لدى مستمعيه.

كان لهذا الرجل موقف شريف من الكويت، فلم نجده ينساق وراء الاطماع العراقية التي أثارها عبدالكريم قاسم في اليوم الخامس والعشرين من شهر يونيو لسنة ١٩٦١م، ولم يكن الحبر قد جف على اتفاق إلغاء ما كان يسمى المعاهدة الكويتية البريطانية. وكانت الأطماع المفاجئة قد أثارت هذا الرئيس العراقي فجعلته يتحدث حديثاً مختلفاً عن الاعتراف بها بصفتها دولة مستقلة.

ولم يكن ادعاء قاسم مقنعاً لأحد من الناس، ومن هؤلاء محمد عبدالخالق حسونة أمين عام جامعة الدول العربية الذي نهض إلى القيام بدور في حل الإشكال الذي أثاره الطمع العراقي وعبر عنه عبدالكريم قاسم، فذهب عاجلاً إلى بغداد ومنها وصل إلى الكويت في اليوم الرابع من شهر يوليو لسنة ١٩٦١م، وقد جاء إلينا من أجل تدارس الوضع مع الجهات الرسمية الكويتية وكان في الكويت حين أدلى مسؤول في الجامعة العربية بتصريح جاء فيه: «إن مطالبة العراق بالكويت مفاجئة» وفسر ذلك بأن أشار إلى أنه في أثناء اجتماع المجلس الاقتصادي العربي في بغداد في شهر إبريل ١٩٦١م، وافق العراق على قبول الكويت في عضوية المجلس، وفي عضوية شركة ناقلات النفط العربية بصفتها دولة مستقلة. وأضاف إلى ذلك أن الكويت قد انضمت إلى شركة الطيران العربية، وحضرت اجتماع المجلس الاقتصادي العربي الذي عقد في دمشق في الاسبوع الماضي دون أن يثير العراق أي اعتراض.

وعن زيارة الأمين العام للكويت نشرت جريدة «حماة الوطن» التي تصدرها وزارة الدفاع الكويتية في اليوم الرابع من شهر يوليو للسنة ذاتها ما يلي: «وصل إلى هنا بطريق الجو السيد محمد عبدالخالق حسونة الأمين العام للجامعة العربية، ومساعده السيد نوفل، قادمين من بغداد بعد أن أمضيا يومين اجتمعا خلالهما بوزير الخارجية العراقية هاشم جواد، ورئيس الوزراء عبدالكريم قاسم.

وقد كان في استقبالهما في مطار الكويت سمو الشيخ سعد العبدالله السالم الصباح، رئيس دائرة الشرطة والأمن العام، والسيد بدر الملا سكرتير الحكومة، وعدد كبير من رجال الصحافة والإذاعة والتلفزيون والمصورين وأبناء الشعب.

وما إن ترجل الأمين العام حتى دَوَّت الأَكُفُّ بالتصفيق وعلت صيحات استنكار مطالب قاسم بالكويت، وتَشَكَّلتْ مظاهرة سلميَّة هتفت بحياة الأمير وسقوط قاسم»

ولم تكن هذه الزيارة هي الأولى من نوعها، فقد زار محمد عبدالخالق حسونة الكويت بعد ذلك عدة مرات، وبخاصة بعد أن أتت إلى هنا قوات الجامعة العربية التي قصدت من حضورها الفصل بين القوات الكويتية وأية قوات عراقية قد تحدث قاسم نفسه بإرسالها.

وجاء إلى الكويت مرة ثالثة من أجل الاطمئنان على صحة الشيخ عبدالله السالم الصباح الذي ألمت به وعكة شديدة وهو في مجلس الأمة وقد جعلته طريح الفراش مدة طويلة توفي بعدها في سنة ١٩٦٥م. ولقد كان مجيء الأمين العام في هذه الفترة من أصدق الدلائل على محبته للكويت وأهلها وتقديره لأميرها الذي شاهد تعامله الراقي أثناء الفترة الأولى لاستقلال الكويت وما تبعها من أحداث جسام كان أهمها ما فعله عبدالكريم قاسم.

ولقد كان لي حظ في فترة هذه الزيارة فلقيته وتحدثت إليه، وعرفت فيه طيب النفس والخلق، كما عرفت فيه حرصه على معرفة الناس والاتصال بهم، ذلك

أنني بحكم عملي في ذلك الوقت ذهبت إلى الشيخ صباح السالم الصباح وكان ولياً للعهد رئيساً لمجلس الوزراء، وذهابي هذا كان أمراً يحتمه العمل، وقد سعدت في هذه الأثناء بلقاء الرجل وأنست بحديثه، وعندما خرج إلى موعد آخر له، دخلت إلى مكتب الشيخ صباح السالم فلقيني بأسلوبه المعهود المعبر عن التواضع، وعن محبته لأبناء وطنه، وقال- يومذاك- هل شاهدت أمين عام جامعة الدول العربية هنا؟ فذكرت له ما دار بيني وبينه من أحاديث، وأثنيت عليه. فقال: إنه رجل طيب وقد جاء من أجل الاطمئنان على صاحب السمو الأمير، وأهداني هذا المصحف الثمين الذي أقدمه لك لأنني أعرف مدى اهتمامك بالحصول على هذه الطبعة الكريمة القيمة من كتاب الله، وقد سعدت كل السعادة بهذه الهدية القيمة واحتفظت بها ضمن ما اعتز به من محفوظات.

وقد كتب الله لي أن ألتقي بحسُّونة مرة أخرى سابقة إذ جاء - آنذاك - إلى الكويت، وكنت مسؤولًا في جهاز تلفزيون الكويت، وأبلغتني وزارة الإرشاد والأنباء (الإعلام حاليًا) بأن محمد عبدالخالق حسونة أمين عام جامعة الدول العربية سوف يأتي الآن إلى التلفزيون لكي يسجل كلمة بمناسبة ذكرى تأسيس الجامعة العربية. وقد كان ذلك فحضر واستقبلته بالترحاب، وذكَّرته بمحبة أهل الكويت له، وقد لاحظت أنه لم ينس ذلك، وجلس قليلًا ريثما أعد موضع التسجيل فألقى كلمته ثم غادرنا ولم أره بعد ذلك.

نعود هنا مرة أخرى إلى حديث ذكرنا فيه شيئاً عن الأزمة التي أثارها عبدالكريم قاسم ضد الكويت، وعن وصول قوات تُمثل عدداً من الدول العربية للفصل بين الفريقين الكويتي والعراقي. ولقد كانت هذه الأفواج التي جاءت من مختلف الجيوش العربية عملاً فريداً من أعمال الجامعة لم تقم هذه الجامعة بمثله قبل ذلك ولا بعد ذلك.

وفي كتاب صغير عنوانه «الكويت في الجامعة العربية» أصدرته دائرة المطبوعات والنشر التابعة لحكومة الكويت وهذه الدائرة هي التي تطورت فيما بعد إلى أن صارت وزارة هي اليوم وزارة الإعلام، ورد ذكر كل ما دار في الجامعة أثناء تلك الأزمة، ومن ذلك قول الكتاب: «إنه لا يسعنا- في الوقت نفسه إلا أن نثني الثناء كله على الموقف الإيجابي المتجرد الذي وقفه السيد محمد عبدالخالق حسُّونة الأمين العام للجامعة العربية خلال المباحثات التي دارت في القاهرة والكويت، وفي توجيهها نحو المصلحة العربية المشتركة. وقد لخص الأمين العام العبرة الكبيرة والمعنى القومي لهذا الحدث المهم عندما عقد مؤتمره الصحافي في الكويت في اليوم الثاني عشر من شهر أغسطس لسنة ١٩٦١م فقال: **«إن انضمام الكويت إلى معاهدة الدفاع العربي المشترك والتعاون الاقتصادي، يعتبر عملًا تاريخيًا مشهوداً في حياة الكويت بل هو إلى جانب عضوية الجامعة الدعامة الوطيدة في المحافظة على استقلال الدولة العربية الفتية وسلامة أراضيها. فالدول العربية تلتزم طبقًا لميثاق الجامعة بصيانة استقلال دولة الكويت وسلامة أراضيها واحترام نظام الحكم القائم فيها. كما أن الدول المعنية تلتزم باعتبار أي اعتداء مسلح يقع على دولة الكويت أو على قواتها اعتداء عليها كلها، ولذلك فإن هذه – عملًا بحق الدفاع الشرعي الفردي والجماعي عن كيانها – تلتزم بأن تبادر إلى معونة دولة الكويت، وبأن تتخذ على الفور منفردة ومجتمعة جميع التدابير وتستخدم كل ما لديها من وسائل بما في ذلك استخدام القوة المسلحة لرد الاعتداء ولإعادة الأمن والسلام إلى نصابهما».**

ولم يكتف محمد عبدالخالق حسونة بما قاله في المؤتمر الصحافي المشار إليه بل صرح تصريحًا مهمًّا يوم أن غادر الكويت تلقاه منه رجال الإعلام وهو في المطار، حين قال: **«إن الطريق أصبح الآن واضحًا، وفي وسع الكويت وشعبها العزيز أن يطمئنوا إلى سلامة وضعهم وأراضيهم، وأن هذه السلامة يحميها جيش**

الكويت ويؤيده فيها التضامن العربي القوي. وعندما تجلو القوات البريطانية عن أرض الكويت ستزول كل الأسباب التي دعت إلى التوتر الحالي. وإنني لذلك أرجو أن يزول أيضًا وبصفة دائمة كل ما من شأنه أن يثير المخاوف لدى إخواني الكويتيين وأن ينصرفوا في عهد استقلاله الجديد إلى كل ما يعود بالخير عليهم ملتفين حول سمو رائدهم وأميرهم المعظم الشيخ عبدالله السالم الصباح الذي أرجو له الصحة والهناء والتوفيق».

بعد فترة وجيزة من تأسيس جامعة الدول العربية وجد أعضاؤها أنه لابد من معاهدة للدفاع المشترك تضمهم، وذلك توقيًا لأية أخطار يتعرض لها أحد أعضائها. وقد وجدوا أن الدفاع المشترك العسكري لا بد وأن يكون مشفوعًا بالاتفاق على التعاون الاقتصادي ولذا فإنه في اليوم الثالث عشر من شهر إبريل لسنة ١٩٥٠م وقع الأعضاء على هذه الاتفاقية وملحقها العسكري.

وقد وجدت دولة الكويت أنها بعد استقلالها، وبعد أن تم انضمامها إلى الجامعة العربية أنه ينبغي لها أن تشترك في كافة المنظمات الخاضعة للجامعة، وتوقع جميع المعاهدات والاتفاقات الصادرة عنها. وكان من ذلك أن وقع الشيخ عبدالله السالم الصباح في اليوم الثاني عشر من شهر أغسطس لسنة ١٩٦١م على اتفاقية الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادي التي تحدثنا عنها آنفا. وهذه الاتفاقية هي التي تم الاستناد إليها عندما جاءت القوات العربية إلى الكويت وفق ما أشرنا إليه قبل قليل.

وقد أصدر الشيخ عبدالله السالم وثيقة انضمام دولة الكويت إلى المعاهدة المذكورة، وفي ذلك:

«نحن عبدالله السالم الصباح أمير دولة الكويت بعد اطلاعنا على معاهدة الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادي بين دول الجامعة العربية وملحقها العسكري

اللذين وافق عليهما مجلس الجامعة العربية بجلسته المعقودة يوم ١٣ من إبريل (نيسان) ١٩٥٠م من دور انعقاده العادي الثاني عشر وبروتوكولها الإضافي الذي وافق عليه مجلس الجامعة العربية بجلسته المعقودة يوم ٢ فبراير (شباط) ١٩٥١م. نعلن انضمام دولة الكويت إلى المعاهدة وملحقها العسكري وبروتوكولها الإضافي. وقد أصدرنا أمرنا إلى السلطات المختصة في حكومتنا لتنفيذ أحكامها».

صدر بقصر السيف في يوم السبت غرة ربيع الأول ١٣٨١هـ الموافق من أغسطس (آب) ١٩٦١م.

أمير دولة الكويت

عبدالله السالم الصباح

وتبعه الأمين العام لجامعة الدول العربية محمد عبدالخالق حسونة فقال: «إنه في يوم السبت غرة ربيع الأول ١٣٨١هـ الموافق ١٢ أغسطس (آب) ١٩٦١م بقصر السيف العامر بالكويت.

انضمت حكومة دولة الكويت إلى معاهدة الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادي بين دول الجامعة العربية وملحقها العسكري. وهي المعاهدة التي وافق عليها مجلس الجامعة بجلسته المعقودة يوم ١٣ من إبريل (تيسان) ١٩٥٠م من دور انعقاده العادي الثاني عشر - كما انضمت إلى البروتوكول الإضافي لهذه المعاهدة الذي وافق عليه مجلس الجامعة بجلسته المعقودة يوم ٢ من فبراير (شباط) ١٩٥١ من دور انعقاده العادي الثالث عشر.

وقد سلم حضرة صاحب السمو أمير دولة الكويت المعظم وثائق الانضمام إلى المعاهدة المذكورة وملحقاتها إلى الأمين العام لجامعة الدول العربية.

واثباتاً لما تقدم، حرر هذا المحضر من نسختين أصليتين، سلمت إحداهما إلى سمو الأمير، وتحفظ الثانية لدى الأمانة العامة لجامعة الدول العربية».

الأمين العام

عبدالخالق حسونة

ثم أدلى الأمين العام بتصريح مهم أعلن فيه عن هذا الحدث وذكر أنه من أهم أحداث ذلك الوقت، وذكر أهمية انضمام الكويت إلى هذه المعاهدة فيما يتعلق بحمايتها والدفاع عنها فقال في تصريحه:

«يسرني إبلاغكم أن حضرة صاحب السمو الشيخ عبدالله السالم الصباح، أمير دولة الكويت المعظم، أصدر اليوم وثيقة انضمام دولة الكويت إلى معاهدة الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادي.

وبهذا تصبح الكويت الدولة العربية الثامنة التي تلتزم بهذه المعاهدة، بعد أن التزمت بها من قبل المملكة الأردنية الهاشمية، والمملكة العربية السعودية، والجمهورية العربية المتحدة، والجمهورية العراقية، والجمهورية اللبنانية، والمملكة المتوكلية اليمنية، والمملكة المغربية.

ولا ريب أن هذا الانضمام يعتبر عملا تاريخيًا مشهودًا في حياة الكويت، بل هو إلى جانب عضوية الجامعة الدعامة الوطيدة في المحافظة على استقلال الدولة العربية الفتية وسلامة أراضيها. فالدول العربية تلتزم، طبقًا لميثاق الجامعة، بصيانة استقلال دولة الكويت وسلامة أراضيها، واحترام نظام الحكم القائم فيها.

كما أن الدول المعنية تلتزم باعتبار أي اعتداء مسلح، يقع على دولة الكويت أو على قواتها اعتداء عليها كلها. ولذلك فان هذه الدول، عملًا بحق الدفاع الشرعي - الفردي والجماعي - عن كيانها، تلتزم بأن تبادر إلى معونة دولة الكويت، وبأن

تتخذ على الفور منفردة ومجتمعة جميع التدابير، وتستخدم كل ما لديها من وسائل، بما في ذلك استخدام القوة المسلحة لرد الاعتداء، ولاعادة الأمن والسلام إلى نصابيهما.

وأنها لقولة حكيمة تلك التي تمثل بها اليوم سمو أمير الكويت المعظم وهي: وربما صحت الأجسام بالعلل.

ويسعدني في هذه اللحظة التاريخية أن أعلن لأبناء أمتنا العربية جمعاء في دولة الكويت الناهضة، وفي سائر أقسام وطننا الكبير الخالد، أن حضرة صاحب السمو أمير دولة الكويت المعظم طلب اليوم جلاء القوات البريطانية عن الأراضي الكويتية، تمهيدًا لقدوم القوات العربية ضيوفًا على الكويت العزيز.

وبهذا نضرب أروع الأمثال على فعالية التضامن العربي، ونشهد العالم أجمع على قوتنا وتصميمنا على إعلاء كلمة العروبة والحق».

كان دور عبدالخالق حسونة دوراً مهما ضمن الأدوار العربية التي سعت إلى تطويق الأزمة التي أثارها العراق ولذلك فإننا ينبغي أن نذكر له هذه المساعي الطيبة التي دلت على حرصه على وحدة الصف العربي، ووفائه بأعباء مهمته الرسمية التي كلفته الأمة بها.

والآن ينبغي أن نتحدث عن الأمور الشخصية التي تتعلق بسيرته الذاتية، وما مر به من أعمال وأحوال.

ولد هذا الرجل الكريم في سنة ١٨٩٨م، وتوفي في سنة ١٩٩٢م. وهو سياسي محنك، ودبلوماسي قدير.

عمل قبل ثورة سنة ١٩٥٢م المصرية في وزارة المعارف ثم في وزارة الخارجية.

وذلك بعد أن حصل على شهادة في القانون، وعين بوظيفة أمين عام الجامعة العربية في اليوم الرابع عشر من شهر سبتمبر لسنة ١٩٥٢م خلفًا لأول أمين عام لها وهو عبدالرحمن عزام. واستمر في عمله حتى سنة ١٩٧٢م حيث استقال. وفيما يتعلق بدراسته وبأعماله قبل توليه الأمانة العامة للجامعة العربية، فإننا نذكر أنه تخرج في كلية الحقوق بجامعة القاهرة في سنة ١٩٢١م، ثم حصل على شهادة الماجستير في سنة ١٩٢٥م. والتحق فوراً بالسلك الدبلوماسي المصري. بعد فترة عمل قضاها وكيلًا لنيابة الاسكندرية انتهت في سنة ١٩٣٦م ثم تنقل ضمن وزارة الخارجية بين عدد من الدول، إلى أن تم اختياره وكيلًا لوزارة الشؤون الاجتماعية يوم تم إنشاؤها في سنة ١٩٤٠م. وفي سنة ١٩٤٢م صار محافظًا للاسكندرية، ثم سفيرًا ووكيلًا لوزارة الخارجية في سنة ١٩٤٨م، وتقلد بعد ذلك ثلاث وزارات هي الشؤون الاجتماعية في سنة ١٩٤٩م والمعارف في سنة ١٩٥٢م والخارجية في السنة ذاتها.

وهكذا نرى أن حسونة لم يأت إلى منصبه هذا إلا بعد أن تمكّن علميًّا بالدراسة في مصر وفي خارجها، ثم تمكن بالعمل في مجالات مختلفة كان أهمها العمل الدبلوماسي الذي كان عدته لقيادة الأمانة العامة لجامعة الدولة العربية.

ولذا فإننا وجدناه يعمل بجد في مختلف مجالات العمل الذي تسعى الجامعة إلى تحقيقه للدول الأعضاء، ويهتم بتطوير العلاقات الأخوية بين الدول العربية. ولا يهدأ له بال حين يرى أي اختلاف بين هذه الدول حتى يتوصل إلى حل إن لم يكن قاضيًا على النزاع برمته، فهو يقضي - في أقل الأحوال - على النزيف الذي يتسبب عنه فيعمق جروح الفرقة والتنابذ بين الدول التي قد ينشأ بينها الخلاف، وما حدث من العراق في وقته لم يكن خلافًا بمعنى الكلمة، ولكنه كان ظلمًا فادحًا تكبدته الكويت من جانب العراق الذي كال رئيسه الادعاءات الكاذبة ضدها مما

كاد أن يعطل مسيرتها، لأن رجالها تفرغوا في ذلك الوقت لرد العدوان على الأقل من الناحية الدبلوماسية. وكان دور عبدالخالق حسونة في وقف نزيف ما حدث في سنة ١٩٦١م دورًا مشهودًا. وقد تمكنت الكويت من السير على الرغم مما حدث، فقامت بأعمال التنمية والتطوير مما سبق أن أشرنا إليه في كتابنا «من أين يأتي النسيان» حيث عقدنا مقارنة بين وضع البلدين خلال فترة النزاع القاسمي فكان الميزان راجحًا لصالح هذا الوطن: الكويت.

وأخيراً فقد أصدرت دار المعارف للنشر بمصر كتابًا ضمن سلسلة (اقرأ) التي تصدرها منذ زمن طويل، وكان صدوره في سنة ٢٠٠٩م وهو من تأليف الأستاذ محمود عوض، وعنوانه «شخصيات» وكان من بين الشخصيات التي كتب عنها المؤلف في كتابه هذا الأستاذ محمد عبدالخالق حسونة، وقد كان له معه لقاء بعد مغادرته منصب الأمانة العامة للجامعة العربية، فصار اللقاء عبارة عن جرد لخلاصة تجارب الرجل مع استطلاع لآرائه وأفكاره، وما يدور بخلده بعد أن ترك منصبه.

أما محمود عوض فهو كاتب وصحافي مرموق له مؤلفات وصل عددها إلى سبعة عشر كتابًا عند نشره هذا الكتاب الذي أشرنا إليه، وله مقالات كثيرة في عدد من أمهات الصحف المصرية. وقد نشر مقالته الحوارية مع عبدالخالق حسونة في جريدة أخبار اليوم في عددها الصادر في اليوم الثاني والعشرين من شهر إبريل لسنة ١٩٦٨م.

ومن أقوال الأمين العام في هذا اللقاء مايلي:

«لقد كان من المفروض أن يكون سَيْرُ الجامعة في المرحلة الأولى – في رأيي على الأقل – نحو توحيد الأمة العربية، ولكن هذه المرحلة طالت أكثر مما يجب.. هذه الظاهرة لها أسباب، بعض الأسباب يتعلق بالظروف التي عاشتها الأمة

العربية، وبعضها الآخر يتعلق بالحكومات العربية، وفي النهاية يصب هذا وذاك في الجامعة نفسها».

ولما وجد أن هذا القول موجز إلى حدٍّ كبير فإنه صار يفسر كل سبب من أسباب توقف الأمة العربية عند حدود ما حدث عند إنشاء الجامعة.

وعندما قال له المحاور: كيف نرى السبيل لتصحيح الأخطاء الماضية في العمل العربي؟ قال:

«العمل الموحد. إنه وحده الذي يستطيع أن يعوض أخطاء الماضي، والعمل الموحد بهذا المفهوم ينبغي أن يكون شاملًا، فالجامعة نفسها يجب أن تتحول إلى منظمة اتحادية، والقيادة العسكرية الموحدة التي بدأت في سنة ١٩٦٤م يجب أن تتحول إلى جهاز عسكري موحَّد فعلاً».

كان الحديث طويلًا اشتمل على عدة نواح منها ما أشرنا إليه مما يتعلق بعمله في الجامعة العربية، ومنها ما يخص حياته كلها منذ الدراسة وابتداء العمل في الحكومة المصرية، إلى أن وصل إلى منصبه الأخير في جامعة الدول العربية، وفي الحديث إشارات عديدة إلى شؤونه الاجتماعية من حيث علاقاته العائلية بإخوته وأبنائه وأهل بيته، وقد ورد سؤال مهم عن طرق تربيته لأولاده وكيف يرى ذلك. وقد تخلل ذلك الحديث عن العمل الدبلوماسي بشكل عام.

لم تكن أيام محمد عبدالخالق حسونة الأخيرة في الجامعة سعيدة، ولم يكن مرتاحًا للعمل، وذلك بسبب عدد كبير من الإشكالات كان أهمها التدخل في عمله، وكان منها ما أشرنا إليه في بداية الحديث وهو أن الأمة العربية قد وضعت على كاهله همومها وهي تظن أنه قادر على صنع كل شيء بما في ذلك إزالة اسرائيل من الوجود.

وعلى العموم فإن العمل الذي بدأه والأيام التي أمضاها فيه وأنجز خلالها أمورًا كثيرة مشهورة لم يعد هو العمل الذي يحب فآثر الاستقالة والركون إلى الهدوء بعد ذلك الضجيج الكبير الذي شهدته الأمة خلال الفترة الأخيرة التي مرت به وهو أمين عام لجامعة الدول العربية وكان ذلك في سنة ١٩٧٢م. وبقي بعيداً عن الأضواء إلى حين وفاته في اليوم الحادي والعشرين من شهر يناير لسنة ١٩٩٢م، الأمر الذي أشرنا إليه فيما سبق.

****

ملحاق خير

أجد أن من الأفضل هنا إثبات بعض فقرات من كتابنا المشار إليه في المقال المرفق وهو: «من أين يأتي النسيان؟» وهي فقرات تثبت ان ادعاءات قاسم في ذلك الوقت من سنة ١٩٦١م لم تَفُتَّ في عَضُد الكويت ولا حكومتها وشعبها. ولقد سارت في طريق مستقبلها دون تردد، وذلك على ثلاثة محاور هي:

المحور الأول: هو تسيير العمل الحكومي في إطار التنمية واستكمال البنية التحتية للبلاد، ومواكبة الاحتياجات الجديدة في مجالات العمران والصحة والتربية وغيرها.

والمحور الثاني: هو التقدم في مجال تنظيم الدولة، وترتيب شكل الحكم الذي اتخذ الطريق الديموقراطي مسلكًا فتمت في هذا المجال خلال فترة قصيرة إجراءات كثيرة.

والمحور الثالث: هو مواجهة الادعاءات القاسمية في شتى المجالات، وفضح جرائم الطاغية، والرد على الأكاذيب التي يبرر بها ادعاءاته، ومواجهته في المحافل العربية والدولية، وكسب المزيد من الأصدقاء، والانفتاح على العالم، في مقابل انكماش الزعيم على نفسه وانقطاع صلاته مع كثير من الدول.

ولن نعود إلى الخطوات التي ردت بها الكويت على تلك الادعاءات، ولا على الأمور التي أنجزتها فيما يتعلق بتدبير الحياة في شتى المجالات، ولا على الأمور

التي أنجزتها فيما يتعلق بتدبير الحياة في شتى نواحيها، ولكننا سوف نتحدث عن الإجراءات التي غيرت صورة البلاد، ونقلتها من طور إلى طور، وهذه هي الخطوات التي نعنيها، مرتبة بحسب تواريخ إنجازها:

١ - في العشرين من شهر يوليو لسنة ١٩٦١م أصبحت الكويت عضوًا في جامعة الدول العربية، وكانت هذه المسألة إشارة إلى تأييد الدول الأعضاء لاستقلال الكويت، ورفض كل الادعاءات القاسمية.

٢ - في السادس والعشرين من شهر أغسطس لسنة ١٩٦١م صدر مرسوم أميري بإجراء انتخابات المجلس التأسيسي، وحددت صلاحيات هذا المجلس، وكان أهمها إنجاز الدستور.

٣ - في السابع من شهر سبتمبر لسنة ١٩٦١م صدر قانون العلَم الذي بموجبه ارتفع علم البلاد الجديد، لتبدأ معه الكويت مرحلتها الجديدة.

٤ - في السابع من شهر أكتوبر لسنة ١٩٦١م صدر قانون الانتخابات لينظم المراحل القادمة من الحياة الديموقراطية.

٥ - في السادس من شهر يناير لسنة ١٩٦٢م صدر الدستور المؤقت التي سارت عليه الكويت إلى حين صدور الدستور الدائم، وقد صدر بالدستور المؤقت القانون رقم (١) لسنة ١٩٦٢م تحت مسمى: «النظام الأساسي للحكم في فترة الانتقال».

٦ - في الرابع من شهر يناير لسنة ١٩٦٢ صدرت من أمير البلاد دعوة المجلس التأسيسي للانعقاد.

٧ - في السابع عشر من شهر يناير لسنة ١٩٦٢م صدر الأمر الأميري بتنظيم الوزارات، وفي التاريخ نفسه صدر أمر أميري آخر بتعيين الوزراء.

٨ - في العشرين من شهر يناير لسنة ١٩٦٢م افتتح الشيخ عبدالله السالم المجلس التأسيسي، وبدأ المجلس في هذا التاريخ أولى جلساته. وقد ألقى الأمير خطبة بهذه المناسبة جاء فيها:

«وستستمر الكويت دائمًا - بإذن الله - في طريقها الذي اختطته لنفسها:

- دولة عربية تتضامن مع شقيقاتها الدول العربية في كل ما يعود بالخير على الأمة العربية، وتسعى جهدها إلى تدعيم جامعة الدول العربية.

- دولة مستقلة تؤيد حق كل بلد في نيل حريته واستقلاله.

- دولة محبة للسلام تسعى إلى إقراره، وتؤيد كل من يسعى إليه، متمسكة في كل ذلك بميثاق الأمم المتحدة».

٩ - في الثالث والعشرين من شهر يناير لسنة ١٩٦٣م جرت في البلاد أول انتخابات نيابية.

١٠ - في التاسع والعشرين من شهر يناير لسنة ١٩٦٣م عقدت أول جلسة من جلسات مجلس الأمة برعاية الأمير وتشجيعه.

١١ - ولم يكد نظام عبدالكريم قاسم يلفظ أنفاسه في الثامن من شهر فبراير لسنة ١٩٦٣ منهيًا - إلى حين - وضعًا كان من أسوأ الأوضاع التي مرت بالأمة العربية؛ حتى تكللت جهود الكويت في السعي إلى الانضمام إلى الأمم المتحدة بالنجاح؛ فتم ذلك في الرابع عشر من شهر مايو لسنة ١٩٦٣م.

ولعل فيما تقدم الكفاية، والدلالة القاطعة على أن الكويت تعرف طريقها، وتستطيع أن تواصل السير فيه حتى تصل إلى تحقيق آمالها الكبرى.

****

مع سفينة الصحراء [١]

هذا موضوع واسع، يطول البحث فيه بحيث لا تكفينا للحديث عنه صفحتان من صفحات جريدة «الوطن» ومهما حاولنا الاختصار فإننا سوف نجد ما يدعونا إلى الإفاضة فيه، والاتساع في عرض جوانبه.

الحديث هنا عن الإبل التي أطلق عليها منذ زمن قديم اسم سفن الصحراء، فهي كالسفن من حيث حجمها عندما توضع عليها حمولتها، وهي كالسفن في اختراق الآفاق وطول الأسفار. وحين تسير الإبل في الصحراء فوق الرمال فكأنها تعوم فوق بحر متلاطم الأمواج.

سوف يكون عرض موضوعنا هذا طويلًا ومتنوعًا، إذ إنه سوف يتناول الحديث عن الإبل بصفتها مخلوقات مفيدة للإنسان، كان اعتماده عليها كبيرًا في ماضي الزمان ولقد صارت الآن زينة يفخر بها مُلاكها ويتسابقون إلى امتلاك الجيد منها.

إن استعمال الإبل في الركوب ونقل الأحمال في الكويت هو امتداد لاستعمالها القديم، وكما كان الكويتيون يزاولون السفر بالسفن الشراعية في زمنهم القديم، فقد كانوا يستفيدون من قدرة الجمال على التحمل فكانوا يستعملونها في رحلات الصحراء، وكانت عاصمة الكويت تستقبل كثيرًا من القوافل التي عُرفت لتوقفها هنا أماكن محددة مثل الصفاة والمناخ.

كانت الكويت تستفيد من نشاط أصحاب الإبل في النقل الداخلي بين القرى المتعددة، ولاسيما في مجال نقل الخضار من مزارع الجهراء ومنطقة القصور مثل

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠١٢/٥/١٦.

الفنطاس وبوحليفة والفحيحيل وغيرها.. كما كانت تستفيد منهم ومن جمالهم في رحلات الحج السنوية إلى بيت الله الحرام، وهي رحلات لها أهميتها عند المسلمين بعامة. ولها في الكويت دور كبير يثير مشاعر الناس فتهفو نفوسهم إلى أداء هذه الفريضة المهمة، ومما سبق لنا تقديمه في هذا المجال ما يلي:

– يستعد الحاج للسفر بشراء كل الاحتياجات اللازمة له من ملابس إحرام خاصة وأحذية مناسبة ويودع أهله وأصحابه الذين يدعون له بسفر ميسر، وعود حميد، وحج مقبول. وفي الكويت يكون الناس في تطلع لوصول الحجاج من حجهم في أواخر شهر محرم أو أوائل شهر صفر، فهم لا يأتون في وقت واحد محدد لأن ظروف الطريق تحكمهم وتحدد مسيرهم. ولما كان كل حاج مرتبطًا بحملة من الحملات، فإن صاحب الحملة يرسل شخصًا على وجه السرعة ليبشر الأهالي بقرب وصول من معه من الحجاج، ويُسمى هذا الشخص «البشير» الذي ما إن يصل إلى البلاد حتى يحيط به الناس من كل جهة يسألونه ثم يعيدون سؤاله عمن يكون لهم بين الحجاج، ولا يطمئن بال أحدهم إلا بعد أن يذكر له طرفًا من أخبار من حج من أهله أو من أصحابه، وكان الأهالي يخرجون إلى خارج العاصمة في تلهف من أجل لقاء الحجاج والسلام عليهم.

– ولم يكن للعرب المقيمين في الصحراء أو على تخومها غنى عن الاستفادة من الجمال، والكويت كانت ولاتزال تهتم بهذا المخلوق الذي استفاد مواطنوها منه كثيرًا، وقد كان الكويتيون يحجون بواسطة الجمال حتى سنة ١٩٥٤م، وكانت الرحلات على الجمال في الماضي تمتد إلى مناطق بعيدة، وكانت المتاجرة بالجمال في الكويت وفي خارجها من أقوى المتاجرات يحدثنا عن ذلك السيد/ عبدالله بن عبدالعزيز الحميدي في مقابلة تلفزيونية له مع الأستاذ سيف مرزوق الشملان عن قيامه برحلات عديدة إلى مصر والشام من أجل المتاجرة بالإبل، وقد وصف عدداً

من رحلاته التي ابتدأ أول رحلة منها في سنة ١٩١٨، واستمر بعدها بالترحال حتى سنة ١٩٢٢ وكان قد مر بكل من الشام وفلسطين والأردن ومصر ولبنان، وبالمملكة العربية السعودية، ووصف الأسواق التي تباع فيها الجمال في تلك البلاد، ولقد كان هذا الرحالة من البارزين في هذا النوع من التجارة.

لقد سار بنا في هذا الحديث الشائق في أعقاب إحدى تلك الرحلات مبتدئاً بالكويت، حيث كان مقر تجمع القوافل في الموقع الذي فيه منطقة الشامية حالياً، وأخذنا معه مطوِّفاً بكثير من البلدان، فَعَبَرَ فلسطين استطاع الوصول إلى مصر، وفي إمبابة (إحدى ضواحي القاهرة في هذه الأيام) باع ما معه من جمال ثم عاد راجعاً إلى وطنه، عن طريق فلسطين التي لم تكن قد احتلت آنذاك.

في يوم الجمعة الموافق للرابع عشر من شهر إبريل لسنة ١٧٥٨ كانت هناك مفاوضات للقيام برحلة إلى مدينة حلب عن طريق الكويت بواسطة الجمال يقوم بها الدكتور إدوارد آيفز الذي رغب هو ورفاقه في القيام بهذه الرحلة بناء على توصية البارون كنبهاوزن المسؤول عن المستعمرة الهولندية في جزيرة (خَرْج).

– وفيما يتعلق برحلة الدكتور آيفز من الكويت إلى حلب وهي رحلة لم تتم، فقد وردت أخبارها بالتفصيل في كتاب «رحلات آيفز» حين التقى هذا الرجل ورفاقه البارون كنبهاوزن وكانوا ينوون الرحيل إلى مدينة حلب السورية، فنصحهم البارون بالسفر عن طريق الكويت، فطريقها أكثر أمناً لما توفره لقوافلها من حماية، ولكثرة أعداد الجمال الناقلة للمسافرين، وقد ورد في ذلك قوله: «إذا اخترنا اللحاق بهم سيكون ذلك أكثر أمناً، بدلاً من أن تسافروا في قافلة صغيرة، وأضاف: ان الرحلة سوف تستغرق ثلاثين يوماً في الرحيل من القرين (الكويت) إلى حلب، وإن هذه القافلة تتكون من خمسة آلاف جمل، وألف رجل»، ولا يشك أحد في أن هذا الأمر شديد الأهمية؛ فالعدد الذي أشار إليه عدد كبير، وبخاصة فيما يتعلق بتلك الأيام.

ولما كانت الإبل منتشرة في المراعي وهي على الأغلب ذات صفات متماثلة فقد كانت الخشية من ضياعها أو اختلاطها بغيرها كبيرة. لذا فقد عمدت المجموعات التي تملكها إلى تمييزها بوسم تعرف به إبل كل مجموعة، وهذا الوسم هو الذي يدل على مالك الجمل أو الناقة، وقد اختار الشيخ أحمد الجابر الصباح (١٩٢١ – ١٩٥٠) وسماً خاصاً به يسم به رعاة إبله كل حيوان منها، وكان الوسم على شكل البرثن وهو مخلب الطائر. وكان الشيخ معتزاً بهذا الشكل لدرجة أنه أضافه إلى علم الكويت في فترة من الفترات التي مضت.

وللإبل في قديم العاصمة فوائد، فالناس لا غنى لهم عن خدماتها في أكثر من مجال. ومن ذلك ما يلي:

١ – إحضارها الماء من موارده في الشامية وما حولها وبيعه على أصحاب البيوت، ويمتاز الجمل بأنه يحمل عدداً من قِرَب الماء يزيد على ما يحمله الحمار، بل هو ضعف الحمولة، وبذا فإنه وسيلة نقل اقتصادية، إضافة إلى أن الحمير يصعب عليها اجتياز المسافة البعيدة.

٢ – كانت الإبل تحضر نبات العرفج إلى البيوت وهو نبات صحراوي له عدة استعمالات منها أنه وقود صالح، والإبل تحمله على ظهورها بواقع حملين منفصلين فوق الظهر، وكل حمل منها كبير الحجم، ولكنه خفيف الوزن، وكنا نُسمِّي الواحد منهما (بَنَّهْ) بفتح الباء ونون مفتوحة مشدَّدة وهاء ساكنة. وواحدة العرفج تسمى (عرفجة) وكانت شائعة في صحراء الكويت، وعندما يحضرها قائد الجمل فإن الأهالي يقطعون الطرف الأعلى ويسمُّونه (قفاف) فيستعملونه علفًا للماشية، وباقي (العرفجة)، يستعمل وقوداً. ويُجَزّ القفاف في منبت العرفج – أحيانًا – ويبقى الأصل حتى لا ينقطع النبات كما يحدث في الوقت الحاضر. هذا وكان الشيخ أحمد الجابر قد منع في فترة من الفترات اقتلاع العرفج من

جذوره، وأباح قطع القفاف من أعلى الشجيرات. وذلك للحفاظ على هذا النبات البري المزهر الجميل.

استفاد العرب القدماء من إبلهم فائدة كبرى، وكان عليها جُلُّ اعتمادهم في رحلاتهم وتنقلاتهم العادية، وفي حروبهم التي كانت تدور قبل الإسلام بين بعض القبائل العربية ولذا فقد كان للإبل ذكر جلي في الكتاب الكريم وفي حديث الرسول الأمين.

لفت القرآن الكريم أنظار الأمة إلى الإبل، وفي سورة النحل أورد ذكرها تحت اسم: الأنعام فجاء في الآيات (رقم ٥ و٦ و٧): ﴿والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون، وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس، إن ربّكم لرؤوف رحيم﴾.

هذه الصفات الجميلة هي التي جعلت العرب القدماء لا يستطيعون الاستغناء عن الإبل. التي صورها لنا القرآن في أجمل تصوير وذكر فوائدها لنا، ثم اتبع ذلك في موضع آخر هو سورة الغاشية حين بين قدرة الخالق على خلق هذه المخلوقات العظيمة الخلقة فقال سبحانه وتعالى في الآية (رقم ١٧): ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت﴾.

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرفق بالحيوان، وذكر الناقة ونهى عن الإساءة إليها وعن ضربها على وجهها، وكانت له ناقة يؤثرها كثيرًا اسمها: القصواء، وهي التي هاجر عليها إلى المدينة يصحبه سيدنا أبي بكر الصديق.

ولما كانت الإبل ثروة يستفاد منها وتدر على صاحبها كثيرًا من الفوائد، فقد فرض الإسلام على السائمة منها الزكاة والسائمة هي ما ترعى في الصحراء، دون أن يتكبد صاحبها مصاريف إطعامها.

وقد جاء في كتب الفقه أن المالك عليه أن يدفع عن كل خمس من الإبل شاة ثم إذا وصل عددها إلى أكثر من خمس وعشرين وأكثر فإنه يجب عليها من الإبل ما يتناسب مع عددها.

ولكثرة استخدام العرب للإبل، وشدة اهتمامهم بها باعتبارها وسيلة النقل، وباعتبارها ثروة لا يُستغنى عنها فإنهم يعتنون بها غاية العناية، ويفضلونها في الغذاء على أبنائهم. ويكفي ما ذكره القرآن الكريم من فوائد الإبل التي مَن الله تعالى بها على الناس لتعرف مدى أهمية هذا النوع من الأنعام الذي لا غنى عنه حتى اليوم.

ويتردد ذكر الإبل كثيرًا في الشعر العربي القديم، فنجد بعض الشعراء يتحدث عن رحلته على ناقته أو جمله، ونجد آخر يتحدث عن حنين الناقة إلى الديار، وإلى وليدها الصغير ونجد آخر يضع نفسه في موضع الناقة من حيث شعورها بالتعب، والضيق المنبعث عن كثرة أسفارها، وهذا الأخير ورد في تعبير للشاعر المثقب العبدي ضمن قصيدة جاءت في كتاب المفضليات للمفضل الضبي، وكتاب «منتهى الطلب» لمحمد بن المبارك.

مطلع القصيدة:

افاطمُ قبلَ بَينَكِ مَتِّعِيني
ومنعُكِ ما سالتُ كان تبيني
فلا تَعِدي مواعد كاذباتٍ
تَمرُّ بها رياح الصيف دوني

وهي في ثلاثة وأربعين بيتا، ومما قاله عن إحساس الناقة بالجهود المبذولة من قبلها:

إذا ما قمتُ ارحلُها بليلٍ
تَأوّه آهة الرجلِ الحزين

تقول إذا درأت لها وضيني
أهذا دينه أبدًا وديني
أكلُّ الدهر حِلٌّ وارتحالٌ
أما يُبقي عليَّ ولا يقيني

يقول المثقب العبدي إنه إذا قام في الليل ليستعد إلى رحلة جديدة ووضع الرجل على ناقته، وجدها تتأوه كما يتأوه الرجل الحزين، فهي تحس أنه ينوي بعمله هذا ركوبها في رحلة جديدة وكأنها تقول إذا درأت لها أي دفعت لها وضيني (الوضين: ويسمَّى: البطان، وهو مثل الحزام يُشَدُّ به الرَّحْلُ).

- أهذا هو شأنه معي دائمًا؟

- وقوله: دينه أي عادته.

وتستأنف الناقة قائلة: إنني أتعجب لفعله معي، أيريد أن يجعلني أقضي الدهر كله في حل وارتحال، أليس من واجبه أن يبقي على حياته، ويمنحني الوقاية من الأخطار.

وقد ذكر المثقب العبدي في قصيدته هذه الجمال المحملة فشبهها بالسفن فقال:
لمن ظعنٌ تُطالعُ من ضُبيبٍ
فما خرجتْ من الوادي لحينِ
مُررنَ على شرافِ فذاتِ رجلٍ
ونكّبنَ الذرائحَ باليمين
وَهُنَّ كذاك حين قطعن فلْجًا
كأن حمولهنَّ على سفين

إن الشاعر ليرى تلك الظعن وهن سائرات في الصحراء قاطعات للموضع المسمى (فلجا) وهو وادي الباطن المعروف حاليًا وكأن حُمولهنّ على سفن عابرة للبحر.

وقد تحدثنا في كتابنا: «كاظمة في الأدب والتاريخ» عن المواقع التي ذكرها الشاعر، وهي كلها قريبة من كاظمة، ذكرها أبو عبيد البكري في كتابه معجم ما استعجم بقوله: «وهذه كلها مواضع من البحرين إلا فلجا» وهذا الأخير إن لم يكن من البحرين العظمى التي ذكرناها في الكتاب (ص٢٠ وص٢١) فإنه ملاصق لها من ناحية الشمال الغربي، وفي الكتاب بيان عن بعض هذه المواضع من الأفضل أن يعود إليها محب الاطلاع.

وممن ذكر الإبل وشبهها بالسفن الشاعر الجاهلي طرفة بن العبد البكري الذي قال في معلقته:

لخولةَ أطلالٌ ببُرقةِ ثهمدِ
تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليدِ
وقوفًا بها صحبي عليَّ مطيهم
يقولون لا تهلكْ أسىً وتجلّدِ
كأنَّ حدوجَ المالكيّةِ غدوةً
خلايا سفينٍ بالنّواصف من ددِ
عدوليّةٌ أو من سفينِ ابن يامنِ
يجوز بها الملّاح طورًا ويهتدي
يَشُقُّ حَبَابَ الماء حيزومها بها
كما قسم التُّربَ المفايلُ باليدِ

وقد تحدث عن خولة وأطلال مساكنها، وعن حال أصحابه الذين كانوا واقفين على مطيِّهم، ويحاولون تهدئته. ثم أخذ يصف الحدوج (مراكب النساء على الإبل) ووصفها بأنها هي حدوج المالكية المرأة المنسوبة إلى بني مالك بن ضبيعة. وهي

نستشهد به في موضوع الحديث عن الإبل. وهذا الشاعر هو صقر النصافي، الذي يشهد له بذلك ديوانه المطبوع بجمع وترتيب مهلّى مهلّى صقر النصافي، وزيادة وتنقيح خليفة مسلم صقر النصافي. ومما نود ذكره في هذا المجال من شعره أبيات ذكرها في وصف حال إبله التي آذاها المسير، وشدة الحمل، في سفرة طويلة، كانت قبلها قوية ولكنها صارت في نهاية الرحلة (مِسْتِخِلّه) تشكي الضعف وما حل بجسدها من قروح (الدبر).

مـن عـقـب مـا هـي حـمـلـهـا مـا تـمـلـه
تـضـرس عـدايـلـهـا[1] وتمـشـي جـنـاديـب[2]
الـيـوم حـتـى جـرمـهـا مـا تـقـلـه
رحـنـا وخـلـيـنـا بَـعَـضْـهـا بـلا طـيـب
عـقـب الـشـحـم والـريـخ[3] مـثـل الاهـلّـه
استضعفت والـطـق لـحْـق الـعـراقـيـب
اظـهـورهـا مـن شـيـلـهـا مِـسْـتـخـلّـه
واخـفـوفـهـا تشكي الحـفـا والـطـواريـب[4]

وتحدث النصافي عن الفترة التي يجف فيه العشب في الصحراء، وتقل فائدة المراعي التي اعتاد الناس على إرسال إبلهم إليها. وهنا يوجه حديثه إلى أحد أصدقائه وهو سند بن عزيور فيقول:

يـا بـن عـزيـور ويـشْ نـيـة هـل الـنـوق
يـوم إن عـشـب الـبـريـبـست اغـصـونـه
تـحـــدُّروا رعْـايـة الـقـفـر مـن فـوق
تَحَــــدَّروا قـبـل الـظـمـا يـونـسـونـه

(١) تضرس عدايلها: اسنانها من الجانبين.
(٢) تمشي جناديب: تسير بضعف.
(٣) الشحم والريخ: الريخ هو الشبع.
(٤) الطواريب: أسفارها وضربها في الآفاق.

مـا قـصّـروا يـوم أول الـنـبـت رقـروق[1]
واهـل الـضـفـاف ابـيـشـهـم يـعـلـفـونـه

ثم يتساءل:

يـا سـنـد بـشّـرْنـي عـسـى مـا لـهـم عـوق
هـم هـالـسّـنـه هُـمْ وبـن خَـدًّ[2] يـبـونـه
يـبـون مـقـيـاظ[3] الـهـفـاهـيـف[4] والـسـوق
والا الـفـيـاح[5] الـلـي قـراحـنْ[6] غـيـونـه

ولم نتمكن من تقديم المزيد من الاستشهادات من شعر النصافي، وهي استشهادات دالة على ذكره للابل في حالات متعددة. أما معاني ما سبق فهي:

وبعد، فهذه معلومات عامة عن الإبل مستقاة من مجموعة من المصادر، وهي باختصار كما يلي:

- تنقسم الجمال إلى نوعين من حيث الشكل العام أولهما الجمل ذو السنام الواحد، والثاني منهما هو الجمل ذو السنامين وهذا النوع لا يوجد منه في بلادنا، بل هو منتشر في مناطق أخرى بعيدة عنا منها منطقة آسيا الوسطى.

- يعمِّر الجمل حتى تصل مدة حياته ما بين الثلاثين والأربعين سنة، وهو سريع في سيره، سهل الانقياد، قادر على النهوض بحمله الثقيل، وقادر على أن يبرك به على الأرض.

(١) رقروق: نبات صحراوي.
(٢) خد: ارض مستوية.
(٣) مقياظ: اماكن قضاء فترة الصيف.
(٤) الهفاهيف: الأهوية.
(٥) الفياح: الأراضي التي فيها ارتفاع قليل.
(٦) قراحن عيونه: عيون مائة عذبة.

- للإبل أسماء خاصة يعرف بها الجيِّد منها، وتتميز بعض الأنواع بمميزات خاصة كجمال المنظر والارتفاع والسرعة والقدرة على تحمل المصاعب. وكل فترة من فترات حياة الجمل لها اسم خاص وعلى سبيل المثال فإن من عمره منها يقل عن ستة أشهر ولا زال رضيعًا يسمى: الحوار، وهذه كلمة عربية فصيحة.

- هناك الكثير من المعلومات الخاصة بالإبل لا سبيل إلى ذكرها هنا وذلك لتعددها، وللحاجة إلى شرحها طويلًا.

- نحن نرى الإبل في الصحراء أو سوق الإبل فنظنها شكلًا واحدًا يتشابه في كل شيء، نعم هناك اختلاف في الألوان واضح للجميع، ولكن الاختلاف الآخر الذي يكون في الهيئة والنوع صعب الإدراك إلا لمن هو خبير في شؤون الإبل.

خذ مثلًا نوعًا من الإبل يطلق عليه اسم: المجاهيم، وهو من الإبل التي يغلب نوعها على إبل قبائل الدواسر والقحاطين وبني مُرَّة. هذا النوع نحسبه واحداً فإن اللون الأسود هو الغالب عليه، ولكن هذا السواد يتفرع إلى ثلاثة ألوان أخرى بحسب درجاته فهناك الصهباء، والملحاد، والورقاء، وهذا النوع مشهور بحجمه الكبير وغزارة إنتاجه من الحليب وهو من مشهور أنواع الإبل.

- ذكرت إضافة إلى ذلك معلومات عن ألوان الإبل المجاهيم فقيل إنها ستة ألوان، وهذا - والحق يقال - دليل على التنوع في الإبل، من حيث الألوان فما دام نوع واحد منها له ستة ألوان فما بالك بباقي الأنواع والسلالات.

- للإبل الأصيلة سلالات معروفة، يحرص ملاك الإبل على الاحتفاظ بها، وعلى صيانة ما يملكون منها فلا تختلط بغيرها من الأنواع غير الأصيلة، ولكل ذلك فان صاحب (الذلول) النجيبة يشملها وقت الهياج بقطعة من الصوف تسمى شملة أو شمالة تشق من وسطها ويدخل المالك ذيل الذلول من ذلك الشق حتى لا يقدم جمل غير معروف النسب على تلقيحها. وذلك من أجل حفظ الذلول.

- ولا شك في أن المعرفة التامة بأنواع الإبل وأصولها وأنسابها، والحرص على كل ذلك من أهم ما يحفظ النوع، ومن أهم ما يعطي هذا الحيوان النبيل قيمته. وقد وردت عبارات تدل على ذلك في دراسات جامعية كان نص بعضها: «يحرص العرب على معرفة سلالات الإبل وأصولها لارتباطها الوثيق بحياتهم اليومية منذ القدم، وقد عنوا عناية خاصة بدقة التمحيص عن نشأتها، وقاموا بنسبتها إلى أصول ومناطق معروفة عندهم».

- هناك العديد من الدراسات الخاصة بالإبل تتناول تاريخها وأنواعها وسلالاتها وألوانها، وصفاتها الخلقية. وطرق تعامل أصحابها معها، وتشتمل هذه الدراسات على تفصيلات كثيرة ومن أجل معرفتها فإنه لابد من العودة إلى تلك الدراسات في مظانها حيث نجد التوسع في تقديم المعلومات بالإضافة إلى كافة ما يتعلق بشؤون الإبل.

- كان حديثنا قاصراً على الجمل العربي الذي يعيش بيننا، وهو ذو سنام واحد أما الجمل ذو السنامين الذي يعيش في منطقة آسيا الوسطى فلم نتطرق إليه لعدم وجوده في بيئتنا.

تستحق الإبل كل ما قيل عنها من وصف ومن أشعار وتستحق العناية الكبرى التي يبذلها لها ملاكها وهي عناية تبدأ بإطعامها واختيار أجود المراعي لها، والحرص على توالدها رعاية أقرب ما تكون بالرعاية التي تبذل للإنسان. وتنتهي بحفظ المعلومات الكاملة عنها من حيث سلالاتها وأنواعها واختلاف ألوانها وأنسابها وكل ما وجدناه قد كتب عن الجمال يدلنا على أنها ذات مكانة خاصة لدى أبناء البادية بالذات وهي جديرة بذلك فالفوائد التي جناها آباؤنا منها كثيرة، ويكفي أن يقال عن الجمل أنه سفينة الصحراء.

****

ملحاق خير

نرى أنه من الأفضل أن نورد هنا شيئاً لطيفاً يتعلق بالإبل. وهذا الشيء اللطيف عبارة عن أبيات ورد فيها ذكر هذه الدابة في مجال من مجالات الغزل، فمن المعروف أن الإبل كانت وسيلة من وسائل الترحال، والترحال علامة من علامات الفراق الذي يبعد المحب عن حبيبه، ويترك له لوعة في الفؤاد وحسرة في النفس.

تتكون الأبيات من فقرتين: عدد أبيات أولاهما خمسة وعدد أبيات الثانية أربعة.

يتحدث الشاعر في الأولى عن ركب أناخوا إبلهم قبيل انبلاج الصباح، ثم حمَّلوها، وأركبوا نساءهم عليها، ثم يصف إحداهن وهي تزيح ستار مركبها من على ظهر الجمل فترنو إليه، ثم تُوَدِّعه مشيرة ببنانها إليه، في الوقت الذي كان يدعو فيه على هذا الجمل المفرق بينهما. ثم ينادي حادي الإبل قائلا له: قف قليلاً كي أودع من أحب فإن في ترحالك أجلي، وأبلغهم أنني على العهد مازلت؛ كان يقول:

لما أناخوا قُبيلَ الصُّبحِ عيسهُمُ
وَحَمَّلُوها وسارت بالدُّمَى الإبِلُ
وقلّبتْ من خلال السَّجفِ ناظِرَها
ترنو إليَّ ودمعُ العين ينهملُ
وودّعت ببنانٍ زانَهُ عَنَمُ
ناديتُ لا حَمَلَتْ رجلاكَ يا جملُ

يا حادي العيس عرِّجْ كي أوَدِّعهم
يا حادي العيس في تِرحالكَ الأجَلُ
إني على العهد لم أنقُضْ مَوَدَّتَهُمْ
يا ليت شعري لطُول العهدِ ما فعلوا

(عيسهُمْ: إبلهم، الدمى: يقصد النساء الجميلات شبههنّ بالتماثيل، السجف: الستر، العنم: شجرة حمراء، يُشَبَّهُ بها البنان المخضوب).

وفي الفقرة الثانية ما يشبه القصة، فإن الشاعر يتحدث عن مروره بدير من الديارات التي يتعبد فيها الرهبان، كان أحدهم يدق الناقوس، فوجدها فرصة لكي يسأله: هل مرت بك الإبل؟

لمّا علمتُ بأن القومَ قد رحلوا
وراهبُ الدير بالناقوس منشغلُ
شبكتُ عشري على راسي وقلت لهُ
يا راهبَ الدير هل مرَّت بك الابلُ؟
فحَنَّ لي وبكا وأنَّ لي ورثى
وقال لي: يا فتى ضاقت بك الحِيَلُ
إن البدورَ اللواتي جئتَ تطلبُها
بالأمسِ كانوا هنا واليومَ قد رحلوا

(عشري: أصابع يديَّ العشر).

تحدث الشاعر عن محادثته مع راهب الدير الذي حَنَّ له وبكى، وقال له: لا تكثر الشكوى، فأنت لا تستطيع أن تعمل شيئًا من أجل إيجاد حلٍّ لمشكلتك هذه، فقد ضاقت بك الحيل، وانسدت عليك المسالك، إن البدور اللواتي أتيتني لتسأل عنهن يدفعك الشوق والتلهف عليهنَّ؛ ذهبن إلى مكان بعيد، لقد كنَّ هنا

بالأمس فقط، ولكنهن اليوم في مكان ناء عنا وعنك. وما عليك إلا الصبر على مأساتك القاسية.

غنيٌّ عن الذكر أن كل فقرة من الفقرتين اللتين أوردناهما لشاعر مستقل، يتناول كل منهما موضوعه بصورة مختلفة تناول أولهما وصف الحالة التي كان عليها الراحلون، ثم تحدث عن محبوبته حديث المتألم للفراق الذي جعله يدعو على الجمل بألاَّ تحمله رجلاه (ناديت لا حملت رجلاك يا جمل)، أما الشاعر الثاني فكان حديثه مرتبطًا بما قاله له راهب الدير الذي رآه ساهماً ضيق البال قد شبك أصابعه فوق رأسه مفكراً في حاله.

جزء من هذه الأبيات ورد كثيراً في الغناء على طريقة المقامات المشهورة. وقد جاء الفنان الكبير ناظم الغزالي إلى الكويت قديماً لكي يشارك في احتفالات العيد الوطني التي كانت تقيمها وزارة الإعلام فغنى شيئاً منها مما أسعد الناس، وألهب مشاعرهم، وجعلهم يُشعِلونَ المكان تصفيقاً وهتافاً.

****

أكرموا عَمَّتَكم النخلة..(١)

النخلة شجرة مباركة، عاشت على إنتاجها أجيال عربية كثيرة. وحرص الأولون على غرسها والعناية بها، فقد كفتهم المجاعات، وصدَّت عنهم غائلة الجوع. ولفرط حبهم لها فقد ذكروها في أحاديثهم وأشعارهم وأخبارهم، وسموا عليها بعض المناطق في جزيرة العرب إذا كانت هذه المناطق مما يكثر فيها النخل.

أما عنوان هذا المقال فهو إيماء إلى قول شاع عن هذه الشجرة المباركة، فقد كنا نسمع منذ زمن أن النخلة عمتنا بسبب خلقها من بقية الطينة التي خلق الله منها أبو البشر آدم عليه السلام. وقد أكد علماء الحديث أن هذا القول غير وارد عن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ولكنه قول متوارث بين الناس يدل - فقط - على حبهم للنخلة، ولا يدل على أنه حديث ثابت وقد جاء تفنيد ذلك في كتاب «مختصر المقاصد الحسنة» للزرقاني ونحن نفهم منه الآن مكانة النخلة عند أسلافنا، وحرصهم على العناية بها.

وهذا لا يمنع أن يكون لها ذكر في حديث الرسول الكريم فقد كانت المدينة المنورة أرض نخيل وكانت حياة الناس تعتمد على التمور، وتستفيد من النخل في كل ما يمكن الاستفادة به منها، وكانت هناك علاقات بين الناس وبخاصة المشتغلين في زراعة هذه الشجرة وكانوا يعرضون قضاياهم على النبي فيحكم بينهم، ويبين لهم من خلال حكمه أهمية هذه الشجرة، أليس هو القائل: «إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها»؟.

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠١٢/٥/٢٣.

(الفسيلة أول ما يُقتلع من صغار النخل للغرس).

وورد ذكر النخل كثيراً في القرآن الكريم بلغ إحدى وعشرين مرة منها إحدى عشرة في صيغة واحدة هي: النخل. فقد جاء في سورة (ق)، الآية رقم ١٠٠ قوله تعالى: ﴿والنخل باسقات لها طلع نضيد﴾. وجاءت صيغة (نخلا) مرة واحدة في قوله الكريم: ﴿فانبتنا فيها حبًّا وعنباً وقضباً وزيتونًا ونخلا﴾ وهي الآيات رقم ٢٧ و٢٨ و٢٩ من سورة عبس.

أما صيغة النخلة فقد وردت مرتين إحداهما في الآية رقم ٢٥ من سورة مريم، وهي: ﴿وَهُزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رُطباً جنيًّا﴾.

وأما صيغة (نخيل) فقد جاءت في سبعة مواضع، منها ما ورد في سورة النحل، بالآية رقم ١١ حيث يقول الله عز وجل: ﴿يُنبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب، ومن كل الثمرات، إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون﴾.

ومن الآيات الكريمة ما يدلنا على قدم النخيل في هذه الدنيا. ونحن نلجأ هنا إلى ثلاثة أدلة من القرآن الكريم مما فيه إثبات ذلك. وهي:

أولًا: ما ورد في سورة الكهف (الآية رقم ٣٢) ونصُّها. ﴿واضرب لهم مثلًا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل، وجعلنا بينهما زرعا﴾.

وقد جاء في ذكر سبب نزول هذه الآية أمران أحدهما أنها نزلت في رجلين من قريش، والرواية الثانية أنها نزلت في رجلين من بني إسرائيل أمرهما قديم جدًّا، وبالتالي فإن النخل المذكور في الآية الكريمة قديم بقدمهما.

ثانيًا: نعود إلى الآية التي سبق أن أوردناها وهي التي وردت في سورة مريم (الآية رقم ٢٥)، وهي قوله تعالى: ﴿وَهُزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبًا جنيا» وهي تدل على أن النخل كان موجوداً قبل ولادة المسيح عليه السلام، بدليل

وجود الرطب على النخلة التي جلست تحتها والدته، وإذا كنا اليوم في سنة ٢٠١٢م فهذه الآية تدلنا على تاريخ ذلك الزمان.

ثالثًا: إنه في العصر الذي عاش فيه سيدنا موسى، وهو عصر يسبق ميلاد المسيح بعدد كبير من السنين، كان النخل في مصر معروفًا، وقد ورد ذكره ضمن تهديد فرعون للسحرة الذين جمعهم آملاً في تغلبهم على الآيات التي جاء بها النبي موسى، وعندما فشلوا ثم آمنوا بما جاء به هذا النبي قال لهم فرعون: ﴿فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف، ولأصلبنكم في جذوع النخل﴾. (سورة طه، الآية رقم ٧١).

ويكفي ما ذكرناه للدلالة على أقدمية النخلة وعلى القيمة التي تتمتع بها وعلى ما قدمته للإنسانية منذ عرفها الزراع وصاروا يستثمرونها ويمتعون أنفسهم والآخرين بما تنتج من فاخر الطعام.

والكويت كباقي المواقع في جزيرة العرب لها اهتمام كبير بالنخيل بدأ مبكرًا في مناطق معينة ثم تطورت زراعته إلى الاتساع، وتنوعت أصناف التمور المنتجة بحسب تنوع سلالات النخيل المزروعة. ولا عجب في أن تهتم الكويت بالنخيل فقد عرفتها منذ القدم حين كانت جزءاً من البحرين العظمى، وكانت البحرين مقراً لقبيلة عبدالقيس التي كانت تهتم بزراعة النخيل وإنتاج التمور مثلها مثل هجر المجاورة لها وهي التي يضرب المثل بكميات التمور فيها حتى قيل: فلان «كناقل التمر إلى هجر»، حين يأتي شخص إلى قوم بشيء عندهم منه كثير.

ولكي نعرف أن زراعة النخيل كانت قديمة في الكويت فإننا نعود هنا إلى مرجعين مهمين أشارا إلى هذا بإشارات واضحة، وذلك كما يلي:

ذكر هارولد ديكسون أنه عندما كان يؤلف كتابه: «الكويت وجاراتها» الذي طبع في سنة ١٩٥٦م، فإنه قد وجد أن قرية الفنطاس آنذاك كانت تضم ما يقرب من ألف نخلة.

وذكر لوريمر في مستهل القرن العشرين أن الفحيحيل كانت تضم مائتي نخلة نامية نمواً جيدًا. وذكر - أيضاً - أنه في قرية الشعيبة مائة وخمسين نخلة وهو العدد الذي ذكره ديكسون فيما بعد، دون أن يزيد عليه.

وفي السنوات الأولى من القرن العشرين كان مجمل النخيل في (الجهراء) ألفي نخلة مثمرة. هكذا قال ديكسون الذي نقل حديثه عن إنتاج هذا الموقع الزراعي من النخيل نقلاً دقيقاً عن لوريمر. دون أن يراعي الزيادة التي كان لابد منها في أعداد النخيل منذ ألّف هذا الأخير كتابه «دليل الخليج» حتى إصدار كتاب «الكويت وجاراتها» لديكسون في سنة ١٩٥٦م.

من المواقع التي ارتبط اسمها بالنخلة موقع معروف، يقع في شرقي الجهراء على يمين الطريق المؤدي إلى الصَّبِّيَّة وهو المسمى «الخويسات». أعرف هذا الموقع منذ مدة طويلة، واذكر أنني وأسرتي عندما نذهب إلى الجهراء فلا بد وأن نمضي يوماً في هذا المكان على سبيل الترويح، والخويسات، وتجمع - أيضًا - على: خيس، ومفردها خيسة. والخيسة كما رأيتها هناك مجموعة من النخيل صغير الحجم مرتبطة بالأرض لا جذع لها (ساق) وتكون ملتفة بحيث تتكون من كل عدة نخلات خيسة.

وفي الموقع المذكور عدة مجموعات من هذا النوع وبالقرب منها مجموعة آبار قليلة العمق جدًّا وماؤها مالح لا يستطيع المرء ولا تستطيع المواشي شربه، ويبدو أن هذه الأغراس والآبار القائمة إلى جوارها قد وجدت في موقعها هذا من قديم الزمان. حتى صارت كلمة (الخويسات) تدل على اسم موقع وارد في خريطة الكويت التي أصدرتها دائرة معارف الكويت في سنة ١٩٥٨م، وكان من المساهمين في صنعها الأستاذ أحمد البشر الرومي.

وليست تسمية الخيس والخويسات تسمية غريبة على لغتنا العربية الفصحى: بل هي كلمة لها أصولها، وقد بين هذه الأصول عدد من علماء اللغة ممن ذكرهم

ابن منظور في كتابه «لسان العرب» ولقد جاء في مادة «خَيَسَ» من هذا الكتاب ما يمكن إجماله فيما يلي:

جاء في بداية المادة أن لفظ (خاس) بمعنى تغير لونه وصارت له ريحة كريهة. وهو لفظ مستعمل في لهجتنا فيقال: خاس اللحم، ويقال: لحم خايس.

أما اللفظ الذي يعنينا فقد جاء عنه:

- «والخيسة الشجر الكثيف الملتف».

- «الخيس والخيسة المجتمع من كل شجر».

- «هو الملتف من القصب والأشاء والنخل».

(الأشاء: نوع من النبات)

- «والخيس: ما تجمَّع في أصول النخلة مع الأرض».

فهذه الأوصاف تنطبق على الخويسات التي ذكرنا وجودها في شرقي الجهراء فكل خيسة منها عبارة عن نخيل صغار أصولها في الأرض وفروعها ملتفة.

لا يخفى على أحد أن إنتاج النخيل من التمور متنوع بصورة واضحة. وأنت إذا دخلت إلى المواقع التي تباع فيها هذه المادة في سوق الخضرة أو في محلات الشويخ المشهورة بهذا العمل وجدت أعدادًا كبيرة من المحلات المتخصصة ببيع التمور وكلها يسابق بعضه بعضًا من أجل تقديم أفضل ما يحصل عليه من الموردين، وتقديم أوسع تشكيلة من الأنواع التي يسعى الناس إلى شرائها.

في القديم كنا نعرف الرطب والتمر الذي يأتي من الجهراء وهو نوع يشبه النوع المشهور المسمَّى (السعمران) ثم بدأت الأنواع الأخرى تتوافد شيئًا فشيئًا فعرفنا من ذلك (الحلاوي) وعرفنا (البريم) و(الأشقر) و(الفرسي) وأنواعًا أخرى

كثيرة، حتى هَلَّ علينا (البرحي) وهو سيد التمور في الوقت الحاضر لا يقلل من قيمته وجود أصناف أخرى أشد حلاوة وأكبر حجمًا مثل السكَّري. وقد انتشرت أغراس البرحي بالكويت انتشارًا واسعًا في الوقت الحاضر حتى لنكاد أن نكتفي بما ينتجه نخيلنا من مختلف الأصناف.

اهتم العرب القدماء بالنخلة، فزرعوها في أماكن عدة من جزيرتهم، وكثرت الواحات التي يستظل أهلها بالنخيل، ويتخذون إنتاجه طعامًا لهم، وربما باعوا منه لمن أرضه ليست بذات نخل. ومن أجل هذه الواحات تعددت المناطق التي سميت باسم النخل حتى عدَّ منها ياقوت الحموي في كتابه معجم البلدان ما لا يقل عن ثمانية مواقع وهي مواقع تضاف إلى عدد كبير من القرى والمدن التي يهتم أهلها بالنخيل. ومما يستحسن هنا أن نورد شعرًا قاله جعفر بن الزبير بن العوام جاء فيه ذكر النخل المجاور لقرية (أمج) وهي قرية على جانب وادٍ عظيم بها سوق وزراعة ومن زراعاتها النخل:

هل في ادِّكار الحبيب من حرجِ
أم هل لِهَمِّ الفؤاد من فرجِ
أم كيف انسَى مسيرنا حُرُما
يوم حللنا بالنخل من أمج
يوم يقول الرسول قد اذنت
فأتِ على غير رقبةٍ فلج
اقبلتُ اهوي إلى رحالهمُ
أُهدى إليها بريحها الأرجِ

ولا أريد الاستطراد أكثر من ذلك، ولو فعلت لذكرت ما جاء عن حميد الأمجي (من أمج) الذي كانت له قصة طريفة مع الخليفة عمر بن عبدالعزيز بسبب أبيات قالها فهو شاعر له شعر جيد. ولكن من أراد الاطلاع على حكايته فهي في مادة

(أمج) في كتاب معجم ما استعجم للبكري، وفي غيره من المراجع القديمة فقصته هذه مشهورة.

أما جعفر بن الزبير الذي أوردنا أبياته الأربعة، فقد جاء فيها أنه لا حرج من تذكُّر الحبيب، وَتَساءل يقول هل من فرج للهم الذي يعتري الفؤاد؟ وهل نستطيع أن ننسى مسيرنا إلى أن حللنا في موضع النخل النامي في (أمج). ثم يتحدث عن مغامرته حين أرسل رسولًا إلى من يحب فجاءه بالبشرى، وهي أنها قد اذنت له بلقائها وأنه يستطيع أن يذهب إليها دون أن يواجه من يراقبه، ثم يُضيف: لقد أقبلت عليهم مسرعًا إلى مقر رحالهم يهديني إليها ريحها الأرج الطيب، فأعرف طريقي، لكي أسير فيه دون تردد.

ووصف عبدالرحمن الداخل الأموي الأندلسي نخلة مغتربة في ديار الأندلس، وذلك حين طاف بالرصافة الأندلسية التي أسسها فور وصوله إلى تلك البلاد. ولقد كان سعيدًا بمناظر الزروع والمباني ملتفتًا إلى تلك النخلة الباسقة التي نمت في مكان غير مكانها، وبلاد غير بلادها، فكان عجبه لذلك شديداً أثار في نفسه أشواقه إلى وطنه الذي جاء منه، فقال:

تبدَّت لنا وسْطَ الرصافةِ نخلةٌ
تناءت بارض الغرب عن بلد النخلِ
فقلت شبيهي في التغرب والنوى
وطول التنائي عن بنيَّ وعن اهلي
نشأتِ بارض انتِ فيها غريبةُ
فمثلك في الإقصاء والمنتأى مثلي
سقتكِ غوادي المزن من صوبها الذي
يسحُّ ويستمري السماكين بالوبلِ

وإن دلت هذه الأبيات على شيء فإنها تدل على محبة العرب الأوائل للنخلة، واعتبارهم لها جزءاً من تراثهم، ودليلاً على مواطنهم. وذلك غير مستغرب فقد كان

لها دور كبير في حياتهم ففيها الجمال والظل والمآكل وكل ما يدفعهم إلى محبتها والحرص على إكثارها.

والرصافة اسم يطلق على عدة مواضع منها ما هو في الحجاز ومنها ما هو في الشام وغيرهما. وقد ذكر ياقوت الحموي في كتابه «معجم البلدان» جميع الأماكن التي اسمها «الرصافة» فكان منها رصافة قرطبة بالأندلس وذكر أنها مدينة أنشأها عبدالرحمن بن معاوية ابن هشام بن عبدالملك بن مروان، وأن هذا هو أول من ملك الأندلس من الأمويين بعد زوال ملكهم في المشرق. وقد أنشأ هذه المدينة وسماها «الرصافة» تشبيها منه لها برصافة الشام.

وعبدالرحمن بن معاوية هو الملقب بعبدالرحمن الداخل، وصقر قريش ولد في سنة ٧٣١م وتوفي في سنة ٧٨٨م. وهو رجل من العظمة بمكان فقد ولد في دمشق وعاش يتيمًا في نشأته، وكان خروجه إلى الأندلس واستيلاؤه عليها بعد سقوط الدولة الأموية ملحمة من الملاحم العربية الشهيرة وقد نال الإعجاب حتى من الخليفة العباسي المقصور وهو الذي أطلق عليه لقب: صقر قريش.

وممن ذكر النخل في شعره الحارث بن خالد المخزومي. وهو شاعر من شعراء صدر الإسلام له ديوان مطبوع يحتوي على عدد قليل من القصائد والمقطّعات. وفي هذا الديوان أبيات لطيفة يقارن فيها بين موضعيه في الحجاز والشام ويتحدث عن نفسه مبينًا أنه يتميز بالكتمان بحيث لا ينال أحد مكنونه. كما يتميز بالوفاء والإخلاص بحيث لا يزيل بُعْدُ دار من يحب ما في قلبه من المودة:

القصرُ فالنخل فالجَمَّاءُ بينهما
أشهىَ إلى القلب من أبواب جيرونِ
إلى البلاط فما حازت قرائنهُ
دورٌ نزحنَ عن الفحشاء والهون
قد تكتمُ الناسُ أسراراً وأعلَمُها
ولا ينالونَ طولَ الدهر مكنوني

لا يُذهب الودُّ مني بُعْدُ دارهمُ
ولا تَطاوُلُ هذا الدهر يُسلِّيني

الأبيات تضم ذكر عدد من الأماكن التي عاش فيها وفضلها على دمشق: من أبواب جيرون، والنخل في تلك الأنحاء وقد فضله كما فضَّل غيره من المواضع على كل ما في الشام.

وجاء ذكر النخيل في الشعر الحديث مرارًا، وكان لنا أن نطرب لقصيدة رائعة صاغها الشاعر محمود حسن إسماعيل ولحنها وغناها الموسيقار محمد عبدالوهاب، وقد تضمنت اسم هذه الشجرة الجميلة. والقصيدة هي: «النهر الخالد».

ولسنا في حاجة إلى التحدث عن الرجلين فالموسيقار عبدالوهاب مشهور، ومذكور على كل لسان، والأستاذ محمود حسن إسماعيل شعره يردده محبو الشعر، وقد كتبنا عن هذا الشاعر المبدع الصديق، مقالاً وافيًا ضمن مقالات «الأزمنة والأمكنة» التي نشرتها جريدة «الوطن» فيما سبق.

عنوان الشعر المغنَّى: «النهر الخالد» وهو مشهور بذلك كثيرًا، ولكن اسمه في ديوان الشاعر هو: «النيل» وقد آثر الفنان عبدالوهاب أن يغيِّر هذا الاسم حتى لا يتشابه النشيد مع نشيد آخر سابق عليه.

يبدأ الشاعر حديثه عن النيل بقوله:

مسافر زادُه الخيالُ والسحر، والعطر، والظلالُ
ظمآن والخمر في يديه والحب، والفن، والجمالُ
شابت على أرضه الليالي وَضَيَّعت عمرها الجِبالُ

ثم يفيض الشاعر بحديثه عن هذا النهر الخالد قائلًا إنه لم يزل منذ ظهر إلى الوجود وهو يطلب الديار ويجوس خلالها ويسأل الليل والنهار عن الذين مضوا ومر عليهم أخيرًا فلم يجدهم، وهم آباء الذين هم اليوم يهيمون من حوله وكأنهم

سكارى، ويتطلعون إلى سره الرهيب، وإلى موجه التائه الذي يجعل الشاعر يقول: «يا نيل يا ساحر الغيوب» ويردد وهو يكاد يتغزل بهذا النهر فيقول:

آه علـى حُـلـمـك العـجـيـب
والمـوجُ نـعـسـانُ فـي المـغـيـب
يـا نـيـل.. يـا سـاحـر الـغـيـوب

ونأتي هنا إلى السبب الذي دعانا إلى ذكر هذه القصيدة الأغنية.

محمود حسن إسماعيل فنان مفكر، وهو عندما يفكر في شيء ما، نراه يتخيل خيالات قد يغيب ذكرها عن كثيرين من الناس، فهو جالس على شاطئ النيل، يستمع إلى حفيف أوراق النخيل وقد حركها الهواء فكأنه يوحي لها بشيء لم يعرفه الشاعر الذي أصبح ينظر إلى الطير السارح هناك فلا يدري أهو مستغرق في التسبيح، أم منشغل بالغناء وشرح لواعج الحب للخمائل المنتشرة هناك. وهذه الأغصان المتدلية على ماء النهر الجاري أهي أغصان حقًّا؟ أم صبايا فاتنات شربن من خمرة الأصيل:

سـمـعـت فـي شـطـك الجـمـيـلِ
مـا قـالـت الـريـح لـلـنـخـيـلِ
يُـسَـبِّـح الـطـيـر أم يُـغـنّـي
ويـشـرح الحـب لـلـخـمـيـل
واغـصُـنٌ تـلـك أم صـبـايـا
شـربـنَ مـن خـمـرةِ الأصـيـل

هذا الذي ذكرناه من قصيدة الشاعر الذي ذاعت باسمها الجديد: «النهر الخالد» فيه الدليل على شاعرية محمود حسن إسماعيل ومقدرته الفذة، وكان قد أمتعنا كثيراً بوجوده بيننا في الكويت فكان زينة مجلسنا، وعطر لقاءاتنا.

في اتجاه آخر يتعلق بالنخلة وبإنتاجها من التمر، فإن هناك نوعاً مصنَّعاً منه لايزال معروضًا في الأسواق، وهو ما يُطلق عليه اسم (السلوق)، وهذا نوع يتم

اختياره قبل أن يصير تمراً، ومن ثم يوضع في ماء مغلي، ثم ينزع منه الماء ويجفف، وعند ذاك يصير يابساً، ولكن بعض الناس يصنعون منه نوعاً من المربّى، وهو في الوقت نفسه هدية للصغار كانوا يفرحون بها في وقت لم تصلهم فيه هذه الأنواع من الحلويات التي نراها الآن في كل مكان.

وضمن هذا الاتجاه فإن الأهالي- كانوا ولا يزالون- يصنعون أنواعاً من الحلويات مستخدمين التمر في صنعها ومن تلك الأنواع ما يلي:

- الخلاصة: وتتكون من الزبد والدقيق والتمر وشيء من مسحوق الهيل. ويبدأ عمل هذا النوع بتسخين الزبد وإضافة الطحين مع تقليبه حتى يَحمرّ، ثم يضاف التمر بعد تنظيفه وإزالة الشوائب منه، وبعد فترة وجيزة يضاف مسحوق الهيل ثم ترفع (الخلاصة) من على النار.

- البثيث: وهو نوع من الحلوى التي يدخل التمر في صناعتها بل هو عنصر أساسيٌّ من عناصرها. ويتكون البثيث من الطحين، والتمر الذي يتم تنظيفه جيداً، وشيء من الزبد والسمن، وهيل مطحون.

ويتم صنعه بتقطيع التمر بواسطة السكين إلى قطع صغيرة، ثم يحمَّر الدقيق بوضعه على النار مع التقليب، ويضاف إليه بعد ذلك التمر الذي سبق إعداده بالتنظيف والتقطيع، ويستمر تقليب هذا المقدار حتى يصير التمر لينا بسبب حرارة الطحين، وعند هذا الحد يرفع عن النار ويقدم للأكل.

- الرانكينة: وهي تمر أو رطب ينظف جيداً ثم يوضع في إناء مسطَّح. ولكي يتم عمل هذا النوع من الحلوى فإن الراغب في ذلك يضع مقداراً من الزبد مع طحين على النار ثم يقلب الطحين بالزبد حتى يصير لونه أحمر ويتم التقليب بملعقة يُستحسن أن تكون من الخشب. ثم يضاف شيء من الهيل المطحون. وبعد أن يتكون هذا الخليط الثلاثي يُصَبُّ على التمر الذي سبق وضعه في الإناء.

تمر معسَّل: يقبل الناس كثيراً على هذا النوع لحلاوته وبساطة صنعه، فهو لا يتعدى وضع الدبس وقليل من السمسم على تمر نظيف، وتوضع هذه الخلطة فوق نارٍ هادئة، ثم تقدَّم.

لمعرفة المزيد اقرأ كتاب: «أكلات كويتية» للأستاذة فاطمة حسين ففيه فوائد كثيرة.

وقبل أن ننهي مقالنا هذا فإننا نجد أنه من الواجب علينا أن نذكر رجلين من أبناء الكويت كان لهما أثر في تنمية زراعة النخيل في بلادنا في الوقت الحاضر. وكان لهما اهتمام بالتوعية وبالعمل وبنصح أصحاب هذا النوع من الزراعات مما أفاد عدداً كبيراً من الناس، وعاد بالنتائج الطيبة في مجال النخيل والتمور على حد سواء.

أولهما هو الأخ العزيز يوسف بن محمد النصف، وكان قد بدأ اهتمامه بتوعية أصحاب النخيل منذ مدة طويلة عن طريق الكتابة الصحافية الموجزة التي تجمع النصح في كلمات يسيرة وتوصل المنتج إلى ما يريد معرفته بأقصر طريق. ثم إنه عندما وجد نتائج ما قام بكتابته وتقديمه للمهتمين بالنخيل أصدر كتابًا مفيدًا أطلق عليه عنوان «نخلتك» والاسم في حد ذاته يوحي بالارتباط بين الإنسان والنخلة، ويدل على ما تستحقه هذه الشجرة المباركة من رعاية وعناية من أجل المحافظة عليها، والتوصُّل إلى الجودة في إنتاجها.

في يدي الآن الطبعة السادسة من الكتاب، وهذا العدد من الطبعات يدل على مدى اهتمام الناس به. والقيمة التي يتمتع بها. وقد أضاف أبو عمر فضلًا حين جعل الكتاب يوزع مجانًا لا يأخذ عليه مقابلًا ماديًّا أبدًا منذ بدأ الطبعة الأولى في سنة ١٩٨٨م. ويتحدث الكتاب حديثًا عامًا عن النخل وعن ورود ذكره في القرآن الكريم والحديث الشريف ثم يورد تاريخ النخيل في الكويت، وأخبار النخيل المملوك للكويتيين في الخارج، ثم تحدث عن النخلة ودورها في الأمن الغذائي، مبينًا الطرق

الكفيلة بحسن نموها، وإكثارها، مع بيان وسائل حمايتها. وقد توسع كثيراً في الحديث عن هذه الشجرة كالذي ذكره عن أصناف النخيل وطريق حمايته من الأوبئة، وتحدث عن أمور كثيرة في هذا المجال لا يلم بها إلا واحد مُتقن مهتم بهذا العمل، صرف كثيراً من وقته من أجل بلوغ الغاية.

أما الرجل الثاني فهو الأخ العزيز عبداللطيف أحمد الرويشد، وقد ارتبط بالنخيل ارتباطًا شديداً، وصار يعرف كافة أنواعه، والطيب منه والرديء. ومواعيد إكثاره، وكيفية غرسه، وقد نال القدرة على علاج أمراض النخيل، وعلى إجابة الناس على أسئلتهم. ولذا فقد اتخذ من هذا المجال عملًا تفرغ له، وأصبح نافعًا لكل من يلجأ إليه طالباً منه متابعة ما لديه من نخيل، وذلك عن طريق الاشتراك السنوي معه مما خفف كثيراً من الأعباء عن مُحبِّي النخيل.

إنني لا يمكن أن أنسى هذين الرجلين العزيزين على نفسي، وأن أشكر لهما جهودهما المبذولة لشجرة النخيل مؤكداً أن النجاح الكبير الحالي في مجال زراعتها إنما يعود في البداية إليهما فقد بدأ بهما طريق العمل. جزاهما الله خيراً.

وفي الختام فإنه لا يفوتني أن أذكر هنا أن عددًا كبيرًا من المصورات المرفقة مع هذا المقال قد نقلتها من كتاب «نخلتك» فقد وضع فيه أبو عمر من الصور الموضحة ما يكفي، فسهَّل عليّ أمر البحث عن أية مصورات قد احتاجها.

****

ملحاق خير

واذا كانت الثمار المستفادة من النخلة هي التمور منذ كانت بلحة إلى رطبة إلى أن تتحول إلى تمرة فان من ثمارها ما يطلق عليه (الجمار)، ونحن هنا ننطق الجيم ياء بحسب عادة لهجتنا. وكان العرب القدماء يتناولون الجمار يستخلصونه من قلب النخل الأعلى وهو لذيذ الطعم يباع في الأسواق عند توافره فيقبل الناس على شرائه.

وهناك كثير من أجزاء النخلة كانت محل استفادة الناس فبالإضافة إلى ما ذكرناه عن التمور والجمار فان السعف يستفاد منه كثيراً في تسقيف بعض المسقفات، وفي إيقاد النار، وتؤخذ أطرافه الخضراء لعمل منتجات الخوص مثل الزيلان وغيرها، ويستعمل الكرب وهو طرف العسيب في الوقود وفي شباك صيد الاسماك، وعود العسيب الطويل يستعمل في عمل الأقفاص وغيرها وذلك بعد نزع الخوص منه.

وهناك لعبة يقوم بها الأولاد قديماً يستخدمون فيها العسيب الجاف بعد نزع جوانبه ويسمى (قافود)، يزينونه بأعلام صغيرة ويدفع باليد وكأنه دراجة، وكان هذا شائعاً في الزمن القديم، وقد قام الأستاذ الفنان أيوب حسين بصنع لوحتين تمثلان القافود سوف يرى القارئ واحدة منهما مع هذا الملحاق.

وهناك استعمال قديم مضى زمنه الآن، وهو استعمال سعف النخيل الأخضر في حالته الكاملة لتزيين البلاد في الأعياد وعند استقبال كبار زوار الكويت. فقد كان يوضع على هيئة إطارات تحيط بأبواب المؤسسات الحكومية في تلك المناسبات.

****

صور من حياة الشاعر الكويتي راشد السيف[1]

الشاعر الكويتي راشد السيف من شعراء الكويت البارزين، انطلقت أشعاره - على الأخص - خلال عقدي الأربعينيات والخمسينيات من القرن الماضي، وكان يملأ المحافل بقصائده، ويشارك الناس في كل المناسبات، ويراسل زملاءه من الشعراء بقصائده ذات الطابع المميز.

كان الأستاذ راشد السيف ناظر أول مدرسة نظامية الحقتُ للدراسة بها، وهي المدرسة الأحمدية، ثم بعد مضي وقت طويل صارت لي به علاقة قوية هي علاقة التلميذ بأستاذه واستمرت الصلة بيننا لم تنقطع إلا بوفاته رحمه الله.

ووفاء لهذا الرجل، ولأنه يستحق من أبناء وطنه الاهتمام فإنني سعيت إلى إبراز ذكره في أوراق سابقة كتبتها وأجد من المناسب في هذا الوقت أن استعيدها، ومن ثم أقوم بعرضها هنا حتى يطلع عليها من لم يتمكن من ذلك.

وأود أن أشير - في البداية - إلى أن الأمل لايزال قائماً في نفوس محبي هذا الشاعر بطباعة شعره كاملًا بعد أن قدمنا منه بعض النصوص التي لا تكفي للدلالة على ما لدى شاعرنا من إمكانات شعرية جيدة.

هذا ومما يجعل الأمر سهلًا وجود إنتاجه كاملًا لدى ولده الأخ عبدالله راشد السيف الذي يحرص على إحياء ذكرى والده في كل سانحة، ويحتفظ بما كتبه

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠١٢/٥/٣٠.

الوالد بخطه الجميل. وأظن أننا سوف لا نعدم في هذا الوطن من يلبي هذه الرغبة التي صارت أملاً طال انتظاره.

وينبغي أن نذكر هنا أن شعر راشد السيف يحتوي على قصائد تدل على أحداث مرت بالبلاد، وهو من هذه الناحية نوع من التسجيل التاريخي المهم الذي ينبغي أن يدفع بمن لديهم الاهتمام إلى طبعه ونشره.

هذه هي سنة ١٩٠٠م، وفيها ولد الشاعر راشد السيف. وهي سنة مليئة بالأحداث المستمرَّة منذ أطلَّتْ سنة ١٨٩٦م وتولى حكم الكويت الشيخ مبارك الصباح. ولم تمض على ولادة شاعرنا سنة حتى اهتزت البلاد بمعركة الصريف ونتائجها. وقد توفي في سنة مولده الشاعر الكبير عبدالله محمد الفرج وهو ذائع الصيت في مجالات الشعر النبطي والفصيح، وفي الموسيقى.

كما كان من أهم أحداث السنوات الأولى للشاعر السيف زيارة اللورد كيرزون حاكم الهند، ونائب الملك البريطاني بها للكويت، وما تبع ذلك من احتفالات ومباحثات.

لقد نما الشاعر راشد السيف في هذا الجو، فكأنه كان مع الأحداث على ميعاد.

نشأ الشاعر في ظل الظروف التي أشرنا إليها، وعلى الرغم من ذلك فإنه قد وجد من والديه اهتمامًا بتعليمه لما وجداه لديه من استعداد لذلك.

وكان أن بدأ دراسته في الكتاتيب المعروفة في الكويت آنذاك ومنها كُتَّاب السيد عبدالوهاب الحنيان، ثم اتجه إلى علماء عصره عندما أحس بتقدمه الدراسي؛ لذا رأيناه يقبل على دروس العلامة الشهير الشيخ عبدالله الخلف الدحيان معلم الكثيرين من علماء الكويت وأدبائها.

ولم يكتف بهذا العالم الجليل فدرس على يد الشيخ محمد العباسي الذي وصفه شاعرنا بأنه أستاذه الكبير والمحدث القدير. ثم على يد الشيخ عبدالمحسن البابطين. ويضاف إلى هذا اهتمامه الشخصي بالقراءة والاطلاع.

ثم بدأ صاحبنا بالعمل، وكانت الظروف هي التي تحكم طبيعته. ولذلك فإنه عندما وصل إلى مرحلة الشباب اتجه إلى طريق أمثاله من الشباب فانضم إلى رحلات الغوص التي لم يتخلف كويتي عن الالتحاق بها إلا ما ندر، وكان في ذلك الوقت قد بدأ في نظم الشعر. وفي إحدى الرحلات وكانت في سنة ١٩٢٠م قال قصيدة رد بها على رسالة وردته من الشيخ أحمد الخميس، وقال في مقدمتها: «جواب كتاب حوى نثراً ونظماً من الشيخ أحمد الخميس وأنا في الغوص أقول فيه ما يأتي من بلدة دارين:

إليكم سلاماً لا يُحدُّ وإنكم
مدى العمر لم يبرح على البال ذكركم

سكنتم فؤادي فاستقل عن الورى
وآلى يميناً لا يميل لغيركم

كان ذلك حديث عمله في البحر، أما على اليابسة فكان له عملان، أحدهما: أنه كان إمامًا وخطيبًا في مسجد الخالد القائم حاليًا على شارع الخليج العربي، وهو من أقدم مساجد الكويت، حيث بني فيما بين سنتي ١٨١٨م و١٨١٩م، أما العمل الثاني فهو التدريس الذي أقبل عليه إقبالًا شديدًا. محلقًا فيه. وكان راشد السيف مواظبًا على أداء عمليه هذين لا يشغله عنهما أي عمل آخر فقد كان ذا مقدرة على تنظيم وقته وعمله بحيث لا يحدث تضارب عند أدائه لأي من العملين اللذين ذكرناهما.

كانت مهنة التعليم من أحب المهن إلى قلب الشاعر راشد السيف، فهي المهنة التي قضى فيها شطرًا كبيرًا من حياته وانطبع شعره بقيمتها وما تنطوي عليه من جدوى للوطن والمواطنين، وما تضم من أنشطة متعددة ذات أبعاد إنسانية كبيرة، ولقد كانت الروح الشاعرة التي تهيمن على هذا الرجل سببًا من أسباب تعلقه بالتعليم لأنه وجد في تربية النشء وبراءة الأطفال والنمو المعرفي الذي يدفعهم إليه هدفًا نبيلًا جديراً بالاهتمام.

ارتبط اسم راشد السيف بالمدرسة الأحمدية حيث كان ناظرًا لها منذ بداية الأربعينيات وترك فيها آثارًا معروفة، وله تلاميذ لا يزالون يذكرونه وهو يؤدي واجبه التربوي في هذه المدرسة العريقة. وهناك بعض الصور والآثار التي تحكي جزءًا من حياته التعليمية آنذاك. وهو وإن انتقل من هذه المدرسة فإن اسمه بقي معها في أذهان الجميع، فلقد أمضى في سلك التدريس ما يقرب من ست وأربعين سنة وكان آخر مدرسة عمل فيها مدرسًا هي مدرسة الخليل بن أحمد في منطقة كيفان. وكان قد وصل إلى مرحلة من العمر يصعب عليه خلالها تولي النظارة كما كان في بداية حياته.

وفي اليوم السابع والعشرين من شهر مايو لسنة ١٩٦٩م قدم طلبًا بإحالته إلى التقاعد، فتم تحقيق طلبه، حيث ركن إلى الراحة، واهتم بمراجعة ما كتب من أشعار خلال حياته الماضية.

وعلى الرغم من دأب شاعرنا وجده في عمله، وعلاقاته الطيبة بالناس فإن حياته لم تكن تخلو من منغصات، وكأنما كانت الأمور التي أشرنا إلى حدوثها منذ ولادته قد أرضعته ذلك، فصار يتلقى الكثير من المضايقات من كل نوع، إضافة إلى حساسيته بصفته شاعرًا رقيقًا ينظر إلى الحياة بمنظار من يريدها زاهية على كل حال.

ولقد مرت عليه مشكلات كثيرة سببها تمسكه برأيه، وكان من ذلك ما تعرض له من أذى على يد دائرة الأوقاف العامة التي رغبت في استملاك سكنه الخاص لضمه إلى مسجد البدر الواقع في منطقة القبلة، وقد قال قصيدة في هذا الموضوع منها قوله:

أمغصوبٌ إذن بيتي
وهل للغصب من عُذرِ
أتى في الدِّين تحذيرٌ
ولكنْ أين مَن يدري

وضمَّن شعره قصائدَ كثيرة تنم عن مكنون نفسه التي تحملت الصعاب من عدد من الناس، ومن زفراته الحارة قصيدة بعنوان (سهام) قدم لها بقوله: «إلى من لا أخلاق لهم ولا شرف من أكلة لحوم الأبرياء» ومنها:

لقد نصبَ السهام لنا قباح
فأثخن مهجتي منها الجراحُ
وقد جرحوا العواطف فاشمازتْ
نفوسٌ لا تُذلِّلها الرماحُ

وماذا الآن عن المدرسة الأحمدية التي قضى فيها راشد السيف شطراً كبيراً من حياته العملية؟

إنَّها المدرسة النظامية الثانية في الكويت، وكانت المدرسة الأولى هي المباركية. وقد كانت لنشأتها حكاية تروى. إذ إن المدرسة الأولى لم تعد كافية في ظل تزايد الحاجة إلى التعليم وتكاثر عدد الطلاب وفي ظل الرغبة في التجديد بما في ذلك إدخال بعض العلوم الحديثة التي لم تكن المدرسة الأولى تقدمها.

كما حدث سابقاً فقد حدث لقاء مماثل للقاء الذي تمخضت عنه المدرسة الأولى، وكان ذلك في ديوانية السيد خلف النقيب، ومجلسه يضم عادة عدداً من

رجال الكويت يتداولون في مختلف الشؤون، وهنا أثار الشيخ يوسف بن عيسى موضوعاً جديداً عليهم. إذ لاحظ أن الناس لم يكونوا مهتمين بتعليم أبنائهم اللغة الإنجليزية والعلوم، وأكد أنه حاول تطوير التعليم في المدرسة المباركية بحيث يشمل هاتين المادتين، وذلك بناء على رغبة أمير البلاد الشيخ أحمد الجابر الصباح، ولكنه وجد ممانعة من الأهالي. فاقترح في هذه الجلسة أحد حضورها وهو الشيخ عبدالعزيز الرشيد أن تؤسس مدرسة جديدة تقدم فيها المواد المطلوبة دون الاختلاف مع أهالي طلاب المدرسة المباركية. فتم الاتفاق على ذلك آنذاك، وبدأ الاكتتاب من أجل إنشاء المدرسة الجديدة التي سميت «المدرسة الأحمدية للناشئة الوطنية» وعندما بدأت الدراسة بها تم الاكتفاء بالقسم الأول من الاسم فصار «المدرسة الأحمدية».

تولى المرحوم سلطان إبراهيم الكليب - وكان أحد الحاضرين - مهمة جمع التبرعات. وقام الشيخ يوسف بن عيسى بإطلاع الشيخ أحمد الجابر على ما تم في هذا الخصوص، فأيد المشروع، وتبرع بمبلغ ألفي روبية سنوياً، وتبرع عدد من أهل الكويت بمبالغ وصلت إلى ثلاثة عشر ألف روبية يتم تحصيلها سنوياً.

وقد وجد هؤلاء مقراً للبدء السريع بافتتاح المدرسة وهو المقر الذي كانت الجمعية الخيرية تستخدمه وقتما كانت قائمة، وهو على ساحل البحر، يملكه آل خالد الذين تبرعوا به للمدرسة. إضافة إلى ذلك فإن الشيخ أحمد الجابر أبدى موافقته على إنشاء مبنى آخر يقابل المبنى الذي أشرنا إليه ويكون على ساحل البحر مباشرة، فصار لهذه المدرسة مبنيان يفصل بينهما طريق يمتد شرقًا وغربًا.

ولما كانت مسألة إدخال المواد الدراسية الحديثة موضع خلاف في المجتمع، فقد حرص الشيخ أحمد الجابر على بحث هذا الأمر مباشرة مع الناس، فدعا في اليوم الرابع عشر من شهر مايو لسنة ١٩٢١م إلى اجتماع حضره عدد

من كبار رجال البلاد وأهل الدراية فيها لبحث موضوع منهج الدراسة المقترح للمدرسة الأحمدية.

وقد عرض الشيخ يوسف في هذا الاجتماع نظام المدرسة ومنهجها الدراسي الذي يحتوي على دراسة اللغة الإنجليزية والجغرافيا والخطابة إضافة إلى مواد أخرى، وقد أيده في ذلك الشيخ عبدالعزيز الرشيد، وعندما سأل الشيخ أحمد الجابر الحاضرين عن موقفهم من المدرسة ومناهجها وافق عدد منهم، وطلب عدد آخر مهلة للمراجعة. وسوف نعرف رد المجموعة الأخيرة حين نرى المدرسة وهي تُفتتح في احتفال كبير قبل أن ينتهي الشهر الذي تم فيه الاجتماع، وقد كانت في الاحتفال لفتة لها اعتبارها إذ كان أبرز الخطباء فيه هو الشيخ عبدالله الخلف الدحيان، الذي كان قدوة بين علماء الكويت قبل غيرهم.

كان للمدرسة الأحمدية مجلس إدارة يتكون من السادة: مشاري الكليب، ومشعان خالد الخضير، وسلطان الكليب، وعبدالرحمن النقيب، وسيد علي بن سيد سليمان. وكان ناظرها في البداية الشيخ يوسف بن عيسى، ثم تولى ذلك الأستاذ عبدالملك الصالح وصار الشيخ يوسف مشرفًا عليها وعلى المدرسة المباركية في آن واحد.

كان الشيخ أحمد الجابر الصباح فخوراً بالمدرسة الجديدة يزورها ويطلع على أنشطتها، ويُري زواره الذين يأتون من خارج البلاد ما فيها من أعمال. وكانت المدرسة جديرة بهذا الاهتمام فقد أولت المناهج المقررة عنايتها كما اعتنت بالنشاط المدرسي - ولا سيما المسرحي منه - اعتناء شديداً لفت الأنظار إلى أهمية هذا النوع من التعليم الذي يعبر عن أهدافه بطرق جديدة لم تكن مألوفة، ويقدم علومًا كانت دراستها غير مرضي عنها من قبل.

قام بالتدريس في هذه المدرسة عند بدايتها الشيخ عبدالعزيز الرشيد والشيخ أحمد الخميس والشيخ حافظ وهبة وحجي جاسم الحجي، مع مدرسين اثنين من مصر لتدريس اللغة الانجليزية. وعندما ازداد عدد الطلاب انضم إلى هيئة التدريس كل من: الشيخ عبدالوهاب الفارس، والشيخ عبدالله الفارس، والشيخ عبدالله النوري، والشاعر محمود شوقي الأيوبي، وملا يوسف عبداللطيف العمر، وملا عثمان عبداللطيف العثمان.

هذا وقد كان اجتماع التأسيس الذي أشرنا إليه هنا قد تم بناءً على اجتماع سابق له، دعا إليه الشيخ أحمد الجابر الصباح بهذا الخصوص، وتم في اليوم الرابع عشر من شهر مايو لسنة ١٩٢١. وقد ذكرنا ذلك قبل قليل.

مرت بالشاعر راشد السيف - كما رأينا فيما سبق - ظروف عصيبة جعلته يعبّر عنها في بعض قصائده. ومن تلك المصاعب ما ذكرنا أنه حدث له مع دائرة الأوقاف العامة حينما أصرت على استملاك مسكنه وضمه إلى مسجد البدر الكائن في الحي القبلي. وقد قال في ذلك أكثر من قصيدة:

مجلس الأوقاف منّي لم يكنْ
يقبلُ العذرَ لصدقٍ أو كذِبْ
ليته فكّرَ في آرائهِ
قبل إشعاري بحكم لم يجبْ

غير أن ما يلفت النظر أننا نراه يعبر أحيانًا عن آلام ناتجة عن أمور غير منظورة إذ إنه لم يكن يوضحها لمستمعي شعره، ومن ذلك قوله:

ولكنَّ دهري اعقبَ الطين بلةً
بغارته الشعواء وهو عجيبُ
يخادعني طوراً وطوراً يصُدّني
بما هو اقوى، ما عليه رقيبُ

وعلى الرغم من كل الصعاب التي مرت بشاعرنا فإنه لم يستسلم للاكتئاب، ولم يتأخر عن القيام بدوره بصفته إنسانًا، وبصفته شاعراً.

فعلى المستوى الإنساني، كان قوي العلاقات بالناس كثير الاتصال بهم، وفي شعره الكثير مما يدل على ذلك، فالأسماء المذكورة ضمن قصائده كثيرة تدل في حد ذاتها على كثرة صلاته وعمق ارتباطه بغيره. والثناء الذي يقدمه في بعض تلك القصائد لمن يستحق دليل على سروره بكل ما يستجد في مجتمعه. ها هو يفرح بالفنان معجب الدوسري فيقدم له قصيدة يثني فيها على فنه الجميل، وينشرح صدره لقيام الموسم الثقافي في الكويت فيكتب قصيدة مؤازرة. ويخاطب الشيخ عبدالله الخلف الدحيان مذكراً، بما يتمتع به من علم وخلق متين. ويذكر كثيراً بعض آل الصقر الكرام، معدداً مناقبهم. وهكذا...

وله قصائد وطنية عديدة منها تحية العلم التي يقول فيها:

رمزُ الحياة فرفرفْ أيها العلمُ
للشعب إن يديكَ السيفُ والقلمُ
كرايةٍ من دم الأجداد يرفعها
مَن يطلب الثارَ في الأعداء يقتحِمُ

أما أغانيه العربية فقد كانت كثيرة تبدأ من الثورة الليبية التي هبت في طرابلس إبان سنة ١٩٢٦م وتنتهي بالترحيب بتأميم قناة السويس مروراً بالدعوة إلى الاتحاد والابتهاج بدولة الوحدة، وتأييد المغرب في ثورته.

كان التعليم من أهم ما عني به راشد السيف ولا عجب في ذلك فقد أمضى حياته معلماً، وقد انطبع الكثير من شعره بطابع هذه المهنة، وله عدد كبير من القصائد المتعلقة بها. له قصيدة في حفل توزيع الشهادات على خريجي المرحلة الابتدائية ألقاها في اليوم العشرين من شهر نوفمبر لسنة ١٩٦٢ في المدرسة المباركية، وله قصيدة ينوه فيها بمعرض للأشغال النسوية للطالبات، وقصيدة في

التنويه بمكانة المعلم، ودعوة إلى طلب العلم وغير ذلك مما يتعلق بالتربية من ضرورة العناية بالشباب وتوجيههم الوجهة الصالحة، وحثهم في قصيدة أخرى على التمسك بالأخلاق الكريمة.

أما الشعر فهو يطاول التعليم منزلة في ذهن راشد السيف، وله تعبير صادق عن هذا الشأن حين تحدث عن رأيه فيه فقال:

وما الشِّعرُ إلا وحيُ روحٍ تأثرتْ
بما حولها من ذكر ماضٍ وحاضرِ
وما الشعرُ إلا زفرةٌ عن تأوّهٍ
يضيق بها عن باطن الصدر ظاهري

ومن اهتمامه بالشعر مشاركته في كل محفل، وحرصه على إلقاء قصيدة في كل مناسبة. ونشر أخرى إذا لم تتح له فرصة الإلقاء، وكم من حفل من الاحتفالات التي كانت تقام خلال الأربعينيات والخمسينيات من القرن الماضي لم ينته إلا بقصيدة لهذا الشاعر المشارك في كل الأحداث.

ومما يتعلق بذلك علاقاته الطيبة والمستمرة مع شعراء عصره. ومن هؤلاء الشاعر صقر الشبيب الذي كتب له شاعرنا أكثر من قصيدة منها واحدة بتاريخ الرابع عشر من شهر أبريل لسنة ١٩٣٠م، وهي تحمل تهنئة بزواج الشبيب.

ومنهم الشاعر فهد العسكر الذي عثرنا عنه في أشعار السيف على قصيدة تحوي من الممازحة أكثر مما تحوي من الاعتذار، وهي دليل على قوة العلاقة بين الشاعرين. كما أن راشد السيف قد شارك في رثاء الشاعر العسكر عندما توفي في سنة ١٩٥١م، فقال قصيدة عنوانها «دمعة حمراء» نشرت في عدد مجلة البعثة الصادر في شهر ديسمبر للسنة ذاتها.

أما الشاعر محمود شوقي الأيوبي فقد تلقى من السيف قصيدة كتبها في اليوم الثاني عشر من شهر أكتوبر لسنة ١٩٤٨ تحدث فيها عن المبادئ العربية التي تربط بين الشاعرين، وتدفعهما إلى التطلع نحو مستقبل أفضل لأمتهما.

والشاعر داود سليمان الجراح من الشعراء الذين كانت صلتهم جدّ قوية براشد السيف، وكانت القصائد التي اطلعنا عليها دليلًا على ذلك. فهو يهنئ صاحبه بمولد ابنه عبدالله بقصيدة تنم عن عاطفة ومحبة صادقتين وفرحة يشارك فيها صاحبه، وهو يهنئه كذلك بمولد ابنته فاطمة. ولكنه يعبر عن الحزن الشديد لوفاة الشاعر داود الجراح فيقول:

الاقي ما الاقيهِ
فانسى غير طاغيهِ
إذا ما انهدّ لي عزمٌ
فعذري فوق ساميه

ولقد ثبت في أوراق الشاعر راشد السيف مدى ما يكنُّ لصاحبه (الجراح) من تقدير ومودة ويكفي أنه يقول في صدر إحدى قصائده: «أقدم هذه العجالة إلى الأديب الألمعي، والأريب اللوذعي، صديقنا النجيب داود الجراح، حفظه الله، آمين».

هذا وقد لاحظنا أن من القصائد التي مرَّ بنا ذكرها قصيدة قالها في سنة ١٩٣٠م، وليست فيما نَظُن من أوائل قصائده، يدلنا على ذلك طبيعة موضوعها والشخص الموجهة إليه، فهي تهنئة للشاعر صقر الشبيب في يوم زواجه.

نقول هذا لنؤكد المدة الطويلة التي أمضاها راشد السيف وهو يقول الشعر ويعبر فيه عن خلجات نفسه، ويصور خلاله أحداث وطنه الكويت، ويستحث الشباب إلى المسارعة في خدمة الوطن والتقدم في مضمار العلم، الذي بذل في ميدانه عمره كله، فقد استمر معلمًا - كما قلنا فيما سبق - حتى اليوم

السابع والعشرين من شهر مايو لسنة ١٩٦٩م، ولم يبق بعدها إلا قليلًا حتى انتقل إلى رحمة الله مأسوفًا عليه من الجميع. وفي هذه اللحظة كتب الأستاذ أحمد البشر الرومي في أوراقه الخاصة قائلاً: «توفي راشد السيف فجر يوم الأربعاء بتاريخ ١٩٧٢/١٢/٣١م وشُيع جُثمانه في الساعة الرابعة من مساء يوم الأربعاء نفسه» وانطفأ بموته سراج كان متقداً بنور الشعر، وقد كان غزيراً في مادته قوياً في سبكه، وعلى الرغم من إكثاره وتنوع موضوعاته وخوضه في كل مناسبة من مناسبات الحياة على اختلاف نواحيها فإننا نجد فيه تمكنا من لغته العربية ونرى فيه سلامة من الخطأ النحوي والمعنوي، وقدرة على التَّفنن في التعبير مما يدل على استعداد فطري سليم، واطلاع واسع وقراءات متعددة فتحت له مجال القول دون ارتكاب أخطاء، أو وقوع في ذلك الذي يعيب شعر بعض الشعراء.

هذا هو راشد السيف، وقد كان ينبغي أن نطيل في الحديث عنه لولا ضيق المجال، فعمره المديد وخدمته لوطنه، وشعره الغزير، وكونه مدرسًا خرَّج أجيالًا من التلامذة كلها تستدعي الإفاضة في الكتابة عنه وذكر مآثره. ولعل مستقبل الأيام هو الذي يتيح لنا - مرة أخرى - أن نعيد القول عنه، حتى نوفيه حقه علينا، وعلى وطنه.

****

ملحاق خير

بناءً على ما شاهدناه في تتبع حياة راشد السيف وشعره، وما وجدناه في ثنايا هذا الشعر من اهتمامات كثيرة بعضها بالمسائل الوطنية والبعض بالمسائل التربوية والآخر بالمسائل الاجتماعية؛ فإننا نجد شاعرًا حبه للكويت لا ينكر، واهتمامه بالنواحي الثلاث التي ذكرناها من أوضح ما نراه في قصائده.

ولذلك فقد كررنا ضرورة الاهتمام به وبشعره فإن في بعض القصائد دلائل تاريخية مهمة يستفاد بها عند توثيق تاريخ الكويت الذي ينبغي أن نعتني بكتابته على الوجه الأمثل، بعد أن مضت السنون وهو يتعرض للنسيان.

ومن الأمور التي ذكرها راشد السيف ضمن قصيدة من قصائده الأمطار التي هطلت على الكويت في أواخر سنة ١٩٥٤م، وقد كانت غزيرة بحيث هدمت البيوت، وتعرض السكان بسببها إلى كارثة حقيقية لولا قيام الحكومة والأهالي بالمسارعة إلى الإنقاذ. وقد أشار الشاعر إلى أنه في الوقت الذي كان الناس يعانون فيه من شدة الأمطار وقوة انهمارها، فكانوا يغادرون مساكنهم المتضررة بذلك ويلجؤون إلى المدارس حيث يتم إيواؤهم؛ كان أحد المنافقين (على حد قول راشد السيف) يحاول أن يشذ عن حالة الناس فيسعى إلى إقامة حفل لاستقبال بعض رؤسائه ليتقرب إليهم وينافقهم ضاربًا عرض الحائط بمشاعر الواقعين في المحنة. يقول:

السُّحُبُ تُنذر بالبروق نشاطنا
لنزول ماء فوض ارض المحفلِ

سوء النتيجة لا يُشَكِّكُ عاقلٌ

فيها لأن ظروفها لم تقبلِ

إن ارتجالك في الأمور يَدُلُّنا

حقًا على الفشل الذريع الأعجل

إلى غير ذلك مما جاء في قصيدته من نقد لذلك الرجل الذي لم يقدر ظروف الناس في ذلك الوقت ولا مشاعرهم.

ولما كان هطول الأمطار من الكوارث التي دفعت بالناس إلى أحضان الحاجة فأصبحوا ينتظرون من يمد لهم العون فوجدوا ذلك سريعًا بسبب تعاون المجتمع كله حكومة وشعبًا على تدارك الأمر، فإنَّ هناك أمورًا مشابهة لا يحلها إلا ما حدث من اهتمام بكارثة الأمطار.

هناك عدد كبير من العمال الذين لا تفي مواردهم بحاجاتهم، وتقصر رواتبهم عن الالتزامات التي تفرضها عليهم حياتهم العائلية. فكان الأمر أن قامت دائرة بلدية الكويت في اليوم الخامس عشر من شهر نوفمبر لسنة ١٩٥٠م بمشروع قصدت به إعانة العمال الذين وصفنا حالهم، إذ تفقدت هذه الدائرة شؤون هؤلاء فوجدت فيهم شدة البؤس، والفقر المدقع، فكان مشروعها هو الدعوة إلى جمع مبلغ من المال يوزع فيما بينهم للنهوض بأمور حياتهم.

وقد ذكَّرنا الشاعر راشد السيف بهذه المهمة التي قامت بها دائرة بلدية الكويت حين قال قصيدته حول هذا المشروع، وحث فيه القادرين من الناس على البذل، وعدم إهمال ذوي الحاجة وفي ذلك يقول:

ما بالكم يا ولاة الأمر لم تقفوا

على الحقائق إذ أوى بها الخللُ

ما بالكم يا اباةَ الضَّيمِ يقعدكم

عنَّا التقاعس والإهمال والكسلُ

ثم يقول:

لا تتركوا عاملًا ضاقت مذاهبُهُ

ولم يجد مسلكًا للرزق يتَّصِلُ

لا يسأل الناس إنقاذًا لفاقتهِ

أوصى به الله والقرآن والرسُلُ

ويقول الشاعر تعليقًا على قصيدته إن دائرة بلدية الكويت قد جمعت من خلال مشروعها هذا مبلغًا لا بأس به من المال جرى توزيعه على المحتاجين عن طريق لجان شكلتها الدائرة المذكورة لهذا الغرض النبيل الذي غطى جزءًا مهمًّا من حاجة الناس.

ومما ورد في شعر راشد السيف من تذكير ببعض ما حدث في الكويت خلال خمسينيات القرن الماضي؛ زيارة الشيخ الجزائري محمد البشير الإبراهيمي، واحتفاء البلاد به بصفته زعيمًا دينيًا وسياسيًا وداعية من دعاة تحرير الجزائر التي كانت تئن يوم وصوله إلى هنا تحت وطأة الاستعمار الفرنسي البغيض، وقد كان من مظاهر هذا الاحتفاء أن دعاه النادي الأهلي الكويتي إلى حفل تكريم ألقى خلالها محاضرة شاملة. وألقى الشاعر راشد السيف بعد ذلك قصيدة يمتدح بها الضيف ويذكر مناقبه وجهاده في سبيل قضيته. ويمتدح في الوقت نفسه النادي الذي قام بهذه المبادرة، فقال عن النادي:

وقفت مع الإجلال موقف مُنصفٍ

يرى كلَّ فضل رغم غُمْي البصائرِ

وقد سرّني قبل النظام تعاونٌ

وأخلاقُ أعضاءٍ بنوع مُباشرِ

ويوجه حديثه للشيخ الإبراهيمي قائلًا إن ما يقوله من شعر هو بمثابة جهاد يقوم به في سبيل أمته لأنه يرى:

وما الشِّعرُ إلا للشعوب محركٌ
لوْ استسلمت للجور عن حكم جائرِ

وما الشعرُ إلا موقظٌ نحو وثبةٍ
إلى نهضةٍ ترنو لها عينُ ناظرِ

وبعد؛ فهذه مجرد نماذج لما ورد في شعر السيف مما له علاقة بما مَرَّ بالكويت من حوادث. وهناك الكثير مما يجب أن يذكر، ولكننا نكتفي بهذا الذي قدمناه.

****

الكويت وتركيا ١٩٨١- ١٩٨٢م [١]

علاقة الكويت بتركيا علاقة وثيقة، فمنذ سقط النظام العثماني وحلت محله الجمهورية التركية سارت الأحوال بين البلدين على ما يرام، ولكنها في العهد السابق الذي كان يحكم تركيا وهو ما يسمى: الدولة العثمانية، فقد كانت الأمور مختلفة، فهي تارة جيدة ومريحة وتارة أخرى تعلوها الزوابع ويعمها الاختلاف في وجهات النظر.

كانت معاناة الكويت من تلك الدولة أشد ما تكون في أيام حكم الشيخ مبارك الصباح، وللحقيقة فإن تلك المعاناة كانت بسبب الولاة الذين نصبَّتهم الدولة العثمانية في البصرة، وأحرق قلوبهم الطمع في الكويت حتى صاروا يصطنعون في كل يوم مشكلة تثير أزمة، وتدفع بالشيخ مبارك إلى النفور منه. ومع ذلك فقد كان يقدم العون للدولة ويساعدها في كثير من الأزمات التي تحل بها وبولاتها الذين لم يألوا جهداً في سبيل ازجاء الأذى إليه وإلى وطنه.

ولعل من أهم ما يدل على تركيز معاداة الكويت عند هؤلاء، وثيقة تأمر هؤلاء الولاة بعدم التعرض للكويت وأميرها وكان ذلك بموجب خطاب رسمي من العاصمة العثمانية، تأمر هؤلاء الولاة بالكف عن الاتصال بالكويت مباشرة لأن الحكومة المركزية علمت بأن هولاء يقومون بأعمال مخالفة تُؤثِّر على العلاقات بين البلدين لمجرد الطمع، والرغبة في الاستحواذ.

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠١٢/٦/٦.

لكن الأمور الآن غيرها بالأمس، فهذا هو الشيخ جابر الأحمد الجابر أمير دولة الكويت في حينه يغادر البلاد إلى زيارة لشبه الجزيرة البلقانية، ويضع ضمن خطته زيارته تركيا رغبة في تمكين العلاقات الأخوية والسياسية والاقتصادية معها. وكانت مغادرة الأمير والوفد المرافق له في اليوم الثامن من شهر سبتمبر لسنة ١٩٨١م. وقد استقبلت الحكومة التركية هذه الزيارة الأميرية بالترحاب، فأعلنت عنها واصفة إياها بأنها ذات أهمية تاريخية من حيث تحديد وقتها ومن حيث الشخصية الزائرة، ولأنها سوف تكون مساعداً مهمًّا على تمكين البلدين (الكويت وتركيا) من تمتين علاقات الأخوة والصداقة بينهما، وبخاصة وأنهما يرتبطان بعلاقات قوية وجيدة على الصعيد السياسي وعلى الصعيد الاقتصادي، كما ذكرت الحكومة التركية على لسان مصادر وزارة الخارجية أنه سوف يركز الطرفان فيها على تعزيز التعاون الاقتصادي بينهما، ولإفراغ هذه الزيارة من أية أغراض أخرى فقد أكدت المصادر التركية أنه سوف لا يتم التوقيع على أية اتفاقية خلال الأيام الثلاثة التي سوف يقضيها الشيخ جابر الأحمد الجابر هناك، اكتفاء بما سوف يجري من محادثات، وتبادل لوجهات النظر.

ولقد كانت الأمور التي يمكن التداول حولها في ذلك الوقت كثيرة وكلها تهم الطرفين على حد سواء، ومن ذلك ما يتعلق بمنظمة المؤتمر الاسلامي وهما عضوان فيها. والقضية الفلسطينية، وقد تركا الباب مفتوحاً للتباحث في أية قضايا ذات اهتمام مشترك بين هذين البلدين الصديقين.

هذا وتنتهج الحكومة التركية سياسة الانفتاح الاقتصادية مع كافة الدول، ولذلك فقد كانت الكويت مجالاً لامتداد هذا النوع من النشاط، فتركيا تصدر إلى الكويت بضائع متنوعة أهمها المنتجات الزراعية، والمواد الغذائية المصنعة والمعلبة والألبان ومشتقاتها. وهي تسعى في ذلك الوقت إلى الحصول على قروض تتيح لها مجال عقود العمل في الكويت ضمن أعمال الإعمار والصناعة.

ولقد أشارت الصحف البريطانية التي تعنى بالشؤون الاقتصادية بهذه الزيارة، وتحدثت عن العلاقات الكويتية التركية، وعن إمكانات التعاون الاقتصادي بين البلدين، وذكرت جريدة «فايننانس تايمز» أن البنك المركزي التركي يأمل بأن تكون هذه الزيارة سبباً في إتاحة الفرصة للوفد الكويتي من أجل الاطلاع على فرص الاستثمار، والنظام المالي في هذا البلد المسلم، إذ إنه قد تسفر المباحثات التي سوف تجرى بين الطرفين عن تمويل عمليات تجارية، وتقديم قروض متوسطة الأجل.

هذا وكانت الكويت من الدول التي قدمت قروضاً بشروط ميسَّرة لتركيا، ومن قروضها القرض البالغة قيمته أربعة وثلاثين مليون دولار من أجل المساعدة على تمويل بعض المشروعات في تركيا.

تزينت أنقرة لاستقبال ضيفها الكبير، وغطت صحف تركيا بصورة واضحة أنباء الزيارة قبل أن تبدأ، ونشرت أعلام الكويت في أنحاء من عاصمة تركيا وفي مطارها، وبث التلفزيون التركي برنامجًا خاصاً بالكويت تحت عنوان: «التقدم والسلام».

وقال وزير الخارجية التركية - آنذاك - توركمان في مقابلة مع إحدى الصحف التي تصدر هناك باللغة الانجليزية: إن تركيا تؤيد وجهة نظر الكويت وبقية دول الخليج التي تتجه إلى أمن هذه المنطقة من اختصاص أبنائها ومسؤوليتهم وحدهم دون السماح لأية قوة خارجية بالتدخل.

أما نائب رئيس الوزراء تورغوت أوزال فقال في تصريح له نشر في المجلة ذاتها: «إن التعاون بين تركيا ودول الخليج يمكن أن يزداد ويتطور من خلال خطة تضمن التعاون إلى أمد بعيد».

وخرج الاهتمام بهذه الزيارة الأميرية عن نطاق الكويت وتركيا فتعدى إلى خارجهما، ولذا فقد اهتمت صحيفة فاينانشال تايمز بذلك، ونشرت ما أشرنا إليه في البداية.

كانت الاستعدادات في تركيا قد اتخذت على مستوى عال من أجل استقبال سمو الأمير والوفد المرافق. وفي اليوم الثامن من شهر سبتمبر حطت الطائرة الأميرية في مطار أنقرة، وكان على رأس مستقبليه رئيس الجمهورية التركية كنعان إيفرين وكبار مسؤولي حكومته. وصرح الشيخ جابر الأحمد الجابر عند وصوله بما يلي:

«يسعدني في بدء زيارتي للجمهورية التركية أن أعبر باسمي واسم شعب الكويت وحكومته عن مشاعر التقدير التي نحملها لفخامة الفريق كنعان إيفرين رئيس الجمهورية وللحكومة والشعب التركي الصديق.

إن الروابط بين بلدينا عريقة، ومستمرة، فالإسلام يجمع بيننا، وإلى المسجد الحرام نتجه جميعاً في صلاتنا.

وإن تاريخ الحضارة التركية، وإنجازاتها جزء عزيز من تاريخ الحضارة الإسلامية، ويمثل فيها إحدى القمم العالية التي ساهم فيها علماء ومتخصصون لهم مكانتهم العالمية.

ويضيف الشيخ جابر الأحمد في ختام كلمته:

ونأمل أن تكون هذه الزيارة فاتحة لمزيد من التعاون الثنائي القادم في شتى المجالات، وخطوة على طريق التعاون الإسلامي والعالمي، وإقامة السلام على أساس من العدل والاحترام المتبادل والتعاون المستمر لصالح شعوبنا والعالم أجمع.

وقد تحدث مندوب وكالة (كونا) الكويتية للأنباء عن بداية الزيارة فقال: إن سمو الشيخ جابر الأحمد الجابر قد بدأ في يوم وصوله محادثات أجراها مع الرئيس التركي، وقد اتخذت المباحثات والنظرة التركية إلى الحدث صورة مختلفة فهذه هي أول زيارة يقوم بها رئيس دولة خليجي إلى تركيا، مما جعلهم يقولون إنها حدث تاريخي، ومن حيث المباحثات بين الطرفين الكويتي والتركي فإنها لم تتم وفق الشكليات الرسمية بل إنه لن يكون هناك جدول أعمال مسبق لها بحيث يرتبط الجانبان به ويتقيدان بما فيه.

وأضاف المندوب قائلاً إن مصادر مطلعة هناك أعلنت أن محادثات أخرى على مستوى الوزراء سوف تتم في ذلك اليوم وسوف تتركز على مسائل تقنية كالاستثمارات الكويتية في نطاق البترودولار في تركيا، والإمدادات النفطية، والمشروعات المشتركة بين البلدين.

واستمراراً لذكر الزيارة، قام سمو الأمير في اليوم الأول لوصوله بزيارة قبر مصطفى أتاتورك مؤسس تركيا الحديثة، والمتحف الملحق به. وقد استقبله في الموقع حاكم أنقرة ورئيس بلديتها، وآمر الحامية العسكرية المتمركزة قرب القبر.

وقد ذكر في ذلك الوقت أن الرئيس التركي سوف يقيم في مساء اليوم الأول حفل عشاء على شرف ضيفه الكبير ومرافقيه، وتبين أن جدول أعمال اليوم الثاني سوف يكون مزدحماً جداً، ففيه عدد من الزيارات واللقاءات والمباحثات. وسوف يقيم سفير الكويت في أنقرة يومذاك مائدة غداء على شرف سمو الأمير، ثم يستقبل الأمير في مقر إقامته رؤساء البعثات الدبلوماسية المعتمدين في تركيا.

وكان من مظاهر الزيارة أن توجه سمو الأمير في اليوم الثاني لزيارته إلى القصر الجمهوري لمواصلة المباحثات، وقد سار إلى القصر مشياً على الأقدام، وكان الرئيس التركي في استقباله عند مدخل القصر، وصعدا السلم الموصل إلى

الدور الثاني معًا، وبعد ذلك وقفا أمام المصورين لالتقاط صور تذكارية لهما، وبعد التصوير وجه الشيخ جابر الأحمد حديثًا إلى الصحفيين المرافقين للمصورين قال فيه: «إننا مسرورون بصورة خاصة لقيامنا بهذه الزيارة التي سوف تتيح لنا فرصة قيمة للتعرف على تركيا وشعبها، وللاطلاع على النشاط الذي حققه هذا البلد الشقيق».

وأضاف إلى ذلك: «إننا نعلق أهمية كبرى على صداقتكم وقد جئنا منطلقين لتطوير هذه الصداقة، ولاكتشاف السبل والوسائل لإقامة تعاون مثمر بيننا في مختلف المجالات والآفاق؛ وذلك توخياً لمصلحة شعبي تركيا والكويت الشقيقين».

في اليوم التاسع من شهر سبتمبر غادر الشيخ جابر الأحمد الصباح مدينة أنقرة إلى مدينة اسطنبول عاصمة الدولة العثمانية الشهيرة، وذلك لزيارتها زيارة خاصة وللقيام بجولة يطلع خلالها على معالمها وآثارها، وقد رافق الأمير إلى اسطنبول كل من وزير الخارجية، الترتيركمان، ونائب رئيس الوزراء تورغوت أوزال.

وفي هذه الأثناء تحدثت وزارة الخارجية التركية عن الزيارة الأميرية فقالت: إن القضايا الثنائية وبخاصة زيادة التعاون بين البلدين قد أخذت حيزاً كبيراً من المباحثات الكويتية التركية بحيث غطت جميع الجوانب المطلوب بحثها تهميداً للوصول إلى الأهداف المؤدية إلى تقوية العلاقات وتنمية التعاون في شتى المجالات بين البلدين.

وإن محصلة المباحثات التي دامت طوال الفترة التي أقام فيها الأمير والوفد المرافق له مع الرئيس التركي وغيره من المسؤولين الأتراك سوف يصدر بها بيان مشترك عندما يغادر الضيف إلى المحطة التالية في رحلته.

عندما وصل سمو الأمير إلى اسطنبول، وجد في استقباله بالمطار عمدة المدينة وعدد من كبار المسؤولين فيها من مدنيين وعسكريين، وقام عقب وصوله

بجولة في المكان الذي حل به زار خلالها أهم المعالم في العاصمة التركية القديمة العريقة.

ولقد صدر - بالفعل - بيان ختامي مشترك تحدث الجانبان فيه عن كل ما جرى في الزيارة من مباحثات، وذكر الجانب التركي أنه سعيد بهذا التحرك من الجانب الكويتي الذي بدأ بالزيارة وأعرب البيان عن تطابق وجهات النظر بين البلدين في جميع الأمور التي كانت موضع البحث، وذكر أن المستقبل بين الكويت وتركيا يبشر بكل خير من حيث نمو التبادل الاقتصادي والتقارب في وجهات النظر وتوحيد المواقف التي تخدم المنطقة والمنظمات العاملة بها.

وذكر البيان في ختامه مايلي:

«ووجه صاحب السمو الشيخ جابر الأحمد الجابر الصباح أمير دولة الكويت دعوة ودية إلى فخامة الرئيس الجنرال كنعان إيفرين للقيام بزيارة رسمية لدولة الكويت، حيث قبلها فخامته بسرور على أن يحدد موعدها فيما بعد».

وهكذا انتهت الزيارة الأميرية إلى تركيا، التي ذكرنا أنها كانت أولى مراحل زيارة الأمير لدول البلقان التي سوف يجد القارئ تفصيلاً عنها في مقالات أخرى.

وعاد سمو الأمير الشيخ جابر الأحمد الجابر من رحلته إلى دول البلقان التي بدأها بزيارة تركيا، وقد اكتسب أصدقاء كثيرين، واستطاع أن يعرف بالقضايا العربية المختلفة في كافة محطات رحلته. وكانت الكويت كلها تتابع بشغف بالغ زيارة أميرها والوفد المرافق له، كلما حل بدولة من الدول التي زارها، وكانت تتوقع نتائج طيبة لهذا التحرك الأميري المهم، إذ لا شيء أهم من التقارب بين الدول عن طريق طرح كل دولة لأفكارها فبهذا تزول كل أسباب الفهم الخاطئ. ولقد كانت نتائج الزيارة سارة للطرفين فقد قويت بسببها العلاقات الثنائية، وتحققت فوائد

اقتصادية كثيرة وكبيرة نتجت عن اللقاءات المثمرة التي قام بها المختصون الكويتيون والأتراك، وقد كسبت الكويت صديقاً قوياً وأميناً أفادها كثيراً حين اشتدت أزمتها مع العراق أيام كان صدام حسين هو الحاكم المطلق فيه، فلم يلتفت إلى ما كان يقوله الشيخ في زياراته لدول البلقان كلها من دفاع عن العراق ودعوة إلى إيقاف الحرب العراقية الإيرانية التي أرهقت العراق وأهله.

وعلى كل حال فقد كانت الزيارة ظافرة، وكانت محصلتها لصالح الكويت في ذلك الوقت وفي ما لحق من أوقات ولا تزال تلك البذرة التي وضعها الشيخ في شجرة العلاقات بين بلادنا وتلك الدول نامية أفضل النماء، تؤتي ثمارها كل حين، وتدفع عملية التعاون والتآزر في كافة المجالات بين الكويت وأصدقائها الذين تحدثنا عن زيارة الأمير لهم. ونلمس في هذا الوقت استمرارية حرص الكويت على تنمية العلاقات مع مختلف الدول، واهتمامها بكسب الصداقات دائماً.

وبمثل ما أشرنا إليه حول أهمية الزيارة الأميرية لدول البلقان ومنها تركيا التي نتحدث عن زيارته لها هنا، تحدثت وسائل الإعلام الكويتية عن الرحلة قبل بدئها وبعد عودة الأمير مع مرافقيه إلى البلاد، وذكرت وكالة كونا للأنباء شيئاً من ذلك في بيان وزعته على الصحف الكويتية كان مما جاء فيه: «وهكذا فإن النتائج المنتظر أن تحققها رحلة سمو الأمير هي نتائج خير لأنها ستكون حصيلة جهد مخلص تبذله الأطراف الصديقة معًا باتجاه تحقيق أهداف ومقاصد خيرة لصالح الدول المتعاونة والمؤمنة بمبادئ التعاون الدولي غير المشوب بشوائب المطامع والبعيد عن شبهات الاستغلال والتسلط أو الانغماس في دوامة الصراعات الخفية أو المعلنة التي يعاني منها العالم وتخشى شرورها الشعوب.

ولا شك في أن قيام سمو أمير البلاد والوفد المرافق له بهذه الرحلة إنما هو مكسب جديد لتطوير وتنامي علاقات الصداقة والتعاون وتبادل المصالح بين

الشعوب التي تجمعها أهداف ومبادئ الحرص على خير وسعادة وسلام المجتمع الدولي. وطالما بذلت الكويت والدول التي سيقوم بزيارتها الكثير من أجل توثيق الروابط وتعميق الصلات الودية بينها وبين شعوب العالم الأخرى، وهي خلال المحادثات واللقاءات التي ستتم في غضون الزيارة ستبسط يدها لتعزيز العلاقات بينها وبين الأمة العربية في المجالات التي تتطلب أن تكون هذه العلاقات أمتن ما ينبغي أن تكون من واقع المصالح المشتركة والصلات التاريخية والدور الذي لابد أن تقوم به أداء لرسالتها نحو نفسها ونحو الدول الصديقة ونحو الشعوب المحبة للخير والسلام».

وتساءلت الصحف الكويتية - يومذاك - عن السر في عدم اشتراك سمو الأمير الشيخ صباح الأحمد الجابر الصباح في الرحلة الأميرية، وكان نائب رئيس مجلس الوزراء، وزير الخارجية، ودوره مهم في مثل هذه المناسبة. ولقد أجابت الصحافة على ذلك قائلة إن ذلك يرجع إلى أن سمو ولي العهد سوف يتولى خلال فترة سفر سمو الأمير منصب نائب الأمير، ولذا فإن الأمر قد اقتضى بقاء سمو الشيخ صباح في الكويت ليتولى رئاسة مجلس الوزراء بالوكالة، وإن كان التحاقه بالوفد الزائر مهمًّا.

وهكذا وجدنا اهتمام الكويت بهذا الحدث وتتبعنا لآثاره.

ثم آن أوان رد الزيارة من قبل الرئيس التركي كنعان ايفرين، وقد حضر إلى البلاد في يوم السبت الموافق للعشرين من شهر مارس لسنة ١٩٨٢م، وكان وصوله في تمام الساعة الحادية عشرة والنصف، وحضر سمو الشيخ جابر الأحمد الجابر الصباح وعدد من كبار رجال الدولة إلى مطار الكويت الدولي لكي يكونوا في استقباله، وكان من ضمن هؤلاء سمو الشيخ سعد العبدالله السالم الصباح، وصاحب السمو الأمير الشيخ صباح الأحمد الجابر، والوزراء وعميد السلك الدبلوماسي.

وقد بادر الرئيس الزائر والوفد المرافق له فيما بعد ظهر يوم وصوله بزيارة محافظة الاحمدي، وقد تفقدوا معرض شركة نفط الكويت، وأحد مراكز تجميع النفط من الآبار، ومصنع إسالة الغاز، والرصيف الجنوبي حيث يتم تصدير النفط.

وحضر الضيوف في مساء اليوم نفسه مأدبة عشاء أقامها سمو الشيخ جابر الأحمد في قصر السلام على شرفهم.

وزار الرئيس التركي كنعان ايفرين في الساعة التاسعة والنصف من صباح يوم الاحد ١٩٨١/٣/٢١م صاحب السمو الشيخ جابر الأحمد الجابر بقصر السيف، وعقد الرجلان مباحثات رسمية بينهما. وقد أعقب هذه المباحثات تصريح صدر عن وزير شؤون الديوان الأميري مفاده أن المباحثات قد تركزت حول قضايا العلاقات الثنائية بين البلدين الشقيقين في مختلف المجالات، كما تناولت الوضع الدولي بشكل عام، وسادها جو ودي تميز بالتفاهم وروح الأخوة.

وعندما انتهت المباحثات بادر الأمير إلى عمل جيد عبر فيه عن تقديره لضيفه وذلك بأن اصطحبه في زيارة لمحطة الدوحة البخارية، وميناء الدوحة، حيث قاما بتفقد كافة المنشآت والمرافق القائمة هناك. وعندما حان وقت الغداء تناول الأمير وضيفه وكافة المرافقين غداء خاصاً في أبراج الكويت كان على شرف الجنرال كنعان ايفرين؛ الذي استقبل بعد ظهر ذلك اليوم رؤساء البعثات الدبلوماسية في الكويت، ثم قام بزيارة السفارة التركية هنا.

وقبل أن يغادر الضيف قام بعقد مؤتمر صحافي شرح فيه سياسة بلاده ومواقفها من القضايا المختلفة، كما أجاب على أسئلة الصحفيين. وكان انعقاد هذا المؤتمر في صباح يوم الإثنين الثاني والعشرين من شهر مارس لسنة ١٩٨٢م.

وفي أعقاب انتهاء الزيارة صدر بيان كويتي - تركي مشترك احتوى على نتائج المباحثات التي تمت بين الطرفين وآثار هذه الزيارة على المستوى القريب والبعيد.

وهذا هو نص البيان كما ورد رسمياً:

«بناء على دعوة من سمو الشيخ جابر الأحمد الجابر الصباح أمير الكويت قام الجنرال كنعان ايفرين رئيس جمهورية تركيا يرافقه وفد رسمي بزيارة رسمية لدولة الكويت في الفترة من ٢٠ إلى ٢٢ مارس ١٩٨٢.

وقد استقبل الضيف والوفد المرافق له استقبالاً حاراً يعكس علاقات الصداقة المتينة بين الكويت وتركيا.

وفي جو أخوي دارت محادثات رسمية بين الجانبين التركي والكويتي وقد لاحظ الجانبان بارتياح التطور المطرد في العلاقات بين البلدين الصديقين القائمة على التراث والروابط الإسلامية وأكدا تصميمهما على تعزيز العلاقات في مختلف المجالات.

وفي مجال بحثهما للوضع الدولي أكد الجانبان تأييدهما لمبادئ ميثاق الأمم المتحدة وأكدا من جديد إيمانهما بأن الأمن والسلام العالميين لا يمكن تحقيقهما إلا من خلال احترام المبادئ الأساسية للعلاقات الدولية القائمة على احترام السيادة والاستقلال وعدم التدخل في الشؤون الداخلية وحل النزاعات بالطرق السِّلميّة.

وعبر الجانبان عن قلقهما المتزايد حول الوضع الخطير في منطقة الشرق الأوسط الناجم عن سياسات إسرائيل العدوانية والتوسعية ضد الشعوب والدول العربية وأكّدا من جديد قناعتهما بأنه لا يمكن إحلال السلام العادل والدائم والشامل في هذه المنطقة دون الانسحاب الإسرائيلي من جميع الأراضي العربية المحتلة والاعتراف بالحقوق الوطنية المشروعة والثابتة للشعب الفلسطيني بما في ذلك حقه في إقامة دولته المستقلة. وفي هذا الصدد أكد الجانبان من جديد على تأييدهما لمنظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني وضرورة مشاركتها في كافة الجهود الرامية إلى إحلال السلام في المنطقة.

وأدان الجانبان الإجراءات الإسرائيلية الأخيرة حول مرتفعات الجولان المحتلة كما أدانا الأعمال العدوانية الإسرائيلية ضد أمن لبنان والسكان الأبرياء فيه وأكد الجانبان على أهمية الحفاظ على سيادة لبنان وسلامته الإقليمية ووحدته الوطنية في ظل سلطته الشرعية.

وعبر الجانب الكويتي عن تقديره للموقف العادل الذي تقفه تركيا والمساند للقضايا العربية بما فيها القضية الفلسطينية.

وأكد الجانبان على ضرورة تعزيز التضامن والتعاون بين الدول الإسلامية في مختلف المجالات مما يسهم في تعزيز دور منظمة المؤتمر الإسلامي.

وعبر الجانبان عن قلقهما البالغ لاستمرار النزاع المسلح بين العراق وإيران وأعربا عن أملهما في التوصل إلى حل سلمي سريع لهذا النزاع القائم بين الدولتين الإسلاميتين وفي هذا الصدد أكد الجانبان من جديد تأييدهما للمساعي التي تبذلها لجنة المساعي الحميدة الإسلامية.

كما عبر الجانبان عن قلقهما حيال الوضع في أفغانستان وأكدا على ضرورة التوصل إلى حل سلمي على أساس احترام سيادة واستقلال أفغانستان.

وأكد الجانبان من جديد بأن الحفاظ على الأمن والاستقرار في منطقة الخليج هو مسؤولية دوله وحدها.

كما عبرا عن ارتياحهما للتقدم الذي حققه مجلس التعاون لدول الخليج العربية في جميع المجالات بما يتفق مع أهداف وطموحات شعوب الدول الأعضاء في هذا المجلس.

وأكد الجانبان قناعتهما بوجود إمكانات واسعة لزيادة التعاون الاقتصادي بين بلديهما كما لاحظا بارتياح التقدم الملموس في هذا المجال إثر الزيارة التي قام بها سمو أمير البلاد لجمهورية تركيا.

وفي هذا الصدد لاحظ الجانبان إمكانية التعاون في إقامة مجمع رئيسي للأسمدة الكيماوية في تركيا كما أكدا أيضًا أن هناك إمكانات للتعاون بين البلدين في مجال البتروكيماويات كما لاحظ الجانبان بارتياح نشاطات الصندوق الكويتي للتنمية الاقتصادية العربية في مجال البنى الأساسية في تركيا وأن هناك امكانات لمساهمة الصندوق في مشروعات أخرى في تركيا.

كما أعرب الجانبان عن رغبتهما في تطوير الاتصالات بين المؤسسات الكويتية والتركية في مجال الصناعة والتجارة والسياحة والمقاولات كما لاحظ الجانبان العلاقات المتطورة بين البلدين في المجالات البنكية والمالية وقررا دعم هذه النشاطات وتعزيزها.

ومن أجل دفع التقدم في مجال تعاونهما الاقتصادي وقع الجانبان اتفاقية خاصة بالتعاون الاقتصادي والصناعي والفني تنص بين أمور أخرى على إنشاء لجنة اقتصادية مشتركة تعقد اجتماعات سنوية منتظمة لدراسة التقدم في العلاقات بين البلدين في تلك المجالات.

كما أعرب الجانبان عن قناعتهما بأن تطوير علاقاتهما الاقتصادية سيسهم بتحقيق المصلحة المشتركة لشعبيهما.

وعبر الجنرال كنعان ايفرين رئيس جمهورية تركيا عن امتنانه البالغ لما لقيه والوفد المرافق له من استقبال حار ووجه دعوة إلى سمو الأمير للقيام بزيارة رسمية لتركيا. وقد قبلت هذه الدعوة بسرور.

هذا وقد كانت محصلة الزيارتين مهمة جدًّا، إذ تمت خلالهما تقوية الصلات بين مسؤولي البلدين، كما تم افتتاح طرق جديدة للعمل بين الكويت وتركيا في مجالات عدة. وفيما يتعلق بتبادل وجهات النظر فقد لاحظنا كثيرًا من التطابق فيها مما تعبر عنه دومًا سياسة البلدين الصديقين، بل الشقيقين.

وفي الختام نذكر أن اسم هذا الرئيس كاملًا هو: أحمد كنعان إيفرين، ولد في اليوم السابع من شهر يوليو لسنة ١٩١٧م، وتولى الحكم بصفته رئيسًا للدولة في شهر سبتمبر لسنة ١٩٨٠م، ثم زار الكويت، وزاره الشيخ جابر الأحمد الصباح في تركيا، وكان قد أجرى هو وبعض رفاقه انقلابًا في بلده استولى بسببه على السلطة، وذلك في السنة التي تولى فيها الحكم، ثم فاز في انتخابات رئاسة الجمهورية، وصار رئيسًا للجمهورية التركية منذ اليوم التاسع من شهر نوفمبر لسنة ١٩٨٢م.

وإيفرين من إحدى محافظات تركيا، تعلم في عدد من مدارس هذه المحافظة ثم في اسطنبول، وأنهى دراسته في الأكاديمية العسكرية في سنة ١٩٤٩م، وتدرج في العمل العسكري حتى وصل إلى رتبة رئيس أركان الجيش في شهر مارس لسنة ١٩٧٨م.

وقد حلت به أزمة كبرى حين أطيح به بعد ذلك، وكانت وسائل الإعلام قد تحدثت عن وضعه هذا فجاء في حديثها:

«وُجِّهت – رسميًّا – إلى قائد الانقلاب العسكري التركي في ١٩٨٠م كنعان إيفرين وشريك آخر له لايزال حيًّا تهمة ارتكاب جرائم ضد الدولة مع المصادقة على محضر الاتهام الذي أعد ضدهما كما ذكرت وكالة أنباء الأناضول التركية.

وطلب الادعاء إنزال عقوبة السجن المؤبد مع الأشغال الشاقة بإيفرين وتحسين شهينكايا قائد سلاح الجو آنذاك، اللذين يبلغان من العمر على التوالي ٩٤ عاماً و٨٦ عاماً وكلاهما في وضع صحي سيء.

والعسكريان السابقان اللذان كانا ضمن مجموعة من خمسة جنرالات استولت على الحكم، خضعا لاستجواب مدعين عامين في الصيف الماضي وأعلن مدعي أنقرة الأسبوع الماضي أنه أعد محضر اتهام ضدهما، هو الأول في قضية الانقلابيين في تركيا.

وقد صادقت إحدى محاكم أنقرة على محضر الاتهام مما يمهد الطريق لإجراء محاكمة.

وكانت التعديلات الدستورية التي أقرت في استفتاء العام ٢٠١٠م مهدت أمام مقاضاة المسؤولين عن الانقلاب الذي جرى في الثاني عشر من أيلول / سبتمبر ١٩٨٠م.

وكان الدستور التركي الصادر في ١٩٨٢ يتضمن مادة توفر حصانة لكنعان إيفرين وشركائه في الانقلاب وتحول دون مقاضاتهم.

إلا أن الحكومة الحالية المحافظة ذات الجذور الاسلامية برئاسة رجب طيب أردوغان تبنت عبر استفتاء في ٢٠١٠م تعديلات دستورية في إطار مساعيها للحد من النفوذ السياسي للجيش الذي أطاح بثلاث حكومات في السابق».

وقد رفض إيفرين هذه الإجراءات، وأعلن أنه عندما قام – هو وزملاؤه – بالانقلاب فذلك من أجل إنقاذ البلاد من اتساع دائرة العنف من قبل الجماعات اليسارية واليمينية التي نشطت قبل وقوع انقلابه مباشرة.

ولكن انقلابه هذا أدى إلى وقوع مشكلات كثيرة لعدد كبير من الناس، فقد تم – حينها – إلقاء القبض على ستمائة ألف شخص، تم تعذيب عدد كبير منهم، وأبلغ المئات بأنهم يواجهون حكم الإعدام، وتم – فوراً تنفيذ حكم الإعدام بستين شخصاً من هؤلاء. وكان هذا كافياً لاسقاط النظام وحلول نظام مدني في مكانه.

****

سبعة من رؤساء الدول
في الكويت سنة ١٩٨٢ (١) [١]

انفتحت الكويت على العالم خلال سنة ١٩٨٢م على نطاق واسع، وقام رجالها وبخاصة أهل العقد والحل منهم بزيارات رسمية متعددة للخارج مصحوبة بأنشطة سياسية مهمة. وكانت الحياة في وطننا كثيرة الأحداث تمر بها الأعمال المختلفة وينهض أميرها وتنهض حكومتها بالعمل في كل مجال. ولذا فقد كانت محط أنظار العالم، وكثر زوارها من رؤساء الدول ورؤساء الحكومات من كل مكان، ولئن كنا قد تحدثنا في مقال سابق عن زيارة مشابهة فإن هذا المقال لهو استكمال لما فات، وتوثيق لهذه الفترة المهمة من حياتنا وهي فيما نراه فترة ذهبية ارتفع فيها اسم الكويت وتوثقت علاقاتها مع الدول في مختلف أنحاء العالم. وقبل أن نخوض في موضوعات الزيارات فإن من المستحسن أن ندلي ببعض المعلومات عن النشاط الكويتي الذي شهدناه إبان سنة ١٩٨٢م:

- تأسست في هذه السنة بضع شركات كان لها دورها في تنمية الاقتصاد الكويتي ومنها الشركة الكويتية لصناعة وتجارة الجبس، والشركة الكويتية لزراعة النخيل، والشركة الاستثمارية الكويتية المصرية وقد كانت باسم: «شركة صباح الأول المصرية الكويتية للاستثمار».

وبهذه المناسبة نذكر أن عددًا من الهيئات والشركات قد افتتحت في الكويت من قبل جهات خارجية، إضافة إلى إنشاء مؤسسة الخليج للاستثمار.

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠١٢/٦/١٣.

- تم في هذه السنة افتتاح عدد من السفارات في الكويت منها سفارة البرتغال، وفي المقابل افتتحت الكويت سفارات لها في كل من جيبوتي والبرتغال.

- ووقعت الكويت على عدد من الاتفاقيات الدولية، وشاركت في مؤتمر القمة العربي الثاني عشر الذي تم عقده في مدينة فاس المغربية.

- وتأسست الهيئة العامة للتعليم التطبيقي والتدريب فكانت خطوة لإمداد البلاد بالعمالة الفنية من أبنائها.

وليست هذه إلا نماذج قليلة لما تم في تلك السنة التي كانت من أكثر السنوات غزارة من حيث الإنتاج والتطوير.

وكان طبيعيًّا أن تشهد الكويت عددًا من الزيارات التي يقوم بها رؤساء الدول، فقد كانت هذه البلاد مركزًا من مراكز الاتصال العالمي، وكان يُنظر إليها بوصفها دولة فاعلة في معالجة القضايا الإقليمية على اختلاف أنواعها.

وهنا سوف نذكر أربع زيارات قام بها إلى دولة الكويت رؤساء بعض الدول وسوف نذكرهم كما يلي:

أولًا: الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة، الذي قدم إلى الكويت في اليوم الخامس من شهر أبريل لسنة ١٩٨٢م، واستمرت زيارته لمدة ثلاثة أيام كان فيها محل الحفاوة والتقدير، وأجرى مع سمو الشيخ جابر الأحمد الجابر الصباح أمير دولة الكويت آنذاك محادثات دارت حول تعزيز العلاقات بين البلدين، وجرى فيها بحث تطورات الأوضاع العربية، كما تم استطلاع الأحوال العامة في المنطقة وما يجري فيها من أحداث.

اهتمت الكويت كلها شعبًا وحكومة بهذه الزيارة، وأولاها أمير البلاد كل اهتمامه، ولقد عبرت وكالة الأنباء الكويتية (كونا) عن مظاهر هذا الحدث فقالت

في نشرة لها إن سياسة دولة الإمارات العربية ترتكز على الانتماء إلى الوطن العربي، والتمسك بعلاقات متينة مع كافة الدول العربية، وكان الشيخ زايد قد قال: «حققت سياستنا الخارجية أهدافها الرامية إلى تدعيم الروابط الأخوية مع دول الخليج العربي والإسلامي وتعزيز علاقات التعاون مع دول العالم بأسره».

ثم تحدثت الوكالة عن جهود هذه الدولة في المجال العربي، وبيَّنَت سياستها الخليجية التي تعتمد على تعزيز التضامن بين دول الخليج مما أدى إلى مولد مجلس التعاون الخليجي في سنة ١٩٨١م، وكان ذلك في عاصمة الإمارات: أبو ظبي في الخامس والعشرين من شهر مايو للسنة ذاتها.

وتحدثت – كذلك – عن حرص حكومة الإمارات على التعاون مع كافة المنظمات الدولية، ومنها منظمة أوبك، من أجل إقرار سياسة نفطية مستقرة تحقق المصالح المشروعة للدول المنتجة للنفط.

تقف دولة الإمارات العربية موقفًا متوازنًا مع كُلِّ القضايا الدولية. وموقفًا داعمًا للقضايا العربية، وعلى رأسها قضية فلسطين. فهي مع الشعب الفلسطيني في استعادة أراضيه، وكافة حقوقه الشرعية ومواقفها هذه مشابهة لمواقف الكويت في هذا المجال، ومشابهة – أيضًا – لمواقف الدول الخليجية العربية الأخرى.

ومما أعلن عن سياستها أنها «تقف إلى جانب السلام العالمي القائم على المبادئ الإنسانية القويمة وعلى العدل والتمسك بالقيم الحقة» وهي كذلك عضو فاعل في حركة عدم الانحياز، تلتزم بمبادئ هذه الحركة، وتدعو إلى تحقيق أهدافها.

ودولة الإمارات العربية المتحدة تهتم إلى جانب ذلك كله بدعم حركات التحرير التي يناضل القائمون بها ضد العنصرية والاستعمار. وتهتم – كذلك – بقضايا نزع السلاح، وترى أن هذا الأمر ضروري، ولا بد منه إذا أردنا للدول وبخاصة الصغيرة منها الاستقرار والعيش في سلام واطمئنان.

هذا وقد سارت دولة الإمارات العربية متقدمة إلى الأمام عامًا فعامًا، ولقد كان من أهم بوادر تقدمها أن كونت هذه الإمارات العربية فيما بينها هذه الدولة الموحدة التي جمعت شتات الإمارات، وساعدت على رقيها وتقدمها، وسيرها الحثيث إلى الأفضل.

ويضاف إلى ذلك ما حدث لها من تطور في الايرادات بعد أن توسعت في إنتاج النفط، وما قامت به من مشروعات التنمية الأخرى التي عمّت الإمارات كلها.

غني عن الذكر أن نقول إن الكويت ترتبط بهذه الدولة العربية الشقيقة برباط من الود والصداقة، وبينهما كثير من تبادل الزيارات والمنافع، ويجمعها بها الآن مجلس التعاون لدول الخليج العربية.

ثانيًا: وفي يوم الاثنين العاشر من شهر مايو لسنة ١٩٨٢م وصل الكويت سمو الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة أمير دولة البحرين التي صارت مملكة في عهد الشيخ حمد بن عيسى آل خليفة وصار جلالة الشيخ حمد بن عيسى ملكًا عليها.

ولم تنقطع الصلات يومًا بين الكويت والبحرين، فالزيارات بين مسؤولي البلدين متواترة ومتعددة، وهذه الزيارة من ضمن ذلك الأسلوب الذي تم اتباعه منذ ماضي البلدين الشقيقين، هذا وللبحرين تاريخ عريق، ولها أعمال واضحة في سجل الخليج العربي، ولقد صدر يوم الزيارة الكريمة بيان عنها جاء فيه:

«استطاعت البحرين أن تضع نفسها رغم إمكانياتها ومواردها المحدودة في طليعة شعوب منطقة الخليج تطورًا وفهمًا للواقع المحيط بها بكل ظروفه.. وذلك في ظل أميرها سمو الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة.. وقد ولد سموه في مدينة المنامة في الثالث من شهر يوليو عام ١٩٣٣م، وتلقى تعليمه الأولي والثانوي في مدينة المنامة، ونودي به وليًا للعهد عام ١٩٥٨م، وقد تقلد مناصب الحكم بعد وفاة والده الشيخ سلمان بن حمدان آل خليفة في اليوم الثاني من شهر نوفمبر عام ١٩٦١م.

إن إعلان استقلال البحرين في ١٤ أغسطس عام ١٩٧١م من أهم الأحداث في عهد سموه، وكذلك تم انتخاب مجلس تأسيسي في الأول من ديسمبر عام ١٩٧٢م مهمته صياغة دستور للبحرين وهو الذي تمت الموافقة على مواده في اليوم الثاني من شهر يونيو عام ١٩٧٣م، وعمل به في اليوم السادس من شهر ديسمبر عام ١٩٧٣م.

وجرت أول انتخابات تشريعية في البحرين في عهد الشيخ عيسى وذلك في السابع من ديسمبر ١٩٧٣م.

ولقد جرت في البحرين أنشطة اقتصادية وثقافية وسياحية كثيرة تمت في عهد الشيخ عيسى بن سلمان، ومنها:

- وضع حجر الأساس لمشروع الشركة العربية لبناء وإصلاح السفن في اليوم الثلاثين من شهر نوفمبر لسنة ١٩٧٤م، ولحق ذلك في شهر ديسمبر وضع حجر الأساس لمشروع الحوض الجاف.

- في اليوم العاشر من شهر مايو لسنة ١٩٨١م تم الاحتفال ببدء العمل بمشروع البتروكيماويات.

- وجرى التوسع في الإنتاج النفطي، وذلك بعد أن تملكت البلاد شركة نفط البحرين المحدودة بالكامل.

وفوق كل ذلك فقد ازدهرت الرعاية الصحية هناك، وتقدم نظام التعليم، ومنذ تاريخ هذه الزيارة حتى يومنا هذا جرت عدة أعمال تدل على الرغبة الشديدة في مسابقة الزمن من أجل التقدم والرقي بالبلاد. ولعل مشروع الجسر الذي يربط البحرين بالمملكة العربية السعودية من أهم الدلائل على الاهتمام بفتح آفاق التواصل بين دول الخليج. ولقد قال الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة يومًا: «وإذا أولينا وجهنا شطر أشقائنا في دول الخليج فسنرى أطر التعاون والتكامل بيننا في شتى المجالات تتجه إلى الطريق الصحيح الذي يجمع شعب المنطقة ويؤمن

مستقبلها ويدفعها نحو التقدم والنمو ويضمن لها الحماية والأمن النابع من ذاتها المنبثق من قدرتها واعتمادها على أبنائها وهذا التنسيق المتواصل ليس وليد الساعة بل هو انعكاس لأسس متينة نابعة من وحدة التاريخ واللغة والدين والمصير يزداد رسوخًا مع الأيام.. ليس أدل على ذلك من تلك المؤسسات الصناعية والاقتصادية المشتركة المنتشرة في أرجاء الخليج».

وأضاف: «ولعل ما أنجز من خطوات على طريق التكامل والتنسيق الخليجي كان حصيلته الحتمية انبثاق مجلس التعاون لدول الخليج العربية ليمثل نقلة حضارية كبيرة وحدثًا تاريخياً مهمًّا له أبعاده المختلفة بين الدول المشاركة فيه، التي تربطها وشائج قوية وعلاقات وثيقة ماثلة على مر الأجيال ويتوج تجربتها التكاملية الرائدة.. تعميقًا وتأهيلًا لتلك الروابط مع الارتقاء بها إلى أسمى الغايات التي تحقق أماني شعوبها وتضعها على عتبة تاريخ جديد من العزة والتقدم».

ثالثاً: في اليوم السادس عشر من شهر أكتوبر لسنة ١٩٨٢م وصل إلى الكويت ضيفا على أميرها وشعبها وحكومتها، أيريش هونيكر الأمين العام للجنة المركزية للحزب الاشتراكي الألماني الموحد، وهو في الوقت نفسه رئيس مجلس الدولة لجمهورية ألمانيا الاتحادية.

كان المرحوم الشيخ جابر الأحمد الجابر الصباح أمير دولة الكويت آنذاك قد دعاه إلى زيارة البلاد للاطلاع على ما فيها من أنشطة متنوعة، ولإجراء عدد من الباحثات التي تتناول الموضوعات ذات الصفة المشتركة، ولتمتين العلاقات بين رجال الدولة الألمان الشرقيين، ورجال الدولة الكويتيين، مع العمل على توثيق وتقوية الروابط والعلاقات الثنائية الطيبة التي تربط بين البلدين الصديقين وشعبيهما.

كانت العلاقات بين الكويت وألمانيا الشرقية قد بدأت قبل بضع سنوات من التاريخ الذي تمت فيه الزيارة، وكانت هذه العلاقات تنمو منذ نشأت بشكل مستمر حتى كللتها زيارة الرئيس هونيكر للكويت.

أعلن في الكويت عن هذه الزيارة، وصدر بيان رسمي بثته وكالة الأنباء الكويتية (كونا) وأذاعته إذاعة دولة الكويت، وبثه تلفزيونها. وفيه بيان عن أهمية الزيارة، وما يُنتظر أن تُسفر عنه من نتائج طيبة تعود فوائدها على البلدين. وجاء في بداية البيان حديث عن ألمانيا الشرقية وعن قيادتها، ومما جاء فيه: «برزت جمهورية ألمانيا الديموقراطية إلى الوجود في أعقاب الحرب العالمية الثانية التي أدت إلى وقوع ألمانيا كلها تحت الاحتلال العسكري الرباعي لقوات الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وفرنسا والاتحاد السوفيياتي. وفي عام ١٩٤٩ أعلن عن قيام جمهورية ألمانيا الديموقراطية في المنطقة التي كانت محتلة من السوفيات والتي تبلغ مساحتها حوالي ١٠٧٢٢٦ كليو مترًا مربعًا ويبلغ عدد سكانها زهاء ١٨ مليون نسمة وعاصمتها هي برلين (القطاع الشرقي منها) وتضم مقاطعات براندنبورغ ومكلنبورغ وترنجيا وسكسونيا، - أنهالت. وتقع ألمانيا الديموقراطية في الجزء الشمالي الشرقي من أوروبا ويغلب على طبيعة أرضها أنها منبسطة ومنخفضة وتكثر فيها المزارع والغابات والبحيرات وتحدها من الشمال الشرقي بولونيا بينما يحدها شمالًا بحر البلطيق ومن الغرب والجنوب جمهورية ألمانيا الفيدرالية ومن الجنوب الشرقي تشيكوسلوفاكيا».

وألمانيا الديموقراطية بلد نشيط يسعى دائماً إلى إثبات وجوده في شتى المجالات، وله قدرة صناعية كبيرة؛ وإنتاج صناعي يجري تسويقه في مختلف دول العالم، كما أن لها انتاجاً زراعياً لا بأس به. وهي تسير على المنهج الاشتراكي ويتولى الحكم فيها الحزب الاشتراكي الألماني الموحَّد الذي قام هناك في سنة ١٩٤٦م. وكان والتر أولبرخت أول رئيس لمجلس الدولة الألماني الديموقراطي. وقد عمل كثيراً من أجل وطنه، وقام بعدة أعمال منها الانضمام إلى معاهدة وارسو، وعضوية منظمة الكوميكون وهي السوق المشتركة للدُّول الاشتراكية.

وقد ظهر منذ البداية أنه على الرغم من أن هذه الدولة قد انشغلت في بداية عهدها بمواجهة المسؤوليات التي تطلبتها مرحلة الإنشاء، وبناء المجتمع الذي يمثل

الطور الجديد لحياة الألمان في هذا الشطر من بلادهم التي اتحدت فيما بعد، وعادت بلداً واحداً كما كان قبل الحرب العالمية الثانية.

على الرغم من كل ذلك فإن انشغال حكومة ألمانيا الديموقراطية بتصفية التركة التي ورثتها عن الحرب، ومنها السعي إلى ترميم علاقاتها الداخلية والأوروبية والدولية وتهيئة الظروف المعيشية المناسبة للشعب في هذه الفترة وفي ما يأتي من الزمان؛ فقد قامت بين الدول العربية وألمانيا الديموقراطية علاقات وثيقة متطورة، تنمو باستمرار على كافة الصُّعُد، سواء أكان ذلك من الناحية السياسية أو الاقتصادية أو الثقافية. وهذه الزيارة التي قام بها الرئيس الألماني الشرقي إلى الكويت وأشرنا إليها في بداية هذه الفقرة من حديثنا حين ذكرنا البند الثالث من المقال هي نموذج من نماذج العمل الذي بدأ منذ قيام هذه الدولة، وكانت الكويت أحد خطوط الاتصال مع الوطن العربي حين آن الأوان لزيارتها وتوثيق الصلة بها.

بدأت العلاقات الدبلوماسية بين الكويت وألمانيا الديموقراطية منذ أواخر سنة ١٩٧٢م. وقد حصل بين البلدين تقارب شديد منذ نشأت هذه العلاقات، وكان من أهم ما ساعد على نمو الاتصال الثنائي بين الكويت وألمانيا الديموقراطية ما ظهر بصورة واضحة من خلال تقارب وجهات نظر البلدين في كثير من القضايا التي تهم العالم مثل قضايا السلام العالمي، ونزع السلاح والموقف من مظاهر التفرقة العنصرية والاستعمار، أما فيما يتعلق بقضايا الشرق الأوسط وقضايا العرب المصيرية، فإن تقييم البلدين لها متشابه، ولقد كانت ألمانيا الديموقراطية معجبة بمواقف دولة الكويت الهادفة إلى الرغبة الشديدة في نشر السلام في العالم، وعملها في إطار حركة دول عدم الانحياز، وأشادت كذلك باستمرار الكويت في بذل المساعي والجهود في سبيل إقامة علاقات متوازنة ومتطورة مع دول العالم أجمع دون تفرقة في المواقف، ودون أية نظرة تدل على التمييز، وهذا الأمر هو أساس العلاقات الطيبة السائدة بين البلدين وبينهما مع دول العالم، وقد أعربت هذه البلاد

في يوم ما عن أنها: «تحترم رغبة الكويت، ودول أخرى في منطقة الخليج في ضمان الأمن في الإقليم بنفسها، دون السماح لأي وجود أجنبي غير مرغوب فيه».

نقدم بعد كل ذلك بعض الملاحظات المتعلقة بتاريخ العلاقات بين البلدين مع بيان تطورها قبل وبعد نشأة العلاقات الدبلوماسية بينهما:

– لا تظن أن العلاقة بين البلدين الصديقين، مجرد علاقة بُنيت على ما تقتضيه السياسة الخارجية بحقولها المتعددة، فقد كانت هناك علاقات مباشرة ذات أصول محلية، منها إقامة ملحقية تجارية لألمانيا الديموقراطية في الكويت في شهر يناير لسنة ١٩٨٠م، وذلك قبل أن تنشأ بينها وبين الكويت علاقات دبلوماسية بمعنى الكلمة. ففي الوقت الذي ذكرناه قبل قليل وقلنا إن العلاقات الدبلوماسية تمت فيه تحولت القنصلية التجارية إلى قنصلية عامة.

– بعد سنة ١٩٧٢م، جرى تأسيس لجنة مشتركة للتعاون الاقتصادي والتقني والثقافي بين الدولتين، وعقدت هذه اللجنة عدة اجتماعات منها ما كان في سنة ١٩٧٥م، وسنة ١٩٧٧م وسنة ١٩٧٩، وقد خطت الدولتان بهذه الاجتماعات خطوات كبيرة في مجال التعاون، ومجال تطوير العلاقات الاقتصادية بينهما، وساهم في ذلك توقيع اتفاقية تجارية طويلة الأجل في شهر يونيو لسنة ١٩٧٥م، وكان في نية البلدين أن تتطور هذه الاتفاقية بحيث تصبح في حالة فعالية أكثر.

– تستورد دولة الكويت من ألمانيا الديموقراطية كثيراً من السلع الاستهلاكية كالمنسوجات والسجاد والزجاج، كما تستورد الرافعات التي تستعمل في المواني، وكذلك القاعات المبنية من المعادن الخفيفة، وهناك إمكانات أخرى عديدة يُتوقع أن تمد بها الكويت مثل منتجات الصناعات التي تنظر إليها الكويت نظرة الاهتمام.

– وخطت العلاقات بين البلدين خطوة أخرى مهمة عندما أبرما اتفاقية صحية في شهر يوليو لسنة ١٩٨٢م، وقد أعد لها برنامج عملي يكفل سرعة تطبيقها، ويحقق جدواها.

وبعد فهذه لمحة عن الرئيس الألماني الشرقي آيريش هونيكر وعن بلاده. والرئيس من مواليد سنة ١٩١٢م، نشأ في عائلة من العمال، وقد بدا لي أنه دمث الخلق من واقع مرافقتي له خلال زيارته إلى الكويت. وكان والده عضواً في الحزب الشيوعي الألماني، وفي نقابة عمال المناجم. وقد قاده هذا الأمر إلى الانخراط في الحزب وصولاً إلى قيادته. وفي خلال عمله عايش العمال، ورأى شقاءهم فأخذ على عاتقه أن يعمل من أجلهم مهما كلفه ذلك من جهد ومشاق. ولقد تقدم في مراتب الحزب سريعاً بسبب مقدرته التنظيمية، وفهمه للأمور.

ودفعت به المناصب المهمة التي تقلدها في الحزب إلى الصدارة.

وفي خلال فترة نضاله هذه تعرض إلى كثير من المشكلات وحكم بالسجن على أعماله التي يرى أنه قام بها من أجل التحرر ولم يخرج من السجن إلا على أيدي الجنود الروس الذين اقتحموا السجن الذي كان فيه بعد احتلالهم لهذا الجزء من ألمانيا، وقد كانت هذه فرصته الوحيدة لنيل حريته المسلوبة.

وقد كان دخول الروس إلى القسم الشرقي من ألمانيا وخروجه من السجن إيذانًا له بالانفتاح على الدنيا، والتقدم في مضمار الحياة الخاصة به؛ إذ تقلب بعد ذلك في المناصب العليا حتى وصل إلى المنصب الذي زار الكويت وهو يحتله: «الأمين العام للحزب الشيوعي الموحد، ورئيس مجلس الدولة».

أما ألمانيا الشرقية فهي الجزء الذي استولى عليه الشيوعيون في أعقاب الحرب العالمية الثانية. وصارت السيطرة فيه لهؤلاء مدعومين من الاتحاد السوفييتي. وقد جرى لهذه الدولة مايلي:

بدأ ظهورها إلى الوجود باحتلال الاتحاد السوفييتي جزءاً من ألمانيا الكبرى، وذلك في اليوم السابع من شهر أكتوبر لسنة ١٩٤٩م، وبدأت فيها حكومة شيوعية منذ ذلك الوقت وكانت مستعمرة روسية إلى أن اعترفت روسيا بها دولة مستقلة ذات

سيادة في اليوم الخامس والعشرين من شهر مارس لسنة ١٩٥٤م، وكان الاحتلال الروسي قائماً فيها. وقد عانت هذه البلاد أشد المعاناة من النواحي الاقتصادية والسياسية إلى أن اتجهت في منتصف القرن الماضي إلى اتجاه اقتصادي جديد بغية حل المشكلات التي حلت بها، فانتهجت أساليب جديدة تخرجها من أزمتها حين قامت بإنتاج الصناعات الثقيلة، وعززت وجودها الاقتصادي أكثر.

وفي سنة ١٩٨٩م فرّت أعداد كبيرة من الألمان الشرقيين إلى ألمانيا الغربية عن طريق هنغاريا وتشيكوسلوفاكيا، وقامت مظاهرات عديدة في الداخل ضد الحكومة، فتمت إقالة هونيكر، وفتحت الحدود في السنة نفسها مع ألمانيا الغربية، وتم حل البوليس السياسي السِّري، ووعد خلفاء هونيكر بإجراء انتخابات جديدة متعددة الاحزاب، ولكن الأمر اختلف في اليوم الثالث من شهر أكتوبر لسنة ١٩٩٠م حين تم الاتفاق بين الألمانيتين على إعادة توحيدهما. وهذا هو ماجرى بعد ذلك.

****

ملحاق خير

من أهم ما جنته ألمانيا نتيجة للحرب العالمية الثانية هو تقسيمها إلى قسمين: غربي تحت سيطرة القوات الأمريكية والانجليزية والفرنسية، وشرقي تحت سيطرة القوات السوفييتية. وهذا ما قسَّم البلاد وعاصمتها برلين إلى أقسام بحسب هذه القوات. وفي سنة ١٩٤٩م قامت ألمانيا الغربية الاتحادية في المناطق المحتلة بغير السوفييت وقامت ألمانيا الديموقراطية (الشرقية) في المناطق المحتلة من السوفييت. ونتيجة لذلك فقد نشأ كيانان لهذا البلد الكبير وانقسم انقسامًا جذريًّا، ولم يكف وقوع الانقسام على البلاد بل شمل العاصمة، فصارت برلين مقسمة بين الدولتين، وصارت للدولة الغربية عاصمة مؤقتة هي (بون) بينما بقيت عاصمة الدولة الشرقية أو على الأصح نصفها تحت سيطرة الشرقيين ذلك لأن برلين كلها تقع داخل ألمانيا الديموقراطية.

ولقد لاحظ الألمان الشرقيون أن الفرق الاقتصادي بين الشطرين كان واسعًا مما حدا بكثيرين منهم إلى الهجرة غربًا مما أثر على موطنهم الأصلي، وجعل الحكومة الشرقية تلتفت إلى هذا النزيف البشري بلغ عددهم منذ سنة ١٩٤٩م حتى سنة ١٩٦١م قرابة ثلاثة ملايين شخصٍ كلهم من الكفاءات، وقد لفتت هذه الهجرة نظر حكومة ألمانيا الشرقية إلى ضرورة وضع حدٍّ لها فقامت بعمل حواجز ضمن برلين لكي تفصل بين جزأيها، وتمنع الهجرة المذكورة، وقد كانت البداية في وضع بعض الأسيجة والحواجز على الطرف الشرقي من برلين تتولى الإشراف

عليها شرطة الحدود والحرس. ولقد تراجعت برلين الشرقية بعد ذلك في مقابل الازدهار الذي شهدته برلين الغربية بعد أن أصبحت بمثابة ولاية من ولايات ألمانيا الغربية التي نهضت من كبوتها واستأنفت تقدمها.

ولما لم يكف ذلك الإجراء قامت حكومة ألمانيا الشرقية ببناء سور متين وطويل يحجز ما بين القسمين الشرقي والغربي، وقد وجدت أن هذا هو الحل الوحيد المؤدِّي إلى منع الهجرة، وصيانة الدولة.

إذن فإن سور برلين الشهير كان جدارًا طويلًا يتكفل فصل شطري برلين والبلاد المحيطة بها في ألمانيا الشرقية بحيث يتم تحجيم المرور بين الشطرين. وقد بدأ بناؤه في اليوم الثالث عشر من شهر أغسطس لسنة ١٩٦١م ثم قامت الدولة الألمانية الشرقية بتحصينه على مر السنين، وبعد فترة من الزمن، وإثر تغير الأحوال تم فتح هذا السور في اليوم التاسع من شهر نوفمبر لسنة ١٩٨٩م، ثم هدم بعد ذلك بصورة نهائية، وصار خبرًا من الأخبار.

ولقد اعتبر الألمان الشرقيون انهيار هذا السور انتصارًا لهم على العزلة، وبداية لتطوير حياتهم إلى الأفضل وشاهدنا على أجهزة التلفاز تزاحم عدد كبير منهم على اجتيازه إلى الجانب الغربي تعبيرًا عن سعادتهم بما حصل، وتتويجًا لجهاد طويل بدأه هؤلاء بعد انهيار الاتحاد السوفييتي، واعتبار الوضع القائم في ألمانيا الديموقراطية لا معنى له، ولا داعي لاستمراره، ما دامت الجهة التي تبنت النظام الشيوعي في هذا الجزء من ألمانيا قد زالت من الوجود.

بعد إقامة سور برلين بسنتين على الأكثر تلقت دولة الكويت دعوة من حكومة ألمانيا الاتحادية تتضمن ترحيبها باستقبال شخصين لزيارة تلك البلاد على أن يكونا من العاملين في مجال الإعلام أو ما يتصل به، ولقد أسعدني أن أكون أحد هذين الشخصين، أما الشخص الثاني فكان الأخ المرحوم علي زكريا الأنصاري.

ذهبنا معًا إلى هناك وزرنا عددًا من المناطق الألمانية ثم كانت النهاية في برلين. وهناك أتيحت لنا الفرصة لمشاهدة جدار برلين. ولم نكتف بذلك بل ذهبنا إلى داخل برلين الشرقية وشاهدنا آثار الحرب وكأنها لم تتوقف إلا بالأمس. وعلى عكسها كانت برلين الغربية تتمتع بكافة مزايا الحياة الحديثة.

ولقد عُدنا من زيارتنا ونحن نتحدث عن هذه المفارقة، ثم نؤكد أن هذه الرحلة لو لم تفدنا بالنظر إلى ما نظرنا إليه في تلك الزيارة إلى شرقي برلين لكفى.

****

سبعة من رؤساء الدول

في الكويت سنة ١٩٨٢ (٢) [١]

نستمر هنا في حديثنا عن زوار الكويت من رؤساء الدول الذين كان حضورهم للزيارة في سنة ١٩٨٢م.

ولئن كنا قد تحدثنا عن عدد من الزوار في المقال السابق رقم (١) فإن من سوف نتكلم عنهم في هذا المقال هم:

أولاً: زيارة الرئيس الهنغاري:

ولكي نتحدث عن موضوع هذه الزيارة فإننا ينبغي أن نذكر شيئاً عن زيارة سمو المرحوم الشيخ جابر الأحمد الجابر الصباح لهنغاريا، وقد تمت هذه الزيارة في الفترة من اليوم الرابع عشر من شهر سبتمبر لسنة ١٩٨١م حتى اليوم السادس عشر من شهر سبتمبر لسنة ١٩٨١م. وكانت زيارته هذه ضمن زيارة طاف خلالها بعدد من دول البلقان الأوروبية.

ثم صدر في أعقاب الزيارة الأميرية بيان جاء فيه: «عبَّر صاحب السمو الشيخ جابر الأحمد الجابر الصباح أمير دولة الكويت عن شكره للجانب الهنغاري لما لقيه سموه من استقبال أخوي، وكرم الضيافة، وتقدم صاحب السمو الشيخ جابر الأحمد الجابر الصباح بدعوة لفخامة بال لوشونتسي رئيس المجلس

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠/٦/٢٠١٢.

الرئاسي في جمهورية هنغاريا الشعبية، للقيام بزيارة رسمية للكويت، وقد قبلت هذه الدعوة بالشكر».

ولقد لبى الرئيس الهنغاري الدعوة فحضر إلى الكويت زائراً وحل ضيفاً على أمير البلاد في اليوم الحادي والثلاثين من شهر أكتوبر لسنة ١٩٨٢م وامتدت زيارته حتى اليوم الثالث من شهر نوفمبر للسنة ذاتها. وقد أعلن وقتذاك أن هذه الزيارة قد تمت من أجل توثيق عرى الصداقة القائمة بين الشعبين الكويتي والهنغاري، وسيرًا على النهج القائم بين البلدين الصديقين.

وجمهورية هنغاريا الشعبية، هي التي كانت تسمى المجر وتقع في أوروبا الشرقية بين الاتحاد السوفييتي والنمسا وتشيكوسلوفاكيا ورومانيا ويوغوسلافيا، والجدير بالذكر أن بلدين من هذه البلدان قد تغير شكلهما بانفصال بعض أجزائهما عن البعض الآخر فصارت هذه الدول اكثر مما ذكرناه هنا.

تتكون عاصمة هذه الدولة من قسمين يفصل بينهما نهر الدانوب الشهير، وهما بودا وبست، فصار الأهالي يطلقون على هذين القسمين مجتمعين: بودابست.

ترتبط هنغاريا بالدول العربية برباط من الصداقة، والتعاون في شتى المجالات، وتتبادل معها المصالح المشتركة اقتصاديًّا وسياسيًّا، وتلتقي معها في وجهات النظر المختلفة.

وكما أشرنا قبل قليل فإن سمو الشيخ جابر الأحمد الجابر قد قام بزيارة هنغاريا قبل زيارة الرئيس المجري للكويت وقد كتبت وكالة كونا الكويتية عن هذه الزيارة ما يلي:

وعند وصول سمو الأمير إلى مطار بودابست يوم ١٤ سبتمبر ١٩٨١ ألقى كلمة قال فيها «يطيب لي في البداية أن أنقل لكم تحيات شعب الكويت إلى الشعب

الهنغاري الذي نكن له الإعجاب والاحترام. وانه لمن دواعي المسرة والاعتزاز لنا جميعاً أن نزور بلدكم الجميل الذي تربطنا به صداقة عميقة. لقد جئنا إلى بلدكم بناء على دعوة من فخامة رئيس الدولة تدفعنا رغبة كبيرة للتعرف على بلادكم وشعبها ولتطوير علاقات الصداقة التي تربط بلدينا وتعزيز مجالات التعاون المشترك وتبادل وجهات النظر لما فيه صالح البلدين».

وإلى جانب الترحيب والاستقبال الرسمي والشعبي الحافل الذي استقبل به سمو الشيخ جابر الأحمد الصباح خلال زيارته للجمهورية الهنغارية فقد دارت محادثات رسمية في مبنى البرلمان – في العاصمة بودابست بالاجتماع المغلق الذي نوقشت خلاله العلاقات بين الكويت وهنغاريا والمسائل الرئيسية التي تهم البلدين على صعيد السياسة الدولية، وعقد الوزراء والمسؤولون الكويتيون والهنغاريون – في الوقت نفسه – محادثات رسمية تناولت سبل تطوير التعاون بين البلدين في شتى المجالات.

وقد أشار البيان الكويتي الهنغاري المشترك إلى أن الجانبين «لاحظا التطور المضطرد للتعاون بين بلديهما في المجالين الاقتصادي والمالي. كما لاحظا أيضًا الإمكانيات المتوافرة لمواصلة التعاون المثمر بينهما وعبر الجانب الهنغاري عن استعداد بلاده بعد موافقة دولة الكويت لزيادة مشاركتها في تنفيذ خطط التنمية في الكويت.

كما اتفق الطرفان على استكشاف الإمكانيات في زيادة تعاونهما في الأسواق الخارجية».

وقد جاءت وجهات النظر متطابقة بين الكويت وهنغاريا حيال الوضع الدولي، وفيما يهم البلدان من قضايا السلام وأمن العالم وتخفيف حدة التوتر الدولي فأعرب الجانبان في البيان المشترك عن «تأكيدهما لبذل الجهود من أجل تعزيز

الأمن والسلام في العالم وعبرا عن قلقهما حيال التدهور في الوضع الدولي وأكدا ضرورة تعزيز وتقوية الوفاق الدولي كما أعربا عن قناعتهما التامة بأن العلاقات بين الدول يجب أن تقوم على أساس الاحترام المتبادل وعدم التدخل في الشؤون الداخلية وعدم استخدام القوة، واحترام السيادة والاستقلال والسلامة الإقليمية. كما طالبا بوقف سباق التسلح وتحقيق نزع السلاح الشامل والعام وخاصة في المجال النووي وكذلك الحد من إنتاج الاسلحة الإستراتيجية كما أكد الجانبان على أهمية تعزيز دور الأمم المتحدة في حل النزاعات الدولية».

وبعد الزيارتين تطورت العلاقات بين الكويت وهنغاريا تطورًا واضحاً، سواء أكان ذلك في الاطار الاقتصادي الذي يمثله استيراد عدد من البضائع الهنغارية او افتتاح خطوط الطيران بين البلدين، أم في الإطار السياسي من حيث تماثل وجهات النظر في القضايا المختلفة.

ثانيًا: زيارة الرئيس الروماني:

هذه هي زيارة الرئيس الروماني نيكولاي تشاوتشيسكو، التي قام بها للكويت في اليوم السابع والعشرين من شهر نوفمبر لسنة ١٩٨٠م. وكانت ليوم واحد فقط. وقد كانت هذه هي زيارته الثانية للبلاد، بعد زيارته الأولى التي قام بها في شهر مارس لسنة ١٩٧١م.

ولقد كانت العلاقات الكويتية الرومانية من أكثر العلاقات نمواً في مجالات مختلفة، وبخاصة وأن الكويت كانت حريصة بشكل دائم على إقامة علاقات متوازنة مع مختلف الدول.

تقع رومانيا في وسط بلدان شبه جزيرة البلقان، وموقعها هذا متميز حيث يحيط بها الاتحاد السوفييتي، ويوغوسلافيا وهنغاريا والبحر الاسود. وقد طرأ

عليها بعد فترة من زيارة رئيسها للكويت تطور كبير غير منهجها السياسي وأطاح بهذا الرئيس، وذلك بعد سقوط الاتحاد السوفييتي.

وإذا أردنا أن نعرف نشأة النظام القائم في رومانيا وقت زيارة تشاوتشيسكو للكويت فإننا لابد من أن نعود إلى بداية الأربعينيات من القرن الماضي، ففي اليوم الثالث والعشرين من شهر أغسطس لسنة ١٩٤٤م انتصرت الثورة الشعبية وأقامت الجمهورية هناك في سنة ١٩٤٦م، ومنذ ذلك الوقت ورومانيا تشهد المزيد من التقدم في ميادين الصناعة والزراعة والعلوم والتعدين والنفط.

وقد ورد في أحد المصادر عن السمات العامة لهذا البلد الاشتراكي ما يلي: «والاقتصاد الروماني في مجمله اقتصاد موجه يعتمد على النهج الاشتراكي لرومانيا، وبلغت معدلات النمو فيه ١٤,٣ ٪ سنوياً خلال الفترتين بين ١٩٤٩ و١٩٧٣ وبعد إنجاز عدد من الخطط التنموية سارت خطط التنمية الرومانية في خطوط متوازنة فأعطت قدرًا من الاهتمام للصناعة الاستهلاكية في الوقت نفسه. وشهدت صناعات الآلات والمعدات اللازمة لتطوير إنتاج البلاد، وصناعات الاسمنت والأخشاب وحديد التسليح طفرات هائلة بحيث غطت احتياجات البلاد وقدمت رصيداً للتصدير الخارجي.

أما في مجال النفط فقد قفز الإنتاج الروماني منه من ١٤,٧ مليون طن عام ١٩٧٧ إلى ٥٦,٥ مليون طن عام ١٩٨٠ وينتظر أن يصل إلى ٨٨ مليون طن عام ١٩٨٥ وطورت رومانيا مصادر أخرى للطاقة وذلك لعدم كفاية النفط لاحتياجاتها المتزايدة من الطاقة، فبدأت في إقامة محطات توليد الكهرباء النووية بهدف إنتاج ٣٩٦٠ ميجاوات عام ١٩٩٠، هذا بخلاف اهتمامها بمصادر الطاقة الأخرى كالفحم والكهرباء المائية».

والجدير بالذكر أن هذا الحديث على أهميته إنما يعبر عن فترة الحكم الشيوعي في البلاد، وقد تغير ذلك كما سبق أن أشرنا عقب الإطاحة بتشاوتشيسكو.

ثالثًا: زيارة رئيس بوروندي:

هذه زيارة قام بها رئيس إحدى الدول الأفريقية للكويت بدأت في اليوم الرابع من شهر ديسمبر لسنة ١٩٨٢م، وكان الزائر هو الرئيس جان باتيست باجازا. والزيارة رسمية استغرقت ثلاثة أيام، جرت خلالها محادثات مَثَّلَ الرئيس المذكور فيها وطنه بوروندي، وكانت الحكومة الكويتية متفتحة لمثل هذه المحادثات حريصة على نجاحها.

بوروندي من الدول الواقعة على نهر تنجانيقا في أفريقيا الوسطى، وعاصمتها بوجمبوره، وهي أكبر مدنها.

خضعت بوروندي للسلطة الألمانية ضمن أفريقيا الشرقية التي كانت تلك البلاد جزءاً منها. بعد ذلك صارت بوروندي تحت الانتداب البلجيكي، وانضمت إلى الأمم المتحدة في سنة ١٩٦٢م. وهذه البلاد موضع صراعات كثيرة. ولم تهدأ الأمور فيها إلا في سنة ١٩٧٤م حين أعلن الدستور الجمهوري للدولة، وصار فيها حزب شرعي وحيد كان قد تأسس في سنة ١٩٥٨م وفي سنة ١٩٧٦م أطاح الجنرال جان باتست باجازا بالحكم الذي سبقه، وشكل وزارة جديدة.

وهو من مواليد سنة ١٩٤٦م وتلقى تعليمه في العاصمة البلجيكية: بروكسل، وكان قبل استيلائه على الحكم في بوروندي مساعداً لرئيس أركان جيش بلاده.

الظروف الاقتصادية في بوروندي غير مواتية، وذلك بسبب كثرة الانشقاقات، وبسبب الحرب الأهلية التي نشأت بين مجموعتي التوتسي والهوتو، ونتج عنها قتل ذريع بين الطرفين، وتأثرت البلاد اقتصاديًّا وتوقفت فيها حركة الإنتاج إلى أن جرى

على نطاق دولي انهاء هذه المأساة البشرية الساحقة. ومع ذلك فلم تكن بوروندي من الدول ذات الإمكانات المالية المتيسرة، ولم تكن تملك المقدرة على الإنتاج الكبير في المجال الذي بدا أنه الوحيد أمامها من أجل إتاحة الفرصة لشعبها للكسب المعيشي والحياة الهانئة. وعلى كل حال فإن أهم ما يعتمد عليه اقتصاد هذه الدولة هو الزراعة، وهي تمثل أهم نشاط للسكان اذ يعمل ٨٥ ٪ منهم في هذا المجال وهم ينتجون عدداً من المحاصيل منها: البن والشاي، والقطن والموز والأرز، والسكر، والبطاطا الحلوة. ولكن البن هو أهم صادرات بوروندي وقد ساهم في سنة ١٩٩٧ بما مجمله ٩٣ ٪ من إيرادات الصادرات التي أرسلتها البلاد إلى الخارج.

وهناك أمل لهذا البلد في مجال التعدين ففي بوروندي ما يمثل ٢ ٪ من الاحتياطي العالمي من رواسب النيكل، وهناك أمل بالعثور في البلاد على اليورانيوم والنفط والبحث مستمر في بعض المناطق عنهما.

ولهذه الدولة اهتمام كبير بالتعاون الاقتصادي الدولي فهي في سنة ١٩٧٦م خطت خطوة موفقة في هذا المجال عندما ساهمت في شهر سبتمبر من السنة المذكورة مع زائير ورواندا في إقامة «المجموعة الاقتصادية لبلدان البحيرات العظمى».

ووقعت في سنة ١٩٧٤م اتفاقية تجارية مع دول السوق الأوروبية المشتركة.

وهي تحصل إضافة إلى ذلك على مساعدات كثيرة من دول عربية وغير عربية ومن البنك الدولي وبعض صناديق التنمية.

أما فيما يتعلق بمسألة الاتصالات بين الكويت وبوروندي بما في ذلك العلاقات ذات الطبائع المختلفة معها، فقد صدر عن ذلك تقرير يقول:

«قام وزير خارجية بوروندي بزيارة الكويت في عام ١٩٧٧، حيث أجرى محادثات مع المسؤولين حول توثيق التعاون الثنائي بين البلدين، وامكانية مساهمة الكويت في المشروعات الاستثمارية في بوروندي.

كما قدم الصندوق الكويتي للتنمية لجمهورية بوروندي قرضاً بمبلغ ١,٧٥ مليون دينار في عام ١٩٧٧، للمساهمة في تمويل مشروع طريق بوجمبورا - موتامبارا، وذلك بالاشتراك مع بنك التنمية - الأفريقي وصندوق الأوبك للتنمية الدولية، ولارتفاع التكاليف الاجمالية للمشروع إلى ما يعادل ٦,٣٥ ملايين دينار فقد وافق كل من الصندوق الكويتي والبنك الافريقي للتنمية على المساهمة بتمويل التكاليف الإضافية حيث بات نصيب الصندوق الكويتي نصف مليون دينار مضافاً للقرض السابق تقديمه فيصبح الاجمالي ٢,٢٥ مليون دينار.

وهناك مشروعات قيد البحث سيمولها الصندوق الكويتي، مثل المشروع الريفي المتكامل في «انجوزي» والذي يهدف إلى رفع مستوى المعيشة في منطقة انجوزي عن طريق توفير الخدمات الأساسية للمواطنين وتحسين طرق معيشتهم وزيادة مداخيلهم من الزراعة».

إن الزيارة التي قام بها رئيس بوروندي إلى الكويت والزيارات الرسمية المتبادلة الأخرى لهي دليل على رغبة وطننا في تمتين علاقاته مع دول العالم مهما كان حجمها ومهما بعدت عن منطقتنا التي نعيش فيها. وهذه سياسة رشيدة تكفل استمرار ذكر الكويت في كل مكان.

رابعاً: زيارة رئيس جمهورية جيبوتي للكويت.

زارنا في الكويت يوم الثاني عشر من شهر ديسمبر لسنة ١٩٨٢م رئيس جمهورية جيبوتي حسن جوليد ابتيرون.

تعد هذه الجمهورية من أعضاء المنظومة العربية، فهي منذ اليوم الثالث من شهر سبتمبر لسنة ١٩٧٧م عضو في جامعة الدول العربية تحت رقم (٢١). ولذلك

فقد كانت علاقاتها مع الدول العربية تتنامى باستمرار. وهذه الزيارة التي يقوم بها رئيس جمهورية جيبوتي للكويت دليل على دوام الاتصال مع الدول العربية.

كانت هذه البلاد تحت سيطرة فرنسا منذ سنة ١٨٩٥م، وكانت جزءاً مما كان يسمى: «الصومال الفرنسي»، ولكن الدعوة إلى الاستقلال التي ارتفعت في انحاء تلك المنطقة وفي العالم الثالث بشكل عام، أدى بفرنسا إلى محاولة الخروج من المأزق فاستعانت بالأمم المتحدة التي أجرت تحت إشرافها استفتاء على استقلال جيبوتي كانت نتيجته لصالح الاستقلال وكان ذلك بالتعاون مع جامعة الدول العربية. ونتيجة لما حدث فقد تم في اليوم الخامس عشر من شهر مايو، لسنة ١٩٧٧م تشكيل حكومة جديدة برئاسة حسن جوليد الذي تم انتخابه في اليوم الرابع والعشرين من شهر مايو للسنة ذاتها رئيساً للجمهورية، وتم اعلان استقلال البلاد رسمياً عن فرنسا في اليوم السابع والعشرين من شهر يونيو لسنة ١٩٧٧م.

وبالإضافة إلى ما ذكرناه عن انضمام جيبوتي إلى جامعة الدول العربية، فإن المسيرة الأولى لاستقلالها كانت كما يلي:

«دخلت جيبوتي بالإضافة إلى جامعة الدول العربية في عضوية منظمة الوحدة الأفريقية في اليوم السابع من شهر يونيو لسنة ١٩٧٧م، وصارت عضوًا في منظمة الأمم المتحدة في اليوم العشرين من شهر سبتمبر لسنة ١٩٧٧م. ومنظمة المؤتمر الاسلامي في اليوم الرابع والعشرين من شهر إبريل لسنة ١٩٧٨م، وصارت عضوًا في مجموعة الدول غير المنحازة في اليوم العشرين من شهر إبريل لسنة ١٩٧٨م، وانضمت إلى صندوق النقد الدولي في اليوم التاسع والعشرين من شهر ديسمبر لسنة ١٩٧٨م.

وهكذا أخذت جيبوتي صفتها الدولية المستقلة بأسرع وقت ممكن».

وكانت في تلك البلاد خمس منظمات سياسية هي بمثابة أحزاب، وقد بقيت تعمل قبل الاستقلال وبعده حتى سنة ١٩٨١م، ولكن البلاد أقرت في السنة ذاتها قوانين نصت على الأخذ بنظام الحزب الواحد، وهو «حزب المجتمع الشعبي» تتكون السلطة التشريعية من مجلس النواب، والسلطة التنفيذية هي الحكومة، والنظام العام المأخوذ به هناك هو النظام الرئاسي.

من جهة أخرى فإن الإمكانات الاقتصادية في جيبوتي ضعيفة إلى حد ما، فالأراضي قليلة الخصوبة، والزراعة ضعيفة والمراعي شبه معدومة، وكل هذا يؤثر في الدخل القومي الذي يعتمد عند الدول المجاورة على الزراعة والثروة الحيوانية، ولما وجدت الحكومة هناك أن الرعاة في حاجة إلى دعم يتيح لهم القيام برعي مواشيهم، وتنمية ثروتهم من الأغنام على قلتها وضعف حيلتهم فقد لجأت إلى إجراء دراسة واسعة تقوم بها الجهات المختصة في الحكومة بمساعدة هيئات إقليمية وعالمية من أجل تطوير مصادر المياه الجوفية، وقد بدأ مشوار العمل بالفعل، وحفرت آبار عميقة كثيرة، وكانت لهذه الجهود تطوير محدود للمساحة المزروعة ونشاط بَيِّن في أعمال صيد السمك منذ سنة ١٩٨١.

أما في مجال الصناعة فان هذا النشاط ضئيل، وليس في تلك البلاد إلا مصنع للقناني، وآخر إقامته دولة الكويت لإنتاج الألبان ومشتقاتها.

ويلاحظ المرء حرص حكومة هذه البلاد على نشر التعليم والعمل السريع من أجل بث الروح العلمية بين المواطنين، ومنذ الاستقلال انتشرت المدارس ومراكز التدريب المهني. ولا شك في أن قطاع الخدمات القائم هناك في حاجة إلى العاملين المتعلمين ذوي الاختصاص الذين تحرص الحكومة على إعدادهم لتحمل هذا العبء، وفي مقدمة الأعمال في هذا القطاع الميناء والمطار، وسكة الحديد التي تربطها مع أديس أبابا عاصمة أثيوبيا. إضافة إلى الخدمات المصرفية الناشئة.

تحدثت وكالة كونا الكويتية عن العلاقات التي تربط دولة الكويت بجيبوتي في شهر ديسمبر لسنة ١٩٨٢م فقالت: «زار الرئيس حسن جوليد الكويت للمرة الأولى في مارس ١٩٧٨م ضمن جولة له شملت عدداً من الدول العربية لضمان أمن ومساندة بلاده معنوياً وماديًّا، وفي يناير ١٩٨٠ زار وزير خارجيتها الكويت حيث عرض الوضع في القرن الأفريقي خلال لقاء له مع نائب رئيس الوزراء وزير الخارجية - آنذاك - الشيخ صباح الأحمد. وفي فبراير عام ١٩٨٢م زار وزير الصناعة في جيبوتي الكويت لبحث تمويل مشروع للكهرباء.

وتساهم الكويت في دعم الاقتصاد الجيبوتي حيث قدم الصندوق الكويتي للتنمية الاقتصادية العربية قرضًا بقيمة ١,٥ مليون دينار لبناء أول مصنع متكامل لإنتاج الألبان هناك. ولم تزد فائدة القرض عن ٢ ٪ ويسدد على ٣٠ قسطاً خلال عشرين سنة. واستهدف المشروع إنتاج ألفي لتر في الساعة من الحليب بخلاف المشتقات الأخرى.

وما زال الصندوق الكويتي يدرس تقديم قرض آخر لذلك البلد العربي لتطوير ميناء جيبوتي ليستقبل سفن النقل الكبيرة وإصلاح حوض السفن والأرصفة التجارية. وتقدر تكاليف المشروع بحوالي ٦,٤ ملايين دينار يغطي منها الصندوق ٥٤ ٪ تسدد على ٢٢ سنة بعد فترة سماح مدتها خمس سنوات».

لئن شهدت الكويت هذه الزيارات المتعددة من رؤساء الدول الذين تحدثنا عن زيارتهم لها في المقالين رقم (١) و(٢) من الأزمنة والأمكنة، فانها قد شهدت عدة زيارات لبعض كبار المسؤولين في العالم، كما عقدت على أرضها مؤتمرات متعددة ونجمل هنا بعض ما يسمح المجال بذكره، لأن وجوده بعد كل ما تقدم فيه فائدة تزيد من قيمة الموضوع لأن ما قصدناه من نشر هو الإشارة إلى مكانة الكويت بين دول العالم، وإقبال المسؤولين في هذه الدول على زيارتها وتوثيق الصلات بها.

وهذه ثلاثة موضوعات يتعلق فحواها بما سبق وهي:

١ - عقد مكتب التنسيق التابع لدول عدم الانحياز اجتماعه في الكويت في اليوم السادس من شهر إبريل لسنة ١٩٨٢م، وقد حضر هذا الاجتماع وزراء الخارجية وهم مندوبو الدول الأربع والثلاثين الأعضاء في المكتب، وحضر معهم ممثلو تسع هيئات ومنظمات دولية، ومندوبو أكثر من عشرين دولة طلبت حضور اجتماع المكتب بصفة مراقب.

افتتح صاحب السمو الشيخ صباح الأحمد الجابر الصباح هذا اللقاء بصفته ممثلاً للكويت العضو والدولة المضيفة، وكان يومذاك نائب رئيس مجلس الوزراء ووزيراً للخارجية، وقد كان هذا الاجتماع مهتماً بكافة قضايا الدول الأعضاء ومن تلك القضايا: قضية فلسطين التي كان المجتمعون يحرصون على أن تنال أكبر قدر من الاهتمام بما في ذلك اعتماد أفضل الوسائل والطرق المؤدية إلى دعم القضية المذكورة في كافة السبل النضالية والسياسية.

ومما ينبغي ذكره هنا أن اللقاء الذي تم في الكويت وحضره وزراء خارجية دول حركة عدم الانحياز، وهو الذي تم كما قلنا في اليوم السادس من شهر إبريل لسنة ١٩٨٢م، كان يستهدف التمهيد لعقد مؤتمر دول الحركة السابع الذي تقرر في مؤتمر هافانا الكوبية قبل ثلاث سنين أن يكون في بغداد في شهر سبتمبر من السنة التي يعقد خلالها هذا اللقاء في الكويت.

تم اللقاء المذكور في أجواء صعبة جداً، وهو من أجل ذلك ضروري لتباحث منظومة دول عدم الانحياز حول الأحداث التي أثارت تلك الأجواء. فهناك مشكلة الحرب العراقية الايرانية ومسألة الانفجار الجماهيري في فلسطين المحتلة والجولان.

ومن أجل ذلك فقد عقدت شعوب المنطقة آمالاً كبيرة على هذا اللقاء وعلى الاجتماع الحاشد الذي سيأتي بعده.

٢ – في اليوم الرابع والعشرين من شهر نوفمبر لسنة ١٩٨٢م، عقد المجلس الوزاري لمنظمة الأقطار العربية المصدرة للنفط (أوابك) اجتماعًا في الكويت، وقد قصد أن يكون هذا الاجتماع سابقاً بمدة أسبوعين تقريباً لاجتماع منظمة أوبك في فيينا.

تمثل الأوابك عشر دول عربية منتجة للنفط وهي – بالطبع – تهتم بكل ما يتعلق بهذه السلعة النفيسة وبخاصة الأمور المتصلة بسوق النفط وبأسعاره.

نشأت هذه المنظمة العربية في شهر يناير لسنة ١٩٦٨م، وكانت تهدف إلى تنسيق السياسات النفطية بين الدول الأعضاء، وتسهيل التنسيق بين الأنظمة القضائية حتى تقوم المنظمة بتحقيق أهدافها دون معوقات. ثم تبادل المعلومات النفطية بين الدول الأعضاء، وتنفيذ مشروعات مشتركة بين هذه الدول في مجال الإنتاج النفطي وما يتعلق به، ولقد نشطت هذه المنظمة العربية نشاطاً واسعاً في حدود اختصاصاتها، وأنشأت مشروعات عدة ذات فائدة للدول الأعضاء. ولقد بدا جليًّا أن منظمة أوابك العربية كانت منشأة لابد من قيامها من أجل صيانة الثروة العربية وتوجيهها الوجهة المثلى.

٣ – وثالث الأمور هو زيارة رئيس وزراء اليونان للكويت في اليوم الحادي عشر من شهر أكتوبر باباندريو هو الذي كان في ذلك الوقت رئيساً لوزراء اليونان، وقد كانت زيارته بدعوة رسمية من سمو الشيخ سعد العبدالله السالم الصباح الذي قام باستقباله ومعه عدد من كبار المسؤولين في الحكومة الكويتية الحريصة على بناء علاقات متينة مع هذه الدول الأوروبية العريقة. ولا تحتاج اليونان إلى تعريف فهي

مشهورة بما فيه الكفاية يعرفها أبناء الكويت ويترددون عليها، ويعجبهم طقسها ومظاهر الحياة فيها.

تنمو العلاقات الكويتية – اليونانية نموًّا مطرداً، تشهد على ذلك الزيارات الكثيرة المتبادلة بين المسؤولين، والتوافق على كثير من القضايا. وكذلك تطور التبادل التجاري، واليونان من الدول التي تستورد النفط الكويتي بصفة مستمرة.

هذه هي المعلومات التي يهمنا طرحها فيما يتعلق بالزيارات التي قام بها عدد من كبار الضيوف إلى الكويت إبان سنة ١٩٨٢م.

****

الكويت وبلغاريا سنة ١٩٨٢م [1]

سعت الكويت منذ إلغاء اتفاقها التعاقدي مع بريطانيا في سنة ١٩٦١م إلى تمتين علاقاتها بدول العالم أجمع وذلك عبر الزيارات الرسمية، وتبادل التمثيل الدبلوماسي وتوقيع الاتفاقيات الاقتصادية والثقافية، وكافة ما يربط الكويت بالبلدان الأخرى من وسائل تمكن من دوام العلاقات وتنمية الاتصالات. وكان من أهم ما قامت به الكويت خلال سنة ١٩٨١م، هو قيام المرحوم الشيخ جابر الأحمد الجابر الصباح برحلة إلى بلاد البلقان التي زارها كلها وأجرى فيها مباحثات مفيدة، واطلع على أساليب الحياة فيها، وقد كانت لتلك الزيارة آثار مفيدة على المدى الطويل، وشهدت الكويت بعدها زيارة عدد من رؤساء دول هذه المنطقة، ومضت العلاقات الثنائية على أحسن ما يرام، بعد تلك المباحثات التي شهدت الكثير من التفاهم والتعارف.

كانت بداية زيارة المرحوم الشيخ جابر الأحمد الجابر الصباح لبلغاريا في اليوم الثاني عشر من شهر سبتمبر لسنة ١٩٨١م، وكانت زيارة ناجحة بكل المقاييس، وقد أتت نتائجها لصالح البلدين الصديقين. ولقد صدر بيان رسمي في أعقاب الزيارة جاء فيه: «وقد عبر صاحب السمو أمير دولة الكويت الشيخ جابر الأحمد الجابر الصباح عن تقديره البالغ للشعب البلغاري وقادته، لما لقيه من استقبال حار، ولقد وجه سموه دعوة إلى رئيس مجلس الدولة لجمهورية بلغاريا الشعبية فخامة تيودور جيفكوف للقيام بزيارة رسمية لدولة الكويت. وقد قُبلت هذه الدعوة بالترحيب والتقدير».

---

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠١٢/٦/٢٧.

وتلبية لهذه الدعوة فقد وصل الرئيس البلغاري إلى دولة الكويت في اليوم الخامس عشر من شهر مارس لسنة ١٩٨٢م، وقد أعلن أن هذه الزيارة إضافة إلى أنها تلبية للدعوة الموجهة إلى الرئيس البلغاري من أمير دولة الكويت فإنها تأتي في إطار توثيق العلاقات القائمة بين الشعبين الكويتي والبلغاري.

ترتبط بلغاريا مع الكويت برباط صداقة متين، ونحن نستورد منها كثيراً من البضائع، ولا سيما الغذائية، ومن أشهر الأجبان في الكويت نرى الجبن البلغاري الذي يُقبل عليه المواطنون إضافة إلى بضائع أخرى مماثلة.

وجمهورية بلغاريا الشعبية إحدى دول جنوب شرقي أوروبا، وتقع ضمن جزيرة البلقان التي تضم بضع دول صارت في فترة من الفترات تحت سيطرة الاتحاد السوفييتي والمعسكر الشيوعي إلى أن سقط النظام القائم في روسيا فاتخذت كل جمهورية طريقاً لها تسلكه بناء على الاختيار الحر من قبل شعبها.

تبلغ مساحة بلغاريا قرابة ١١٠٩١٢ كيلو مترًا مربعًا. ويصل عدد سكانها في ذلك الوقت إلى نحو تسعة ملايين نسمة ١٣ ٪ منهم مسلمون.

ومن الجدير بنا إيراده هنا هو ما ذكرته المراجع عن العلاقات العربية بما فيها الكويتية مع بلغاريا، وهي أمور لابد أن يحيط بها القارئ لأنها ذات جذور تاريخية عميقة، ترجع إلى سنوات ماضية ومما ورد في هذا الشأن:

«ترتبط بلغاريا بالأقطار العربية بعلاقات تاريخية تمتد إلى الفترة التي كانت هي وتلك الأقطار فيها تحت لواء السلطنة العثمانية، حتى جاءت معاهدة سان ستيفانو في عام ١٨٧٨ لتحرير بلغاريا التي خاضت الحربين العالميتين الأولى والثانية وانتهى بها الحال بقيام القوى اليسارية بتولي السلطة عندما تقلد جورجي ديمتروف رئاسة الوزراء في عام ١٩٤٦ وأصبحت بلغاريا جمهورية شعبية، وباتت

عضواً في المنظومة الاشتراكية وعضواً في معاهدة وارسو كما انضمت للأمم المتحدة في عام ١٩٥٥.

ومما يجدر بنا ذكره أن بين الكويت والدول العربية وبين بلغاريا علاقات ودية تقوم على أسس المصالح المشتركة والرغبة الصادقة في تطوير الروابط الطيبة وتنميتها باستكشاف حقول جديدة من التعاون، وتبادل وجهات النظر حول مختلف القضايا ذات الاهتمام المشترك».

هبطت الطائرة القادمة من الكويت وهي تقل صاحب السمو الشيخ جابر الأحمد الجابر الصباح والوفد المرافق له، في مطار صوفيا في التاريخ الذي ذكرناه قبل قليل. وقد بادر الشيخ بأن صرح بالتصريح التالي:

«لقد جئنا تلبية لدعوة من فخامة صديقنا الرئيس تحدونا رغبة أكيدة للتعرف إلى هذا البلد وشعبه، والتطلع نحو تطوير علاقات الصداقة الطيبة التي تربط بين شعبينا، ولاستكشاف مجالات جديدة من التعاون وتبادل وجهات النظر حول مختلف القضايا ذات الاهتمام المشترك، وإننا إذ نتطلع نحو كل هذا وأكثر؛ فإننا نأمل في أن تنتقل صداقتنا المبنية على أسس متينة من الثقة والاحترام من قوة إلى قوة».

وكان هذا الاستهلال للزيارة الأميرية دليلاً على النية الصادقة فهي التعاون مع هذا البلد بغية تمتين الصلات السياسية والاقتصادية معه، وحرصاً على إيصال صوت الكويت إلى هناك بصورة مباشرة.

كان الاحتفاء الحكومي والشعبي بالشيخ وصحبه، وكذا الاهتمام بالزيارة والتطلع إلى نتائجها من أهم ما لوحظ عليها، وكانت المحادثات الرسمية التي دارت خلال هذه الزيارة بين الجانبين تدور في جو من الصداقة والألفة، وتوقع الأفضل

لمستقبل العلاقات بين البلدين الصديقين، وكان التفاهم المشترك يشمل مجالات عديدة وبخاصة ما كان في ميادين الاقتصاد والسياحة والنقل والتجارة. ثم انتحت المباحثات ناحية أخرى فتناولت استعراض القضايا الدولية التي كانت محل اتفاق بين الطرفين في وجهات النظر.

هذا وبحضور أمير دولة الكويت والرئيس البلغاري تم التوقيع على برتوكول للتعاون بين الكويت وبلغاريا، وكان إحساس الطرفين بنجاح هذه الزيارة واضحاً من خلال ما ورد في البيان الكويتي البلغاري المشترك الذي أشار إلى أن الجانبين «لاحظا بارتياح التطور المضطرد في علاقتهما الثنائية وأكدا على مواصلة جهودهما لتطوير هذا النمو في مجالات التعاون المختلفة، واستعرضا نمو العلاقات الاقتصادية والتجارية، كما لاحظا أيضًا أن التطور المستمر في الاقتصادين الكويتي والبلغاري يوفر إمكانيات لزيادة وتنويع التعاون بين البلدين على أساس المنفعة المتبادلة. واعرب الجانبان عن رغبتهما واستعدادهما لزيادة التعاون بينهما في مجالات الزراعة والصناعة الغذائية والصحة والسياحة والمواصلات والاتصالات والبنية الأساسية وكذلك في المجال المالي والتجاري. كما ناقش الطرفان إمكانات التمويل المشترك لتحقيق بعض المشروعات في المجالات السابقة الذكر. واتفق الجانبان أيضًا على سبيل تعزيز وتنمية التعاون الاقتصادي والتجاري بين الكويت وجمهورية بلغاريا الشعبية. كما أكد الجانبان على أن تقوم اللجنة الكويتية البلغارية المشتركة في مجال التجارة بمواصلة جهودها لزيادة وتوسيع التعاون بما يعود بالنفع على البلدين».

وقد أسفر تطابق وجهات النظر بين الكويت وبلغاريا في مواقفهما من الشؤون السياسية الدولية وبخاصة فيما يهم البلدين من قضايا السلام وأمن العالم وتخفيف حدة التوتر الدولي عن تعبير الجانبين في البيان المشترك عن

«قناعتهما القوية بأن العلاقات الدولية يجب أن تقوم على أساس الاحترام المتبادل وعدم التدخل في الشؤون الداخلية للدول، وعدم استخدام القوة واحترام السيادة والاستقلال والسلامة الإقليمية ودعا الجانبان إلى حوار بناء وصادق وجاد بين الدول في مجال نزع السلاح والقضايا الدولية الاساسية. كما أكد الجانبان في هذا الصدد على أهمية تعزيز دور الأمم المتحدة في حل القضايا الدولية ورحب الجانبان بكافة الجهود الرامية إلى تعزيز وتقوية الأمن والتعاون في القارة الأوروبية. ولاحظ الجانبان بقلق شديد الوضع المتردي في منطقة الشرق الأوسط والناجم عن استمرار إسرائيل في سياستها العدوانية والتوسعية ضد الشعوب والدول العربية وأكدا على أن الحل العادل والدائم لمشكلة الشرق الأوسط لا يمكن أن يقوم إلا على أساس منح الحقوق الوطنية والثابتة للشعب الفلسطيني بما في ذلك حقه في إقامة دولته المستقلة على أرضه وتأمين الانسحاب الإسرائيلي الشامل من جميع الأراضي العربية المحتلة سنة ١٩٦٧م. كما أكد الجانبان في هذا الصدد على مواصلة دعمهما لمنظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني وعلى ضرورة مشاركتهما في كافة الجهود المبذولة لإيجاد حل عادل ودائم في منطقة الشرق الأوسط وأعرب الجانب الكويتي عن تقديره لمواقف جمهورية بلغاريا الشعبية المؤيدة للقضايا العربية».

ولم يكن هذا كل ما ورد في البيان المشترك المذكور فقد تطرق إلى مسائل أخرى منها أنه أدان كل من الطرفين الممارسات الاسرائيلية العدوانية ضد لبنان، وكذلك محاولة الدولة المعتدية الدائمة التدخل في الشأن اللبناني الداخلي، وانتهاك سلامة وأمن هذا البلد العربي والاعتداء الوحشي المستمر على سكانه الأبرياء، وأضاف البيان أنه لابد من تكثيف الجهود التي بها يتحقق السلام، ويتم الاستقرار في لبنان، كما يتم الحفاظ على أمنه وسيادته واستقلاله، بما في ذلك سلامته الإقليمية ووحدته في ظل سلطته الشرعية. ولم ينس الجانبان أن يؤكدا

على أن الأمن في منطقة الخليج من مسؤوليات دوله وحدها دون غيرها، ورفض الوفدان الكويتي والبلغاري أي تدخل أجنبي في هذا الشأن.

وإضافة إلى ذلك فقد أكد الجانبان على ضرورة التطبيق السريع لإعلان الأمم المتحدة الخاص بجعل المحيط الهندي منطقة سلام. وبعد هذا استعرضا الأوضاع الاقتصادية الدولية وأكدا أهمية زيادة التنمية للبلدان النامية، وضرورة بذل جهود أخرى من أجل إقامة النظام الاقتصادي الدولي الذي يقوم على أسس من العدالة والديموقراطية والمساواة، وضمان تملك كافة الدول لمصادرها الطبيعية وسيطرتها عليها.

وبناء على الروح الطيبة التي سادت اللقاء الكويتي البلغاري في زيارة الشيخ جابر الأحمد الجابر الصباح لصوفيا خلال سنة ١٩٨١م، فإن الزيارة التي يقوم بها الرئيس البلغاري للكويت سوف يكون لها ذلك الطابع الذي اتسمت به الزيارة الأولى.

إذ إنه لاشك في أن زيارة الرئيس البلغاري تيودورجفكوف ستؤدي إلى تحقيق نتائج مفيدة للبلدين على أكثر من صعيد بما في ذلك تطوير العلاقات بين الكويت والدول العربية من جهة وبلغاريا من جهة أخرى، وذلك يأتي انطلاقًا من التزام الكويت الدائم بأن الأنظمة السياسية والاجتماعية التي تعتنق نظريات قد لا تنسجم مع ما هو قائم في الكويت فإن ما تعتنقه تلك الدول من نظريات لا ينبغي أن يكون في يوم من الأيام حائلاً دون اتصال الكويت بغيرها، ولا مانعًا لتعاونها الإنساني مع دول العالم، لأن المهم هنا هو تشجيع التعاون على أساس التكافؤ في العلاقات وفي المصالح. ووجهة نظر الكويت هذه، وهي وجهة نظر سليمة قد أعلنت عنها البلاد دومًا وبشتى الطرق وهي التي أكسبت وطننا مصداقيته بين الأمم، وجعلته مثار إعجاب شديد، وموضع تقدير دائم.

هذا وبمناسبة زيارة الرئيس البلغاري إلى الكويت فقد أصدرت وكالة كونا الإخبارية الكويتية بيانًا عن سيرة الضيف، وقد بثته في اليوم الثامن من شهر مارس لسنة ١٩٨٢م ومما ورد في هذا البيان أن الرئيس تيودور جيفكوف كان قد ولد في شهر سبتمبر لسنة ١٩١١م، في قرية بلغارية جبلية صغيرة تبعد ٨٠ كيلو مترًا عن العاصمة صوفيا.

وكان والداه فلاحين بسيطين مُحبَّين لعملهما، وهما يملكان قطعة صغيرة من الأرض، ويبدو أن إنتاج هذه الأرض لم يعد كافيًا بعد أن أنجب الوالدان ابنين وابنة واحدة، فاضطر الأب للعمل مدة سنوات طويلة في أحد المصانع بصفته عاملًا، وذلك من أجل تحسين وضعه والصرف على أسرته الصغيرة.

«تميزت طفولة الرئيس جيفكوف بالعمل المرهق والحرمان، وكان يرعى المواشي ويساعد أمه في الحقل، ويتلقى تعليمه في المدارس المحلية، وقد درس لمدة سنتين في المدينة القريبة التي كانت مركزًا للمقاطعة، ثم ذهب إلى العاصمة وانتسب للمدرسة الثانوية لشؤون الطباعة، واضطر للعمل في المطبعة الحكومية ليستطيع مواصلة تعليمه وذلك سنة ١٩٢٩م، فأنهى تعليمه الثانوي والتحق بكلية الحقوق.

وأصبح تيودور جيفكوف أحد منظمي جيش الأنصار المسلح منذ سنة ١٩٤١م عندما عمت البلاد مقاومة الهتلرية، فنشط أيضًا كقائد للأنصار في الجبال وكمناضل سري للحزب في العاصمة، كما تولى خلال الانتفاضة الشعبية نفسها رئاسة مكتب العمليات المكلفة بتنسيق عمليات القوات الثورية في العاصمة.

وعند انتصار الثورة الشعبية في بلغاريا في التاسع من سبتمبر لسنة ١٩٤٤م أسقطت السلطة الفاشية وتشكلت حكومة الجبهة الوطنية. وأصبح تيودور جيفكوف بعد انتصار الثورة - بفترة قصيرة رئيسًا لبلدية العاصمة ثم شغل العديد من المناصب الحزبية والرسمية القيادية.

وقد أشرف على تنظيم دورة اجتماعات أبريل لسنة ١٩٥٦م - للجنة المركزية بصفته السكرتير الأول للجنة المركزية للحزب الشيوعي البلغاري.

وقامت الجمعية الشعبية بانتخاب جيفكوف رئيسًا لمجلس وزراء جمهورية بلغاريا الشعبية في نوفمبر - تشرين الثاني من عام ١٩٦٢م، ثم اختارته رئيسًا لمجلس الدولة خلال شهر يوليو تموز عام ١٩٧١م، وأصبح سكرتيرًا عامًا للجنة المركزية للحزب الشيوعي البلغاري منذ شهر أبريل لسنة ١٩٨١م».

هذا وعلى الرغم من أن حياة الرئيس جيفكوف قد بدأت في حالة ضنك شديد إلا أنه بذل جهده وطوَّر نفسه، وتعلم جيدًا، حتى استطاع بفضل اجتهاده وصبره الوصول إلى أعلى منصب في بلاده، وقد وُصف بأنه كان ماهرًا في الجمع بين النظرية والممارسة فهو لا يعيش في خيال محض، إذ إن الحياة وإدارة البلاد تتطلب منه الكثير من الجهد، ومن الاتصال بحقل الواقع. والرجل متزوج منذ سنة ١٩٢٨م من الدكتورة مارا ماليفا التي شاركته حياته بوجهيها، وأسهمت معه في النشاط السياسي.

في صيف سنة ١٩٧٨م قُدِّر لي أن اخترق بلغاريا من أولها إلى آخرها بالسيارة، وكانت رحلة جميلة صحبني فيها أولادي واستمتعنا معا بمشاهدات لا تخطر على بال، وبخاصة في الأماكن الجبلية وفي الغابات والحقول المليئة بأنواع المزروعات.

قدمت إلى هذه البلاد من تركيا، وكان آخر بلد في هذه المنطقة هي أدرنة التي كانت مليئة بالمساجد باعتبارها آخر بلاد الإسلام المطلة على أوروبا، ودخلنا إلى بلغاريا في مساء يوم حار وأول محطة هبطنا إليها كانت بلوفديف حيث بتنا إلى الصباح في أحد الفنادق. وفي الصباح الباكر عجلنا بالمسير. ولقد لفت أنظارنا خلال رحلتنا هذه ما يلي:

- الخضرة اليانعة التي تغطي السهول والمرتفعات على جانبي الطريق، وتملأ النفس انشراحًا وسروراً.

- وجدنا عدداً كبيراً من الفلاحين ينقلون بأيدهم ما يجمعونه من ألبان حصلوا عليها من أبقارهم إلى أماكن تجميع حكومية تتولى تصنيع هذا الإنتاج وتوزيعه.

- لاحظنا وجود بعض الأسواق التي تعتمد على ما نسميه البسطات، وهي تخص بعض الأشخاص الذين يبيعون بعض الخضار ومنتجات الألبان والخبز. وقد تذوقنا خبزهم البلغاري الأبيض اللذيذ، وكان شيء منه زاداً لنا في طريقنا إلى أن وصلنا إلى المحطة المقصودة وفق خطة سيرنا التي تنظمها خارطة الطريق.

ولاحظنا - أيضاً - أن عدد السكان قليل بالنسبة إلى مساحة أرض البلاد، وحتى العاصمة (صوفيا) كانت شبه خالية بالنسبة لعاصمة أوروبية، أما البضائع فكانت تعتمد فقط على الملابس والأحذية ودهن الورد الشهير هنا، وكل ذلك من إنتاج ذلك البلد.

- لا تخلو بلغاريا من الفنادق الملائمة والموتيلات التي يجدها المسافر على طريق السفر، ولكنها لا تصل إلى المستويات العالية علما بأن الدولة التي تأتي بعدها في طريقنا هي: يوغوسلافيا.

- انتبهنا ونحن نسير بالقرب من الحدود التركية - البلغارية إلى أعدادٍ كبيرة من المسافرين، رأيناهم أثناء دخولنا إلى بلغاريا، ورأيناهم - أيضاً - أثناء خروجنا منها، تمثل هذه الأعداد العاملين الأتراك في أوروبا وبخاصة في ألمانيا حيث يأتون في فصل الصيف إلى بلادهم الأصلية، ثم يعودون إلى مقر عملهم ولما كانت ألمانيا وما حولها من البلدان تضم أعداداً كبيرة من هؤلاء الأتراك فإنه لا عجب أن نرى هذه الأفواج الكبيرة القادمة إلى تركيا والخارجة منها وكان هذا الازدحام

من الأسباب التي تعطل حركة المسافرين العاديين، وقد قضينا فترة من الزمن ونحن ننتظر دورنا في الدخول والخروج. ولكن الرحلة تمت على خير وسعدنا بما شاهدناه خلالها.

هذا وإن الملاحظة الواضحة على سكان بلغاريا في ذلك الزمان أنهم على الرغم من حالة الفقر الشديد، والحاجة الماسَّة إلى كثير من الضروريات فإننا وجدناهم على خلق متين ووجدنا منهم الترحيب وحسن المعاملة ولطف الاستقبال.

لنذهب الآن إلى بلغاريا لمتابعة زيارة سمو الشيخ جابر الأحمد الجابر الصباح لها في سنة ١٩٨١م. وسوف تكون هذه المتابعة على هيئة نقاط حتى لا نُطيل في الحديث:

- إضافة إلى الوفد الرسمي المصاحب لسمو الأمير الراحل، كان هناك وفد صحافي يمد صحف الكويت بأخبار الرحلة الأميرية أولاً فأولاً. ولذا فإننا نجد اليوم في صحف ذلك الزمان تسجيلاً لوقائع تلك الرحلة إلى دول البلقان التي استغرقت مدة أحد عشر يومًا منها أيام تغطي زيارة الأمير الراحل لبلغاريا.

- تحدثت الصحف عن الاستقبال الحافل للأمير والوفد المرافق له لدى وصولهم إلى بلغاريا، وجاء وصف هذا الاستقبال كما يلي:

«وصل صاحب السمو أمير البلاد (الراحل) والوفد المرافق له إلى صوفيا عاصمة بلغاريا الشعبية، وقد جرى لسموه استقبال رسمي وشعبي في المطار وكان على رأس مستقبلي سموه رئيس مجلس الدولة في جمهورية بلغاريا الشعبية تيودور جيفكوف وكبار المسؤولين البلغاريين.

وأعرب سموه في كلمة القاها بعد وصوله عن سعادته لزيارة بلغاريا التي أشار سموه إلى أنه يُقدر صداقتها مع الكويت.

وأضاف سموه أن الزيارة تستهدف التعرف بشكل كامل على البلد وعلى الشعب البلغاري بهدف تطوير وتنمية العلاقات وتبادل وجهات النظر حول مختلف القضايا ذات الاهتمام المشترك.

وأعرب سمو أمير البلاد عن الأمل بأن تسهم الزيارة في تعزيز العلاقات الكويتية البلغارية على أسس من الثقة المتبادلة لكي تتطور هذه العلاقات نحو الأفضل.

وازدانت باحة المطار بالأعلام الكويتية والبلغارية كما رفعت فيها لافتات كتب عليهما باللغتين العربية والبلغارية أهلًا بالأصدقاء الكويتيين الأعزاء.

وواكبت الطائرة الخاصة التي أقلّتْ صاحب السمو والوفد المرافق له طائرات من سلاح الجو البلغاري منذ لحظة دخولها الأجواء البلغارية. وهبطت طائرة سموه عند الساعة الحادية عشرة والدقيقة ٤٥ بتوقيت بلغاريا - حيث بدأت المدفعية بإطلاق ٢١ طلقة ترحيباً بسموه.

وعندما أطل سموه من باب الطائرة تصاعد تصفيق حاد من المستقبلين الرسميين وأفراد الشعب البلغاري وأبناء الجاليات العربية الذين خفوا إلى المطار لاستقبال سمو الأمير وصحبه الكرام.

وتقدم رئيس مجلس الدولة البلغاري تيودور جيفكوف مرحبًا بسمو الأمير عند سلم الطائرة حيث قدم له بعد ذلك كبار المستقبلين.

وبعد استعراض حرس الشرف توجه صاحب السمو ومضيفه إلى منصة الشرف حيث عُزف السلامان الوطنيان ثم وجه سموه خلال وجوده في المطار الكلمة التالية:

أرجو أن تنقلوا أطيب تحياتنا القلبية إلى شعب وحكومة بلغاريا. وإنه ليسعدنا بالفعل أن نكون بينكم اليوم وأن نزور بلدكم الذي نقدر صداقته كثيراً ونعتز بها.

وأضاف سموه لقد جئنا تلبية لدعوة من فخامة صديقنا الرئيس تحدونا رغبة أكيدة للتعرف إلى هذا البلد وشعبه والتطلع نحو تطوير علاقات الصداقة الطيبة التي تربط بين شعبينا ولاستكشاف مجالات جديدة من التعاون وتبادل وجهات النظر حول مختلف القضايا ذات الاهتمام المشترك.

وختم سموه كلمته بالقول وإننا إذ نتطلع نحو كل هذا وأكثر فإننا نأمل أن تنتقل صداقتنا المبنية على أسس متينة من الثقة والاحترام من قوة إلى قوة.

وتوجه صاحب السمو وضيفه في موكب رسمي تتقدمه الدراجات النارية نحو مقر إقامة سموه في منطقة بويانا.

واصطف الوفد من أبناء الشعب البلغاري على جانبي الطريق التي سلكها موكب سمو الأمير لتحية سموه ملوحين بالأعلام الكويتية والبلغارية.

وقطع سموه جزءاً من الطريق سيراً على الأقدام حيث بادل الجماهير البلغارية المستقبلة التحية.

وقدم رئيس بلدية صوفيا مفتاح المدينة وقليلًا من الخبز والملح لسمو الأمير تعبيراً عن الترحيب بسموه.

وأفردت الصحف البلغارية الصادرة مساحات واسعة في صدر صفحاتها الاولى للترحيب بسمو الأمير وللحديث عن العلاقات الكويتية البلغارية كما زينت هذه الصفحات بصورة سموه.

وفي نهاية الرحلة زار الأمير الضيف مدينة فارنا زيارة حرة، وفارنا هي ثاني مدينة بلغارية بعد صوفيا، وهي مصيف معروف لدى أبناء الكويت ولقد جاء في الصحف الكويتية ما يسجل هذه الزيارة لمدينة فارنا، ومن ذلك:

وصل حضرة صاحب السمو والوفد المرافق له إلى فارنا أمس للقيام بجولة حرة في هذه المدينة البلغارية السياحية الشهيرة.

وبرافق سمو الأمير في هذه الرحلة رئيس مجلس الدولة البلغاري تيودرو جيفكوف وعدد من كبار الرسميين البلغار.

واصطف ألوفٌ من مواطني فارنا على جانبي الطريق لتحية ضيفهم الكبير ومرافقيه بهتافات مدوية قال بعضها. أهلا بضيوفنا الأعزاء من الكويت الصديق وسلام وصداقة وتعاون.

واستناداً إلى العادات البلغارية القديمة فقد استقبلت هذه المدينة الساحلية الجميلة حضرة صاحب السمو وصحبه الكرام بالخبز والملح للدلالة على المحبة والألفة والتطلع نحو استمرار الصداقة. وقامت ثلة من سلاح البحرية البلغارية بتحية سموه حفظه الله لدى تشريفه المدينة.

وكان في استقبال حضرة صاحب السمو والوفد المرافق لدى وصولهم إلى فارنا السكرتير الأول للجنة المركزية للحزب الشيوعي البلغاري ديمتري بوبوف ورئيس مجلس الشعب ستراخيل خريستوف وقائد البحرية الأدميرال فاسيل باناكييف.

وقام رئيس بلدية المدينة بتقديم مفتاح المدينة وشعارها الذي هو كناية عن نجمة ذهبية لسمو الأمير.

وعند العاشرة والربع مساء بتوقيت الكويت، قالت «كونا» أن رئيس بلدية فارانا السيد رينو نوخرف أقام مأدبة عشاء تكريمًا لحضرة صاحب السمو والوفد المرافق له وذلك في فندق غراند هوتيل.

كانت فارنا هي المحطة الأخيرة في زيارة سمو الأمير الراحل لبلغاريا. وما علينا الآن إلا انتظار زيارة الرئيس البلغاري للكويت، وهي زيارة أشرنا فيما مضى إلى موعدها، وذكرنا أنه قد وصل إلى البلاد في الموعد المحدد.

رحب مجلس الوزراء الكويتي بزيارة رئيس بلغاريا، وذلك ضمن جلسته الأسبوعية، واطلع على برنامج الزيارة المعد لهذه المناسبة، وقد نشرت جريدة «الوطن» في يوم الثلاثاء الموافق السادس عشر من شهر مارس لسنة ١٩٨٢م تفصيلًا لوصول الرئيس الضيف، وبيانًا لبعض الأنشطة التي قام بها أثناء زيارته. مع التأكيد على أن الصحف البلغارية غطت أخبار الزيارة، وأشادت بالاستقبال الحافل الذي لقيه الرئيس البلغاري، ونوَّهَتْ إلى أن هذه الزيارة سوف يكون لها أثرها الكبير نحو العلاقات بين البلدين في كافة الأطر.

وأضافت «الوطن» أن سمو الأمير قد أقام مأدبة عشاء للضيف والوفد المرافق له في قصر السلام، جرت في يوم وصوله، كما ذكرت الجريدة أن سمو ولي العهد - آنذاك - الشيخ سعد العبدالله السالم الصباح رئيس مجلس الوزراء زار الرئيس البلغاري في مقر إقامته قبل موعد وليمة صاحب السمو الأمير.

واستطردت «الوطن» في الوصف قائلة:

«وصل إلى مطار الكويت الدولي حوالي الساعة الثانية عشرة والنصف أمس الرئيس تيودور جيفكوف رئيس مجلس الدولة في جمهورية بلغاريا الشعبية والوفد المرافق له في زيارة رسمية للبلاد تستغرق ثلاثة أيام.

وكان في استقبال الضيف على أرض المطار صاحب السمو أمير البلاد وسمو ولي العهد رئيس مجلس الوزراء وكبار رجالات الدولة وعميد السلك الدبلوماسي.

ويرافق الضيف وفد رسمي يضم من بين أعضائه وزير الخارجية بيتر غلاتيليوف وسعادة أندريه لاوكالوف نائب رئيس الوزراء بالاضافة إلى عدد من كبار المسؤولين ووفد إعلامي.

وقد تشكلت بعثة شرف لمرافقة الضيف برئاسة وزير التجارة والصناعة جاسم خالد الداوود المرزوق.

وأعرب الرئيس جيفكوف عن شكره العميق لصاحب السمو أمير البلاد الشيخ جابر الأحمد الصباح لتوجيه الدعوة له لزيارة الكويت.

وقال في التصريح الذي أدلى به لدى وصوله أنه ليسعدني أن أنقل إلى الشعب الكويتي تحيات المحبة والصداقة من الشعب البلغاري.

وأضاف إننا نعتقد أن هذه الزيارة الأولى التي يقوم بها رئيس بلغاريا لبلدكم ستعمق علاقات الصداقة والتعاون الثنائي بين شعبي بلغاريا .

ومضى الرئيس جيفكوف قائلًا «وفي سياق المحادثات التي سنجريها فإننا سنتبادل وجهات النظر حول الوضع الدولي الراهن الذي أصبح مصدر قلق متزايد».

وأعرب عن ثقته بأن هذه الزيارة ستساهم في تعزيز أواصر التفاهم والسلام بين الشعوب والدول. وأعاد إلى الأذهان المباحثات المثمرة والبناءة التي أجراها مع صاحب السمو أمير البلاد عند زيارته لبلغاريا في سبتمبر الماضي.

وقال إن الزيارة ستتيح له الفرصة للتعرف على ثقافة ومعالم الكويت البارزة والإنجازات التي حققها الشعب الكويتي على طريق البناء والسلام والتقدم.

وفي صباح اليوم السادس عشر من شهر مارس لسنة ١٩٨٢م، عقدت المباحثات الرسمية بين الوفدين الكويتي والبلغاري وقد تركزت على العلاقات بين البلدين وسبل تعزيزها، ثم قام سمو الأمير وضيفه بزيارة جزيرة فيلكا فأمضيا النهار كله في زيارة معالمها الأثرية، وقد اهتم الأهالي هناك بهذه الزيارة ونحروا الإبل وغنوا ورقصوا ثم نثروا الورود ابتهاجًا برؤية صاحب السمو الأمير بينهم هو وضيفه.

وذكرت جريدة «الوطن» في عددها الصادر في اليوم التالي ليوم الزيارة تفصيلًا لما حدث في أحلى الجزر، فقالت:

«شهدت جزيرة فيلكا أمس أحلى أعراسها عندما شرفها صاحب السمو الأمير وضيفه الرئيس البلغاري تيودور جيفكوف بزيارتهما الكريمة.

بدأ العرض في ميناء رأس الأرض في السالمية منذ الساعة العاشرة صباحًا عندما اسطفت الزهرات ومرشدات الكشافة لاستقبال سمو الأمير وضيفه الكبير يحملن سلات الزهور والأعلام الكويتية والبلغارية وصور الزعيمين ويرددن الأناشيد الوطنية والأغاني الشعبية وينثرن الورود على الزعيمين ومرافقيهما.

ووصل صاحب السمو الأمير وضيفه الرئيس جيفكوف إلى ميناء الجزيرة بعد رحلة بحرية استغرقت ساعة.. حيث كان في استقبالهما محافظ العاصمة الشيخ سالم الصباح الناصر ومختار الجزيرة وكبار المسؤولين فيها ورئيس مجلس إدارة شركة المشروعات السياحية.

ولدى نزول سموه وضيفه الكبير إلى أرض الجزيرة نحرت الأبل والخراف تكريمًا لمقدمهما.. وأدى أهل الجزيرة الرقصات الشعبية ومنها رقصة العرضة واستقبلتهما النساء بالزغاريد ونثر الورود.

ولوحت زهرات ومرشدات الكشافة بالأعلام الكويتية والبلغارية وعلى طول الطريق المؤدية من الميناء إلى مرافق الجزيرة المختلفة اصطف طالبات وطلبة المدارس الذين تفرغوا لهذه المناسبة حاملين صور الزعيمين مرددين الأناشيد والهتافات بحياتهما وباستمرار الصداقة بين الشعبين.

وقام صاحب السمو وضيفه الكبير بزيارة متحف آثار فيلكا حيث كان في استقبالهما وكيل وزارة الاعلام الشيخ ناصر محمد الأحمد الصباح وكبار المسؤولين في الوزارة واستمعا إلى شرح عن تاريخ الآثار المكتشفة في الجزيرة وأهميتها.. ثم توجها سيرًا على الأقدام إلى متحف فيلكا السياحي التابع لشركة المشروعات

السياحية الكويتية.. حيث قام سمو الأمير والرئيس جيفكوف بقص الشريط إيذاناً بافتتاح أحد المرافق الجديدة التابعة للشركة بحضور رئيس مجلس إدارتها عبدالله يوسف القطامي.

بعد ذلك تفقد سمو الأمير والرئيس البلغاري نموذجاً لأحد شاليهات الشركة المعدة على أحدث طراز ومجهزة بكل مايلزم راحة الأسرة لقضاء عطلة الأسبوع.

وتناول الزعيمان وأعضاء الوفد المرافق بعد ذلك طعام الغداء في سرادق كبير نصب على الشاطئ بعد أن أدى صاحب السمو الأمير صلاة الظهر في مسجد الجزيرة.

لقد كانت زيارة الرئيس جيفكوف إلى أحلى الجزر أول زيارة يقوم بها رئيس دولة.. وقد خرج أهل الجزيرة البالغ عددهم خمسة آلاف عن بكرة أبيهم لاستقبال صاحب السمو وضيفه الكبير.

وكانت المرة الوحيدة التي أشرقت فيها الشمس على الجزيرة أمس هي لحظة وصول العبارة «مسجان» التي أقلت الزعيمين إلى ميناء فيلكا وعاد صاحب السمو والرئيس البلغاري بحفظ الله ورعايته إلى الكويت حوالي الساعة الرابعة بعد الظهر».

لقد كان حديثنا طويلًا عن هاتين الرحلتين، ولكنه حديث لابد منه، فهو يصف فترة من الفترات التي عاشتها بلادنا في بداية ثمانينيات القرن الماضي، ويحكي عن علاقاتها مع الدول على اختلاف مناهجها السياسية، ويدل على مكانة البلاد بين تلك الدول. ونحن إذ نستعيد تلك الذكريات لنسعد لما حققته بلادنا في ذلك الزمن ونتمنى أن تسير دائماً على هذا المنوال الزاهر الذي يدل على الطموح، والرغبة في التواصل مع دول العالم.

****

هذا هو البمبر..(١)

نعرف شجر البمبر قديمًا، ونعرفه في هذه الأيام كما نعرف - جيدًا - ثمره المعروف بالاسم نفسه، فهو ثمر محبب إلى النفوس طيب الرائحة عند نضجه وإن كان النوى المستخلص من لبه لزجًا شديد الالتصاق بالفم ثم باليد، وهذا ما يجعل كثيرين من الناس يصدون عن تذوق البمبرة.

ولشدة التصاق النواة (الطَّعامة) فقد ضرب بها الفنان عبدالحسين عبدالرضا المثل في أوبريت بساط الفقر فقال لإحداهن: «ابعدي عني فإن الشهامة تلتصق بي كما تلتصق طعامة بمبر فوق الرخام الأملس،» وهذا مثل صحيح إذ من الصعوبة بمكان اقتلاعها حينذاك.

تنتشر شجرة البمبر في مناطق كثيرة من جزيرة العرب، ومنها الكويت، وإلى فترة وجيزة كانت زراعتها تقل بحيث لا تجد منها إلا بضع شجرات متناثرة هنا وهناك. ولكنها بدأت تتكاثر في السنوات القليلة المتأخرة، فقد أقبل الناس على زراعتها حبًّا بما تنتجه من ثمار لذيذة ومفيدة في الوقت نفسه. إن البمبرة عندما تطرح ثمرها وتبدأ هذه الثمار بالنضج فإنها تعطي روائح فواحة جاذبة، وعندما تكبر الثمار يكون لها لون أصفر وردياً جميلًا أما الطعم فهو لذيذ المذاق لا يمل المرء من أكله لولا لزوجة النواه في كل ثمرة.

ولهذا الطعم الأخاذ عاد الناس عندنا إلى زراعة هذه الشجرة التي تحلو خضرتها وأوراقها وشكلها العام بقدر ما تحلو ثمرتها، وأصبح في كل بيت - تقريبًا - غرسة منها، واستطاع الصغار أن يتعودوا على استطعامها.

---

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠١٢/٧/٤.

هذا وقد دعت الجهات المختصة في الكويت إلى الإكثار من شجر البمبر، وأعلنت وسائل ذلك، وبينت الفوائد التي يمكن أن يجنيها الناس من الشجرة والثمار فهي بنت البيئة وجدت في بلادنا قديمًا، وهي سريعة النمو قليلة المخلفات كثيرة الثمار. وإلى جانب ذلك فان للثمرة فوائد طبية يحرص عليها الذين يتداوون بالطب الشعبي أو طب الأعشاب، وعند كل العطارين في سوق الكويت تباع ثمار البمبر المجففة التي توضع في ماء مغلي ثم يشرب ماؤها صباحاً لأجل علاج أمراض البطن ولا سيما الإمساك، ولها منافع أخرى كثيرة سوف تأتي فيما بعد.

بحثت كثيراً عن اسم شجرة البمبر قديمًا، فلم أجد لذلك أصلاً إلا ما ورد في كتاب لسان العرب (مادة مخط)، فهو يصف شجرة اسمها (المخاطة) فيقول: «والمخاطة: شجرة تثمر ثمراً حلوًا لزجاً يؤكل». وهذا الوصف ينطبق على البمبر تمامًا.

وبحثت - أيضًا - عن شعر ورد فيه ذكر البمبر، ولكني - للأسف الشديد - لم أجد شيئاً من ذلك، لا في الشعر القديم الفصيح، ولا في الشعر النبطي، ولكنني أذكر أغنية شعبية جاءتنا من البحرين، فرددناها كثيراً واستمتعنا بها، وهي من الأغاني القديمة هناك، ونحن في الكويت نحب البحرين وما يأتي منها وبخاصة في مجال الغناء والنشيد، ولذلك صار البعض عندنا يردد هذه الأغنية التي أشرنا إليها وكأنها أغنية كويتية. ومن المعروف أن هذه الأغنية (البمبرية) قد صار غناؤها في البحرين على عدة أصوات: جماعية وفردية ولكنها كلها محببة إلى النفوس.

يقول شاعرها المجهول:

أبكي على البمبرة وابكي على التينهْ
وادعــي علـى مـن ذبـح قـلـبي بـسكـينهْ
الـبـمـبـرة تـشـتـكي مـن فرقـتـه اسـنـينْ
حتى الـدموع الـخضـر تـبكي بـليا عينْ

واذا واصلنا قراءة الأبيات وجدنا أنها تضعنا في مفترق طريق بالنسبة لقائلها: أهو رجل؟ أم امرأة؟ والإجابة على هذا تتضح في آخر الأبيات وهي:

بـيـنـي وبـيـنـه بـحـر والـسّـفـر إشطوله
يا طيور بان الفجر في الظلمه روحوا لهْ
مسحوا عذاب ايده وعن حالي احكو له
وادعــي علـى مـن ذبـح قلبي ابسكينه

يبدو ان امرأة محبة قالت الأبيات التي جرى فيها النشيد. فهي تتحدث عن محبوبها الذي حال البحر بينها وبينه، وأدى طول السفر، وبعد المسافة بينهما إلى فراق لا تدري متى ينتهي، وهي تدعو الطيور مخبرة إياها بأن الفجر لاح والظلمة غادرت، ولذا فإن على هذه الطيور أن تذهب إليه (روحوا لهْ). ثم تدعوها إلى أن تمسح على يده لكي تزيل منها أثر التعب، وأن تحكى له عن حالتها بعد أن غادرها في سفرته.

هذه الأبيات من الأهازيج المرتبطة بأسفار المسافرين وهي قديمة في رحلات الغوص والسفر، ولها شبيه هنا في الكويت، وإن كان هذا الشبيه لا يذكر البمبرة.

على الرغم من قلة ما ورد في الكتب عن شجرة البمبر، فإنه قد جرى عنها حديث طويل ومتنوع، وجرى في الوقت نفسه حديث عن ثمارها مع ذكر صفاته من حيث الشكل والطعم والفوائد الصحية التي تعود على متناولها وبخاصة ما ينتفع الإنسان به من حيث علاج بعض الأمراض الباطنية. جرى هذا الحديث في أكثر من موقع من مواقع الإنترنت التي تحرص على مداومة ذكر النباتات والأشجار. ومن ذلك مايلي:

١ - البمبرة: شجرة استوائية تعطي ثماراً شافية بعصيرها اللزج، تحتوي الثمار على نواة واحدة، وهي حلوة المذاق. وقد ذكر صاحب الموقع أن هذه الشجرة

سُميَّت بهذا الاسم بسبب غريب بالنسبة لي، وهو يقول في ذلك: «سميت لذلك لكون ثمارها عند نضجها ترتطم بالأرض بصوت مميز كالقنبلة» وهذا ما لا يعقل، فلدي شجرة من هذه الاشجار في بيتي وأشهد في سنة واحدة نموها وإثمارها وتساقط الأثمار ولكنني لم أسمع قنابل كما يقول صاحبنا الذي لم ينفرد بهذا بل قد تبعه غيره.

٢ - ويقول آخر: شجرة البمبر هذه تنتشر في دول الخليج وذكر شيئاً مما قاله الذي ذكرنا حديثه قبل قليل. كما ذكر الاسم العربي فقال إن لها أكثر من اسم فهي البمبر. والمخيط، والهمبو، والجاو، وعوج بحريني. وتعدد الأسماء ينفي ما قاله هو وصاحبه عن صوت القنبلة.

وذكر أن لها اسمها علمياً هو: Cordia myxa

كما ذكر لها اسما محليًّا أجنبيا هو: Assyrian plum, Lasure

وقد اتسع هذا الحديث عن هذه الشجرة وعن ثمارها فقال إن موطنها الأصلي هو آسيا الاستوائية، وأن زراعتها لابُدَّ وأن تكون في تربة طينية ممتزجة بالرمال. وأنها شجرة معمرة تبلغ من خمسين إلى ستين سنة. وأن أزهارها بيضاء وأوراقها كثيرة التساقط، وهي لا تحتاج إلى كمية كبيرة من الماء، ولكنها في حاجة إلى أشعة بصورة مباشرة.

٣ - كما ورد عن جذعها أنه بلون رمادي، وأنَّ خشبها يستفاد منه كثيراً، وهو مرن قليل الصلابة، فهو لا يتحمل الأثقال فلا يصلح للأسقف ولا الأبواب والنوافذ.

أما الفاكهة - فهي كما ذكرنا سابقاً - ذات رائحة لطيفة ولون أصفر يميل إلى السمرة إذا بقيت مدة بعد القطاف أو إذا تركت فوق الشجرة. وتتميز الثمرة بما في داخلها من سائل لزج شفاف سكري الطعم.

٤ - ورد - أيضاً - أن الثمرة كانت تستعمل علاجاً لبعض الأمراض عند بعض الشعوب القديمة مثل الهنود الحمر. وقد ثبت أنها تحتوي - على أغلب أنواع الفيتامينات. كما ذكر أنها مفيدة جداً للشَّعر. وهذا إضافة إلى بعض الفوائد الأخرى التي أشرنا إليها فيما مضى من هذا المقال.

٥ - مما أورده هؤلاء الذين أشرنا إلى كتاباتهم عن البمبر، ما ذكروه لنا على أنه من أسماء هذه الثمرة أو شجرتها. ولقد ذكرنا فيما مر بنا من هذا المقال أننا لم نجد إلا اسماً قديماً واحداً فقط هو الذي أورده صاحب كتاب لسان العرب، وقد ذكره دون أن يقول لنا أنه البمبر لأن هذا الاسم فيما يبدو غير معروف في زمنه. ولكن الوصف الذي ذكره للاسم المثبت في كتابه وهو: مخاطة. ينطبق تمامًا على البمبر.

هذه الأسماء التي جاءت في أقوال أولئك الذين تحدثنا عنهم هي: مخيط، مخاطه، كثامة، دبق.

ولا نعرف من هذه الأسماء إلا كلمة: مخاطة وراجعت كتاب داود الأنطاكي المعروف باسم «تذكرة أولى الألباب» فلم أجد فيها ذكراً لكل هذه الاسماء الأربعة.

ولكنني وجدته يصف (دبق) بوصف مختلف تماماً عن البمبر المعروف لدينا، لذا فلا بد من استبعاد هذا الاسم.

٦ - مما جرى عليه العمل في الكويت أن تؤخذ الثمار الخضراء قبل أن تنضج ويصنع منها (الأجار) وذلك بعد غليها بالماء ثم إضافة الملح والخل إليها بعد تصفيتها من الماء، على أن يترك قليل منه في الإناء الذي ينبغي أن يحكم إغلاقه ويبقى مغلقاً لعدة أيام حتي ينضج ما فيه ويتشرب البمبر الملح والخل، والفلفل لمن أراد أن يضيف مادة حارة إلى الأجار.

وهذا العمل لا يتم في الكويت وحدها، بل إن في البحرين اهتماماً خاصاً بعمل المخلل (الأجار) وذلك لكثرة إنتاج البمبر هناك، ولرغبة الأهالي في استعماله على المائدة.

على الرغم من حلاوة ثمرة البمبر وطيبها، وعلى الرغم من تعلق عدد كبير من الناس بها منذ أمد بعيد، لتلك الحلاوة التي يجدونها في الثمرة، وللجمال الذي يجدونه في الشجرة بظلها الوارف وأوراقها الخضراء العريضة فإننا لا نجد الثمار في أسواق الكويت أسوة بالفواكه الأخرى إلا ما ندر.

وذلك يدل على قلة أشجار البمبر هنا مع وجود الاهتمام بزراعتها من عدد كبير من الأهالي، فنحن نراها تطل علينا بأوراقها وأثمارها من وراء أسوار كثير من البيوت في مختلف المناطق ولكنها معدومة في الأسواق لأن الزراعة من أجل إكثار الإنتاج وبيعه تقتضي وجود كميات كبيرة من الأشجار، وبخاصة في المناطق المخصصة للزراعة كالوفراء والعبدلي مثلًا، ولا شك في أن زيادة الإنتاج سوف يدفع بالبمبر إلى الأسواق كغيره، مع اليقين في أن توافر هذه الفاكهة اللذيذة عند عرضها في الأسواق يزيد من الإقبال عليها وسوف تجذب رائحتها محبو البمبر الزاهي اللون العطر الرائحة.

وبشكل عام فإن الكويت اهتمت بالزراعة على نطاق واسع اعتباراً من بداية خمسينيات القرن الماضي، وذلك عندما قامت دائرة معارف الكويت بمجهود كبير في هذا المجال فسعت إلى إنشاء قسم للزراعة بها يقوم بتشجيع الزراعة في المدارس كما يقوم بتشجير الساحات الواسعة في تلك المدارس وعلى الأخص مدرسة الشويخ الثانوية والكلية الصناعية وغيرهما من المدارس، وكانت قد أعدت عدة كاملة لهذا العمل الزراعي ومن ذلك إقامة المشاتل التي تزود فروع الوزارة المدرسية بكافة حاجتها من الشتول، وجهاز توجيهي متكامل، ومطبوعات متنوعة

ففي الفترة الأولى أصدر قسم الزراعة في دائرة المعارف (وزارة التربية) عدداً من الكتب الارشادية جرى توزيعها لكي يستفيد منها المدرسون الذين يشرفون على النشاط الزراعي في كل مدرسة.

ومع الاستقلال في سنة ١٩٦١م جرى نقل اختصاص الزراعة إلى وزارة الأشغال العامة، فقامت بدورها خير قيام، ولم تنس الجهات التي كانت دائرة المعارف تعنى بها.

بدأ الاهتمام بالزراعة في وزارة الاشغال العامة بإنشاء قسم يتولى هذا الأمر، وسارع في إنشاء مرافق متعددة تكفل له السير الحثيث في أداء هذه المهمة، فقد وجد المسؤولون أن الكويت في حاجة ماسة إلى مزيد من التخضير، وأن لون الصحراء ينبغي أن يغطى بلون الاشجار والأزهار، ولذا فقد أنشأ هذا القسم محطة للتجارب الزراعية، وبدأ مشروعات جيدة منها الزراعة بدون تربة وغيرها. وأصدر في هذا الوقت عدداً من الكتب استمراراً لما كان يصدر منها عندما كان هذا القسم تابعاً لدائرة معارف الكويت ومن هذه الكتب التي صدرت بعناية قسم الزراعة بوزارة الأشغال العامة كتاب عنوانه «الكتاب الزراعي السنوي» وقد طبع في سنة ١٩٦٣م. وألفته لجنة على رأسها المهندس الزراعي سالم المناعي وهو من أوائل الخريجين الكويتيين في تخصص الهندسة الزراعية. وفي سنة ١٩٧٢م صدر كتاب «الزراعة في الكويت» وقد ألفه كل من: خالد عيد وخليل السالم وعبدالرحمن سلمان وكل هؤلاء يعملون في دائرة الزراعة بوزارة الأشغال العامة.

وفي بداية ثمانينيات القرن الماضي جرى فصل هذه الإدارة بعد تأسيس جهاز خاص لهذا الغرض هو الهيئة العامة لشؤون الزراعة والثروة السمكية وجرى تعيين رئيس لها مع تبعيتها لوزير الأشغال، ثم في خطوة أخرى أخذت شيئاً من الاختصاص والصلاحيات فصارت تابعة لرئيس مجلس الوزراء مباشرة، وبذا لعبت

دوراً مهماً في النشاط الزراعي في الكويت وبدأت أعمالها تظهر إلى الوجود في المناطق الزراعية المختلفة ومراكز تربية المواشي، ومصايد الأسماك وغير ذلك.

وفي هذه الفترة - أيضاً - أصدرت الهيئة عدداً من الكتيبات المهمة التي تكفل التوعية الزراعية، وتفتح المجال أمام المزارعين للحصول على مزيد من المعلومات والخبرات، ومن هذه الكتيبات: «النخيل في الكويت»، و«الحمضيات» و«أشجار النيم» وغيرها، والهيئة دائمة النشاط في مجال التوعية الزراعية إذ لا يمر وقت قصير إلا وقد أصدرت كتباً من هذا النوع.

من الكتب التي صدرت عن الزراعة كتاب ذو أهمية كبيرة من حيث اتساع موضوعاته واتساع حجمه. وهو كتاب «نباتات البر وأشجاره في الكويت» وهو من تأليف مصطفى ديب وخليل السالم. وقد قدم له المهندس الزراعي سالم ابراهيم المناعي وأثنى عليه كثيراً، وكان صدوره في سنة ١٩٧٤م.

ضمن الموضوعات التي وردت في هذا الكتاب موضوع عن شجرة «البمبر». وقد ورد اسمها برسم مخالف حيث جاء بنون بدلاً من الميم فقال الكتاب بنبر.

ذكر المؤلفان الاسم العلمي لهذا النبات وفصيلته التي ينتمي إليها وأسماءه التي يعرف بها وهي: مخيط ومخاطه وكثامه ودبق، وقد أشرنا إلى ذلك فيما مر بنا من حديث. وقد ذكر البعض أن الدبق يعني اللزوجة والالتصاق، وهو من شجرة أخرى يستعمل دبقها لصيد الطيور.

ووصف الكتاب شجرة البمبر وصفاً جيداً بما في ذلك طولها وأوراقها وأزهارها. ثم وصف الثمار ولونها وحجمها.

هذا وقد جاء في الكتاب - أيضاً - وصف البيئة التي تنمو فيها هذه الشجرة. وطرق تكاثرها، وفوائدها بصفتها شجرة ذات فوائد.

وإضافة إلى هذا الكتاب، فقد صدر في سنة ١٩٨٤م كتاب آخر عنوانه «نباتات الكويت الطبية» وهو يعني بحسب عنوانه بأنواع النباتات المفيدة في مجالات الطب، أعدَّه الصيدلي عيسى جاسم محمد الخليفة، وراجعه أخي الأستاذ الدكتور مرزوق يوسف الغنيم.

وقد ذكر هذا الكتاب شجرة البمبر ونطقها بالنون أيضًا فقال: البنبر. وذكر أسماءها التي وردت في الكتاب السابق ذكره ثم وصف النبات وصفاً دقيقاً، وأكد على وصف الأوراق ذاكرًا أنها تكون في بداية ظهورها ملساء ثم تتحول إلى الخشونة عند اكتمال نموها. ثم ذكر الأزهار ولونها وأنها تخرج في أوائل الربيع. وتنضج الثمار في شهري يوليو وأغسطس من كل عام، ولها فوائد طبية معروفة.

ومما يدل على مدى اهتمام الجهات الرسمية المختصة في الكويت بهذه الشجرة ما نجده من تصريحات لعدد من مسؤولي الهيئة العامة لشوون الزراعة والثروة السمكية، وفيها يبينون كثيراً من صفات البمبر وفوائده ويحثون المواطنين على زراعته باعتباره من أشجار البيئة وارفة الظل كثيرة الثمر.

وقد أعلن أحد كبار مسؤولي الهيئة المذكورة في بيان نشرته وكالة الأنباء الكويتية (كونا) كثيراً من المعلومات عن شجرة البمبر، وعن أهميتها، أعلن هذا المسؤول ذلك في اليوم الخامس عشر من شهر أغسطس لسنة ٢٠١٠م، وسوف يكون ما نذكر مما قاله ذاك مهما فهو المهندس غانم السند مدير إدارة الإرشاد الزراعي في الهيئة عندما صرح بذلك.

وقد قال يومذاك مايلي:

البمبر من الأشجار الآسيوية الاستوائية المعمرة التي عرفت في الكويت منذ القدم. وهي تزرع في دول الخليج العربي بواسطة البذور، وتبدأ في إنتاج الثمار عندما يبلغ عمرها ثلاث أو خمس سنوات، وللتأخر إلى السنة الخامسة أسبابه.

واستكمالاً لما ورد في التصريح المشار إليه فاننا نواصل هنا ذكر ما نشرته كونا على لسان المهندس غانم السند في التاريخ الذي ذكرناه، تقول الوكالة:

«وأوضح أن هذه الشجرة يصل طولها إلى ١٠ أمتار وعمرها إلى ٦٠ سنة وأوراقها عريضة متساقطة وأزهارها بيضاء في نورات عنقودية وهي تحتاج إلى أشعة الشمس المباشرة وإلى كمية مياه ري متوسطة وتفضل زراعتها في التربة الطينية المزوجة بالرمال.

وأضاف أن جذعها رمادي اللون ومتوسط الصلابة وأزهارها عطرية وتستخدم في الطب عند الشعوب القديمة أما الثمرة فهي كروية مستديرة صفراء اللون وتغمق كلما نضجت وفي داخلها سائل لزج كأنه صمغ شفاف سكري كما لها لب هلامي غني بالسكر والبروتين.

وعن فوائد ثمار البمبر قال السند إن فاكهة البمبر تمتاز باحتوائها على أغلب أنواع الفيتامينات التي يحتاجها الجسم وتحتوي على عصير لزج شاف للأمراض إذ ينظم عمل المعدة والأمعاء ويستخدم اللب في العلاج الشعبي للربو والتهابات الصدر والسعال المصحوب بتقرحات الحلق كما تستخدم لعلاج مرض الجذام والملاريا وعلاج الجروح والتقرحات.

وأضاف أن اللب يستخدم لتلطيف الجلد من لدغات الحشرات وفي بعض الدول يستخدم لحاء الشجرة المسحوق في حالات الكسر في العظام قبل أن يتم وضع الجبس فيما تستخدم جذور الشجرة لجميع أمراض البرد والأوراق كعلف للماشية.

وأشار إلى استخدامات أخرى يستفاد بها من شجرة البمبر كاستخراج الايثانول من ثماره واستخدام خشبها لصنع الاثاث والقوارب وبعض الأدوات.

وحول مدى نجاح زراعة البمبر في الكويت أكد السند نجاح هذه الشجرة المثمرة بشكل كبير في الكويت نظراً إلى تأقلمها مع البيئة المحلية إلا أن هناك بعض المشاكل التي تواجه عملية إكثار شجرة البمبر عن طريق البذور وهي الطريقة الأساسية لإكثارها.

ودعا المزارعين الذين يرغبون في إكثار أشجار البمبر إلى الاستعانة بخبرات المهندسين الزراعيين والمختصين بزراعة مثل هذا النوع من النباتات مشيرًا إلى أن فوائدها على البيئة تدعو إلى التوسع في زراعتها».

هذه بيانات شاملة عن شجرة عاشت على أرض الكويت سنين طويلة، وتذوقنا حلاوة ثمارها، حتى لقد صرنا ننتظر موسم القطاف بشغف شديد. ولقد هيأت هذا المقال في موضوع البمبر لسببين الأول منها إحياء ذكر هذه الشجر في أذهان الناس، والسبب الثاني هو الدعوة إلى الإكثار منها فهي مفيدة وسهلة التكاليف ولا تحتاج إلى عناية شديدة إذ يكفيها الظل والقليل من الماء والمراقبة المستمرة.

****

ملحاق خير

يبدو أن السيد علي حسين العبدالجادر من محبي البمبر الذين لا يفوتهم الاعتناء بشجره وثمره، وقد بذل في حبه هذا الشيء الكثير حتى لقد أفرد لذلك موضعاً على الإنترنت ذكر فيه حبه للبمبر، وأبدى غزله به حتى لقد قال شيئاً يشبه الشعر، جاء منه:

قلبي مشتاق إلى محبوبي البمبر
ويزيد الشوق روائح عطره العنبر

وهكذا...

ويقول في ذلك الموقع أن أوراق البمبر إذا اخضرَّت فكأنها تبتسم، واذا أزهرت شجرته فكأنها تقدم لي من أزهارها هدية أفرح بها وأعطر نفسي بروائحها. وأنا في انتظار ذلك الموعد معها طوال السنة، أصبر في انتظار موسم الأزهار، ومن ثم موسم القطاف فأسعد نفسي بطعم البمبر الحلو اللذيذ. ويقول: إنني أترقب ثمارها يوماً فيوماً منذ أن تبدأ خضراء إلى أن تصير صفراء تسر الناظرين. إن ثمار البمبر تشبه اللؤلؤ الجميل أراه على أغصان شجرته وكأنه يتبختر عندما تميل أغصانها مع كل نسمة هواء. إن قلبي متعلق بهذه الثمرة التي لا أجد مثلها في الكون جمالاً ومذاقًا.

ولكل هذه الأوصاف التي أغدقها الرجل على هذه الشجرة أطلق اسمًا يدل على محبته لها، فقد سماها: «عميدة الأشجار».

تحدث عنها كثيراً باعتبارها من أشجار البيئة التي تعبر عن أصالة الماضي في المنطقة وقال عنها: «هي طيبة الجوار، عميدة الأشجار، كثيرة الثمار، تشهد لها الأجيال بالصمود والتحدي» ثم أطلق عليها كثيراً من الأوصاف المعبرة عن يقينه بأهمية الشجرة، وأنه ليس وحده من تعلق قلبه بحبها، بل إن الناس جميعاً مثله في هذا الغرام وهم - مزيداً في حبها - نسجوا عليها الحكايات، وقالوا عنها إنها شجرة مباركة حقاً.

ثم تحدث عن الاهتمام بزراعتها، وتمنى أن يزيد الناس من غرسها للفوائد التي يمكن الحصول عليها منها فثمرها فاكهة لذيذة، وهي إلى جانب ذلك نافعة لصحة الأبدان غنية بالفيتامينات والمعادن المفيدة، وغير ذلك.

ومن فوائدها أن تجفف الثمار ثم يصنع منها شراب مفيد للربو، ولأمراض المعدة.

قال ذلك كله ثم أكمل حديثه بذكر الطرق الملائمة لزراعة هذه الشجرة. مدرجاً عدداً كبيراً من الصّور توضح اهتمامه بالبمبر فهو في إحدى الصور واقف يقطف من ثماره ما لذ وطاب، وتمتد يده في صورة أخرى لكي يرينا مدى ارتفاع الشجرة ومدى تفرعها. مع تقديم صورة متنوعة لأشجار فيها ثمر غزير بعضه أخضر والبعض الآخر أصفر جاهز للأكل. وَنَوَّعَ في اختيار الصور حتى رأينا منا ما يظهر الحجم الكبير الذي يمكن ان تصل إليه شجرة البمبر.

ولم ينس أن يرينا صوراً لأوراق الشجرة بلونها الأخضر الجميل الذي يلفت الأنظار. ثم يرينا طرق تعبئته للثمر، وطرق عرضه. وطرق الاستفادة منه في صنع الآجار (المخلل)، أو صنع المشروب الذي ذكرنا فائدته للمعدة ولجسم الإنسان عموماً.

ما كنت أظن أن أحداً يهتم بهذه الفاكهة كل هذا الاهتمام حتى اطلعت على ما ذكره عنها السيد علي حسين عبدالجبار. وكم كنت أتمنى أن أعرف شيئاً تفصيلياً عن هذا الرجل لكي أقدمه هنا مع هذا الملحاق فإن اهتمامه هذا الذي بيناه اهتمام كبير يقتضي منا أن نذكر صاحبه ونقدر له ما قام به.

****

التوابل.. هنا وهناك[1]

لا يخلو بيت في دنيا اليوم كما في دنيا الأمس من التوابل، ولا يلذ للإنسان أكل إذا كان هذا الأكل خاليًا منها، فالتوابل سيدة المطبخ، ومُطيِّبة الطعام، لأنها تضيف إليه نكهته المنعشة، وتدفع الناس إلى الإقبال على موائدهم كلما قُدِّمت إليهم هذه الموائد بما عليها من مأكولات عابقة برائحة البهار وطعمه اللذيذ.

تحدثت الكتب عن التوابل وأنواعها، كما تحدثت عن طرق جلبها، وأماكن توافرها، وأفاضت في الحديث عن المشكلات التي اكتنفت طرق استيرادها فيما مضى من الزمان من مواضع غرسها إلى مختلف أصقاع العالم. وإذا أردنا أن نتحدث عن هذه المادة الثمينة، والضرورية لطعامنا فإننا سوف نجد الحديث عنها طويلاً ومتشعباً، وسوف نرى الموضوع واسعًا مهما حاولنا الاختصار. ولكننا سوف نعمد إلى الإيجاز والإيحاء إلى ما يدل على وضع التوابل وبخاصة في الكويت ماضياً وحاضراً.

تكلم كتاب «التجارة والتجار في الأندلس» عن التوابل كثيراً. وقدم لنا كل ما نحتاج إليه من معلومات عنها، ففي البداية قال عنها إنها منتجات نباتية قوية الرائحة، وقال إنها تستعمل من أجل إعطاء الطعام نكهة محببة، وذكر أنها تكون من أنواع منبهة كالفلفل والخردل، كما تكون من أنواع عطرية كالقرنفل

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠١٢/٧/١١.

والقرفة (الدراسين)، وتكون - أحياناً - من الأعشاب كالزعتر والمريمية والنعناع على سبيل المثال.

وقال المؤلف: إن التوابل تستعمل على هيئة مسحوق أو على هيئة خلاصات زيتية. وانطلق - بعد ذلك - في ذكر مواضع استنبات الأنواع المختلفة منها موزعة على البلدان المنتجة، لكل نوع على حدة. وقد ذكر أن الإقبال على التوابل القادمة من الشرق الأقصى كان عريقًا في القدم.

وهذه بعض المعلومات المهمة حول الموضوع ننقلها هنا بنصها من الكتاب المذكور، فهو يقول:

«كانت القوافل تحمل التوابل عبر الصين والهند إلى موانئ البحر المتوسط، أو الخليج العربي ومنها إلى أسواق أثينا وروما وغيرهما من المدن، حيث كانت تباع بأثمان باهظة. وكانت بعض التوابل تستعمل في المقايضة، ويقال إن ألاريك الأول طلب أن يكون الفلفل جزءاً من الفدية التي فرضها على روما في سنة ٤٠٨ لقاء فك الحصار عنها. وفي أوائل العصور الوسطى كانت توابل قليلة تصل إلى أسواق أوروبا، ولكن التجارة استؤنفت في القرن التاسع ثم زاد الصليبيون في نشاطها. ويرجع الإقبال على التوابل في أوروبا جزئياً إلى تكرار الأطعمة وسوء وسائل حفظها، وخاصة اللحوم. وعندما قطع المغول والترك طرق القوافل كانت رغبة أوروبا في الحصول على التوابل عاملًا كبيرًا في البحث عن طرق جديدة للتجارة حول أفريقيا وعبر المحيطين الأطلنطي والهادي، وكانت الأثمان المرتفعة التي تجنى من التوابل سبباً في المنافسة المريرة بين دول أوروبا للسيطرة على مناطق إنتاج التوابل وطرق التجارة.

بقيت الأثمان مرتفعة مدة طويلة في أوروبا وأمريكا، حتى بعد العثور على موارد كافية من التوابل وتيسر وسائل المواصلات، والسبب الأكبر هو النفقات

الباهظة الناجمة عن محاولة الاحتفاظ باحتكار الأسواق والقيود الشديدة على تحديد الإنتاج رغبة في رفع الأثمان . وبالرغم من أن التوابل ما زالت مهمة في أيامنا هذه في التجارة، فقد نقص مقدار ما يخص الفرد منها في الحضارات الغربية لمنافسة التوابل الصناعية لبعض التوابل الطبيعية».

ومن أدل الأمور على اهتمام الباحثين والمؤرخين بالتوابل ما نجده من حديث لهم عن طرق حفظها، وأساليب استعمالها، وما جرى من ذلك من حديث عن المطبخ الهندي الذي اشتهر باستعمال التوابل بشكل واسع. وقد أكد هؤلاء على أن المآكل الهندية التي تمُيزها التوابل بكافة أنواعها قد أسرت قلوب الناس حتى في أوروبا، ودفعتهم إلى ارتياد المطاعم الهندية، في كافة أنحاء العالم وبإقبال كبير جداً حتى لقد قيل إن الصرف على المأكولات الهندية في بريطانيا – على سبيل المثال – استحوذ على ثلثي قيمة ما يصرف في قطاع المطاعم.

ومع الانتشار التدريجي لاستعمال التوابل في دول العالم منذ أمد طويل صارت هذه السلعة سلعة ذهبية لم تعد المتاجرة بها قاصرة على التجار الذين اعتادوا على استيرادها وتصديرها وبيعها في الأسواق بل تحول الاهتمام بها إلى اهتمام الدول والحكومات، وذلك لاكتشاف أثرها الاقتصادي الكبير، ولرغبة الناس المتزايدة في الاستفادة منها.

وللحق فإن هذا الاهتمام له ما يدل على قدمه في العالم فقد قيل إنه لولا التوابل لما اتجه كولومبوس إلى أمريكا، وكان الأوروبيون قد لاحظوا مدى قدرة التوابل على حفظ المواد الغذائية من التلف، ومنذ اتجهت الأنظار إلى هذه المادة فإننا وجدنا القوافل وهي تحمل حملها الثمين من التوابل من الهند عبر الجزيرة العربية، ثم إلى البحر الأبيض المتوسط، ومنه إلى الموانئ الأوروبية على سواحله المقابلة لبلاد العرب، مثل البندقية التي كانت أهميتها كبيرة بصفتها دولة ذات

نشاط بحري كبير. ودخلت البرتغال ميدان السباق إلى الهند موطن التوابل، ودب الصراع بين عدد من دول أوروبا من أجل الحصول على أكبر قدر ممكن من منافع هذه المادة الغالية على نفوس الناس. ولقد كانت هولندا في القرن السادس عشر وارثة من سبقها من الأمم إلى هذا الطريق، ولكن بريطانيا في سنة ١٨٠٠م حلت محل الجميع في هذا الميدان.

في الكويت منذ نشأتها استهلاك كبير للتوابل، وتجارة واسعة بها، وكانت السفن الشراعية تتولى منذ بدأت في القيام برحلاتها إلى الهند تعود وهي محملة بأنواع من التوابل بالإضافة إلى ما تحمله من بضائع أخرى تجلبها من هناك للمتاجرة بها في الكويت.

وكان في الكويت سوق كبير لهذه السلعة الثمينة يقدم للمواطنين ما يحتاجون إليه منها، وتتم إعادة تصدير ما يفيض عن الحاجة – وهو كثير – إلى البلدان المجاورة فيكون في ذلك تسهيل لسكان تلك البلدان يُمكِّنهم من الحصول على ما يشاؤون من التوابل بأقصر طريق.

وكان في سوق الكويت أعداد من أصحاب المكاتب التجارية والمحلات المتخصصة يعرضون بضاعتهم هذه دون انقطاع على مدار السنة، فهم – دائمًا – في انتظار المزيد منها مع عودة السفن الشراعية الكويتية ضمن رحلة السفر السنوية إلى بلدان التوابل: الهند والباكستان وسيلان، وهم – كذلك – في ترقب دائم للراغبين في الشراء من الكويت ومن خارجها.

وفي الكويت تسمى التوابل: البهارات، وتقول المرأة في بيتها: بَهَّرْت اللحم، أي وضعت عليه البهار، وأرض البهار هي الهند، وهذا هو اسمها في لغتهم. ولا داعي للتأكيد على أن المطبخ الكويتي لا يستغني بحال من الأحوال عن البهارات التي يكتسب الأكل بها نكهته المحببة، وتفتح نفوس الآكلين فيتقدمون إلى موائدهم بشوق.

والأنواع المستهلكة في الكويت من التوابل أو كما نسميها: البهارات، متعددة نذكر منها:

– الفلفل الأحمر، وهو يأتي مجففًا حار الطعم، يوضع في المرق كما هو، ويضاف إلى بعض المأكولات أو يخلط مع باقي البهارات بعد طحنه.

ولقد شهدت في بعض البيوت في منطقة القبلة – قديمًا – عددًا ممن امتهن طحن الفلفل الأحمر، وكان ذلك بواسطة مطحنة يدوية (رحا) توضع بالقرب من الباب الخارجي للبيت، ولذا فإننا كنا نُغطّي أنوفنا عندما نمر أمام بيت من هذه البيوت التي يجري فيها طحن الفلفل الأحمر، وذلك لشدة لذعته وتأثيره على النَّفَس.

هذا وقد صار هذا النوع من الفلفل يزرع في الكويت ويباع طازجًا في أسواقها.

– الفلفل الأسود: وهو حبيبات صغيرة سوداء فيها بعض الحرارة، ولكن حرارتها أقل من حرارة الفلفل الأحمر، ولها طعم لطيف يفتح الرغبة إلى الأكل ويضيف إلى الطعام ما يزيد المرء رغبة في متابعة الجلوس أمام المائدة، وهو يستعمل حبًّا أو مطحونًا، وفي هذه الحالة الأخيرة يطحن في البيوت بالأسلوب الذي تحدثنا عنه عند ذكر طحن الفلفل الأحمر.

– الكركم: وهو معروف عندنا على نطاق واسع كسابقيه، وهو تابل مهم، وبخاصة في قدرته على طرد الروائح العالقة في السمك أو الدجاج حيث يُطلى بهما فترة نصف ساعة على الأقل قبل الطبخ فيمتص منهما رائحتهما المميزة. ومن أهم ما نعرفه عندنا اليوم أنه مضاد للأكسدة التي تعتري جسم الإنسان وهو مفيد للأجسام بصفة عامة، مُطَهِّر لا نظير له، وقد وجدنا في الأسواق في أيامنا هذه

أنواعًا من الصابون والكريمات تعتمد في صناعتها على الكركم، ولها تأثير قوي على الجلد البشري في مجال النظافة والتطهير، وتساعد على إزالة الشوائب من الوجه بخاصة.

ولا غنى لأي بيت كويتي عن الكركم الذي يأتي على شكل جذور عصوية، ثم يطحن في مطاحن خاصة تجعله ناعمًا جدًّا، وهو يستعمل مفردا وَمُضافًا إلى عدد آخر من التوابل على هيئة خلطة، ويوضع في المرق أو الأرز كما يضاف إلى حشوة السمك والدجاج إضافة إلى ما ذكرناه سالفًا عن وضعه عليهما قبل الطهي.

– ومن التوابل المستعملة في الكويت الزنجبيل، وهو دائم الاستعمال في الطبخ، نسميه في لهجتنا الدارجة (يرنزبيل) وهو يضاف إلى خلطة التوابل هنا، ولكن بقدر محدود، وذلك لأنه حِرِّيف صعب الاحتمال إذا زاد عن حَدِّه، وهو إضافة إلى فائدته من حيث ضمِّه إلى باقي التوابل مفيد في حالات البرد والزكام؛ بأن يخلط بالماء المغلي ثم يُشرب، ويفضل بعضهم إضافة عصير الليمون إليه، وهو يأتي على شكل جذور كبيرة مجففة قائمة أو مطحونة، ويأتي اليوم طازجاً، يُدَق ثم يضاف إلى ما نريد أن نضيفه إليه من الطعام.

– وهناك من التوابل: الدارسين، واسمه في بعض المناطق العربية: القرفة، وهو نوعان صيني وسيلاني، والأخير هو الذي كان– ولا يزال – دارجًا في بلادنا. وهو يوضع – مطحونًا – مع خلطة البهارات الكويتية. ويضاف مفردًا مطحونًا مع السكر المطحون فوق طبق الهريس، كما تضاف قطع صغيرة منه إلى الأرز والمرق. وهو مفيد صحيًّا حتى لقد قيل إن له أثرًا في تخفيض السكر في دم الإنسان، ووصفت له فوائد طبية أخرى ليس هذا مجال بسطها.

– ويضاف الكمون إلى بعض المأكولات أو الخلطات، وله نكهة طيبة، ويأتي على هيئة حبوب صغيرة فيطحن عند الاستعمال. وهو يفيد المعدة، ويطرد الغازات

والانتفاخات من البطن. وطعمه جيد جدًّا، وهو الآن يضاف - باستمرار- إلى الفول لإكسابه طعما لذيذًا، وذلك بعد أن صرنا نأكل الفول حين هجرنا الباجلا.

هذه هي التوابل أو البهارات التي توضع أساسًا في الخلطات الكويتية. وهناك بعض ما يستعمل في الأكل مما يُمكن أنْ يطلق عليه اسم التوابل مثل الهيل، والزعفران، وبعض الأعشاب كالزعتر والكزبرة الخضراء. وذلك بالإضافة إلى مواد أخرى لا نستعملها هنا إلا نادرًا وفي حالات خاصة، ولكنها معروفة على نطاق واسع في البلدان العربية والهند وتركيا وبعض بلاد أوروبا التي افتتحت فيها مطاعم كثيرة تقدم أصناف الأكل العربي والتركي والهندي.

هذا ويضاف الهيل والزعفران إلى بعض طبخات الأرز والدجاج، والسمك (يضاف إليه الهيل فقط). ولكن أكثر ما يضافان إلى الحلويات التي تصنع في البيوت كالمحلبية وغيرها.

أما ما يتعلق بالخلطات المستعملة محليًّا للبهارات فهي تختلف من بيت إلى آخر، أو من أسرة إلى غيرها. وذلك بحسب الأذواق والخبرات، والإجادة في الاختيار وفي الطبخ.

ومن الجدير بنا هنا هو أن نلقي نظرة على بعض الخلطات الكويتية للبهارات المستعملة في المطبخ الكويتي، على أن نلاحظ فيما نُقدمه هنا أنه يتمثل في ثلاث خلطات نوردها على سبيل المثال. كما نلاحظ أن عدداً من التوابل قد أضيفت إلى بعض البهارات الأساسية السائدة عندنا وهي التي تحدثنا عنها فيما سبق، وهذه الإضافات تُكْسِبُ الخلطة نكهتها المفضلة وتضيف إلى المأكولات طعما شهيًّا طيبًا.

ونلاحظ - أيضًا - أن هذه الخلطات الثلاث تتراوح في حجمها من حيث الكمية، فبعضها قليل وبعضها كثير كما سوف نرى، وذلك لأن مُعدَّ الخلطة يعدها لاستعمال بيت كثير الاستهلاك أو قليله.

والواقع أن الأسر تتبادل فيما بينها تجاربها في مجال خلطة البهارات طلبًا للوصول إلى الأفضل، ولذلك فإنني عندما طلبت من الأخت الدكتورة سلوى سليمان العمر أن تمدَّني بالخلطة التي اعتادت صنعها عندما تحتاج إلى كمية من البهارات فإنها زودتني أولًا بالطريقة التي تخلط بها بهاراتها لنفسها بناء على تجاربها السابقة، ثم أرسلت إليَّ بخلطتين إضافيتين لأسرتين مختلفتين اشتهرت خلطتهما بالجودة، وحسن الذوق، وذلك حتى أضيفهما في العرض إلى الخلطة الأولى.

أما خلطة الدكتورة سلوى فهي كما يلي:

- (٤) كيلوات كزبرة.
- (٢٥٠) جرام فلفل حلو.
- (٥٠٠) جرام هيل.
- (٥٠٠) جرام عرق الهيل.
- قليل من جوزة الطيب.
- قليل من المسمار (القرنفل).
- (٥٠٠) جرام كركم.
- (٦٠٠) جرام فلفل أسود.
- (٦٥٠) جرام دارسين (قرفة).

أما الخلطة الثانية فهي كما يلي:

- (١) كيلو كزبرة محمصة.

- ربع كيلو فلفل أبيض.
- قليل من عرق الهيل (خولنجان).
- قليل من جوزة الطيب.
- نصف كيلو أو أقل من الفلفل الأسود.
- ربع كيلو دارسين (قرفة).
- قليل من الكمون.
- قليل من المسمار (القرنفل).

وتتكون الخلطة الثالثة من:

- (٤) كيلوات كزبرة.
- (٥٠٠) جرام هيل.
- (٥٠٠) جرام عرق الهيل (خولنجان).
- قليل من جوزة الطيب.
- قليل من المسمار (القرنفل).
- (٥٠٠) جرام من الكركم.
- (٦٠٠) جرام فلفل أسود.
- (٦٠٠) جرام دارسين (قرفة).

ولكي تكون خلطة البهارات كما يجب أن تكون من حيث النظافة، وحسن الخلط والنعومة، فإنهم هنا يفضلون عمل الخلطات في فصل الصيف، لأن بعض

المواد تحتاج إلى غسيل جيد، يزيل عنها الغبار أو أية أوساخ أخرى تكون قد علقت بها فترة النقل والتخزين، ولذلك فإنهم يغسلونها بعد أن يقوموا بإتمام تنقيتها من كل الشوائب التي قد تطرأ عليها.

واختيار فصل الصيف بالذات لأن القائم بعمل الخلطة يتولى نشر البهارات في الشمس حتى تجف ويزول عنها الماء، وذلك بعد أن يقوم بالتنظيف الشامل ثم الغسل. وهناك من البهارات ما يجب تحميصه قبل خلطه مع غيره، والأول من النوعين هو عرق الهيل والدارسين والزنجبيل والمسمار وجوزة الطيب. والثاني الذي ينبغي ان يُحمَّصَ هو: الكزبرة الناشفة واليانسون والهيل.

بعد ذلك تخلط الكمية، وتطحن طحنا جيدًا حتى تصير شيئاً واحداً هو خلطة البهار المطلوبة. وقد تحتاج ربة البيت إلى أنواع من التوابل تكون غير مخلوطة تستعملها على حدة في طبخات خاصة، لذا فإنها تضع لكل نوع منها إناءً مستقلاً. ومما يستعمل غير مطحون الهيل والدارسين عندما يضافان إلى الأرز.

هذا وينصح المتمرسون في عمل خلطات التوابل بعدم إعداد وتحضير وطحن كمية كبيرة منها في وقت واحد، ذلك لأن المادة المطحونة تفقد كثيراً من قيمتها إذا مضى عليها زمن لا يزيد على بضعة أشهر، وحتى المواد الأخرى غير المطحونة فإنها تحتاج إلى حفظ جيد بعيداً عن الأماكن الحارة والرطبة، فلذا لابد من وضعها في إناء محكم الغلق.

☆☆☆☆

تحدثنا عن دور التوابل في التجارة العالمية، ولم تكن الكويت بعيدة عن ذلك، وكنا قد أشرنا إلى نشاط السفن الشراعية المحلية التي كانت تنقل البضائع من

الهند وأفريقيا ومن هذه البضائع: التوابل. وكانت تتولى بيع الفائض عن حاجة البلاد إلى تجار البلدان المجاورة. وممن أشار إلى نشاط أبناء الكويت في هذا المجال السير لويس بيللي الذي كتبنا عن زيارتيه إلى الكويت في مقال من مقالات «الأزمنة والأمكنة» فقد ذكر في تقرير له أن واردات الكويت من الهند تصل في زمنه (١٨٦٥م) إلى مائتي ألف ربية، وكان قد أجمل المستوردات فقال: إنها تشمل الأقمشة، والأرز، والقهوة، والأعشاب، والبهارات.

وعندما كتب عن صادرات الكويت إلى بعض الدول المطلة على الخليج ذكر أن بلادنا قد صدَّرت في ذلك الوقت إلى بوشهر الإيرانية كمية كبيرة من الفلفل الأسود التي كانت قد استوردتها من الهند.

وأخيراً فإن هذا استطراد لما سبق من حديث عن التوابل نذكر فيه أن من أبرز أنواع البهارات المستعملة في الكويت هو الفلفل الأحمر الحار. وهو يأتي مطحونا وغير مطحون، ويفضل الناس هنا الطحن المحلي لعدة أسباب منها ثبات قيمته بصفته مادة غذائية لها دور في الحفاظ على الصحة، ونظافته حيث يخضع قبل الطحن لتنظيف يُبعد عنه الشوائب.

وهو نوعان طويل يأتي من الهند، ومستدير على شكل كرة صغيرة وهو يأتي من الباكستان، ويتسابق الجميع إلى اختيار النوع الأشد حرارة منهما. ويضاف الفلفل الأحمر إلى المرق وإلى الأرز أحياناً، ويعمل منه في أحيان أخرى ما نطلق عليه اسم (المعبوج) وينتج عن دق الفلفل الأحمر الحار مع الثوم حتى يكون عجينة متماسكة، ثم يؤكل مخلوطاً مع الأرز. وفي أوقات الشتاء يفضل الأهالي أكل الأرز مع الماش وهو (المموش) ففيه تدفئة للجسم إضافة إلى فوائده الأخرى.

☆☆☆☆

وبعد فإن للتوابل تاريخًا طويلاً أشرنا إلى بعضه ولم نُشِرْ إلى أكثره، وذلك لأن الموضوع كبير أُلِّفت فيه كتب كثيرة ودارت حول الحصول عليه حروب. ولن نستطيع أن نلمَّ بكل ما يجب أن يقال عنه في عجالة مثل مقالنا هذا. ولكن ما قدمناه - على إيجازه - يكفي، ويقدم الصورة المقرَّبة لشأن التوابل عندنا وعند غيرنا: هنا وهناك.

****

ملحاق خير (١)

تدخل في صنف التوابل أنواع كثيرة منها ما يعرف عندنا بالبهارات، وفي الماضي وعلى الأخص في العصور الوسطى كانت التوابل تضم العقاقير والمنكّهات والعطريات واللواذع الكاوية وغيرها..

ولقد كانت تجارة هذه الأنواع كلها وفق ما ذكره المؤرخون هي الدعامة الأساسية في تجارة تلك العصور. وكانت من حقائق التجارة في ذلك الوقت وذلك لإقبال الناس عليها، ومن أجل فوائدها المتعددة للمستهلكين جميعاً.

وفي الأندلس على سبيل المثال فإن سوق التوابل كانت قائمة ومستمرة في جميع الأحوال وكان البخور من ضمن ما أطلق عليه اسم التوابل هناك. ولقد كان للكتاب والعلماء والمؤرخين من أبناء الأندلس اهتمام كبير بهذا النوع من المواد من حيث ذكر أنواعها وصفاتها، ومن حيث إيراد طرق استعمال البهارات في الطبخ فقد وردت قوائم تمثل أنواع التوابل التي كانت تباع هناك في تلك الفترة، ولقد ثبت في بعض الكتب أنها تزيد على ثلاثة آلاف نوع، وفي الكتب التي تناولت شؤون الطبخ الأندلسي وردت المعلومات التي تحدثنا عن اهتمام هؤلاء الكتاب بذكرها.

هذا وما ذكرناه عن سوق التوابل في الأندلس ما هو إلا نموذج للمتاجرة بها في الزمن القديم في صقع من أصقاع العالم. إذ كانت هذه المادة موضع تجارة عالمية تعبر الآفاق من الهند والصين إلى البلاد العربية ثم أوروبا.

وما يجب علينا ذكره هنا أن نورد ما جاء فيه ذكر الفلفل الأسود في ديوان امرئ القيس الشاعر الجاهلي المعروف، وذلك في ص١٤٣ من الديوان.

إذ إن من أشهر قصائد الشعر العربي معلقة امرئ القيس التي مطلعها:

قفا نبك من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ
بسقطِ اللوى بين الدخول فَحوملِ

وفيها البيت الذي يقول فيه الشاعر:

ترى بَعَر الصيِّران في عرصَاتِها
وقيعانها كأنه حَبُّ فُلفُلِ

وهو يصف بعر الصيران (جمع صوار) والصوار هو القطيع من البقر والظباء.

يقول إنه يرى بعر هذه المخلوقات في ساحات المواضع التي ذكر في بداية قصيدته وكأنها حب الفلفل من حيث اللون والاستدارة والحجم. وإذا عرفنا أن امرأ القيس قد عاش في أوائل القرن السادس الميلادي عرفنا قدم معرفة العرب بالفلفل الأسود.

****

ملحاق خير (٢)

للشاعر الكويتي المرحوم عبدالله سنان محمد شعر غزير تفنن فيه وأجاد، وخاض في موضوعات شتى، ومن هذه الموضوعات ما أطلق عليه اسم «الشعر الضاحك» وقد جمع شعره الذي جاء على هذا النمط في ديوان صغير، ولكنه ممتلئ بالقصائد والمقطوعات الجميلة المثيرة للإعجاب. فهو فيها يداعب أصدقاءه، ويذكر رحلاتهم وجلساتهم الممتعة، ويتحدث عن المآكل بأنواعها وعن الشاي واجتماع الأصحاب حوله، وعن بعض الفكاهات الممتعة.

تميز شاعرنا الكبير بتقليد القصائد المشهورة على طريقة مخالفة للطريقة التي سلكها الشاعر الأول فهو على سبيل المثال يقلد امرأ القيس في معلقته:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل
بسقط اللوى بين الدخول فحومل

وهي التي أشرنا إليها في هذا المقال.

وكذا معلقة عنترة، والقصيدة الشهيرة التي عرفها الناس وغنتها أم كلثوم للشاعر أبوفراس الحمداني وهي التي يقول في مطلعها:

اراك عصي الدمع شيمتك الصبرُ
اما للهوى نهي عليك ولا أمرُ

وقلد قصائد كثيرة لشعراء غير هؤلاء، وقد نشرها في المجلات الكويتية فأسعد بها الناس الذين أقبلوا على قراءتها إقبالًا شديدًا.

وقصيدة امرئ القيس التي قلدها عبدالله سنان قصيدة مشهورة، ومعانيها يعرفها الجميع لكثرة ما يقرؤونها، ولكن صاحبنا اتجه إلى طريق آخر وهو طريق الفكاهة فعبر بأبياته عن المأكولات بأنواعها ولم ينس أن يذكر البهار الذي بسببه أشرنا إلى هذه القصيدة يقول:

قفا نبك من ذكرى خروف ومنزل
لأهل النُدى شرقي بيت ابن منذلي
خروفٌ تُكنِّيه إذا ما رايته
كما أوهمونا بالخروف المسلسل

ثم يستمر في ذكر إعداد الخروف للوليمة ويصف الطباخة والمساعدات الواقفات معها، وكيف كن يجتهدن في إنضاج هذه الطبخة المنتظرة وكيف يضعن لها البهار حتى تكتسب الطعم المغري:

ترى الطاهيات السود حول قدورها
تُبَهِّرها بالهيل أو بالقُرنفلِ

وفي قصيدة أخرى قلد فيها قصيدة لصفي الدين الحلي قال السنان في مطلعها:

سل الدجاج الوالي عن ايادينا
واستشهد البيض هل خاب الرجا فينا
وسائل اللحمَ والتشريبَ ما فعلت
بصحنه دون أيدي الناس ايدينا

ويذكر البهار قائلاً:

وسفرة ما جعلناها مهيأةً
إلا لندعو لها من راح يدعونا
فكم وضعنا عليها كل طيبة
عبيرها من بهار الحشو يُغرينا

وقد ورد ذكر (البهار) كثيرًا في الديوان الذي أشرنا إليه، ولكن ما قدمناه كافٍ للدلالة على أهمية استعماله في المأكولات الكويتية ودليل على عشق الناس له.

****

في بلاد المهرة.. [1]

هذا مقال متنوع المسالك وإن كان موضوعه واحداً فهو يتحدث عن قبيلة من كبرى قبائل اليمن الجنوبي، كما يتحدث عن تاريخها وأنسابها وبعض رجالها الأقدمين والمحدثين. ثم يتحدث عن علاقة أبناء قبيلة المهرة بالكويت منذ عرفهم الكويتيون، وما هي طبيعة تلك العلاقة، وصفات من أتى إلينا منهم.

عرف الكويتيون أبناء المهرة منذ أمد طويل، وذلك عندما كانت السفن الكويتية الشراعية تبحر إلى بلادهم وقد ثبت وجودهم في الكويت قبل سنة ١٣١٨ هـ التي توافق سنة ١٩٠١م. وسوف يظهر فيما بعد سبب ذكرنا لهذا التاريخ الذي شهد وجودهم في الكويت، ولاحظنا لهم فيه تجمعات عندنا ووجود مهم.

أما الاتصال بهم في بلادهم فقد كان منذ مدة طويلة، فقد عرف أهل الكويت كيف يستخدمون السفن الشراعية ويبحرون بها إلى مختلف الآفاق حولهم، وأوصلهم ذلك إلى بلاد المهرة فتعرفوا أولئك الرجال الطيبين الذين تم حضور بعضهم إلى الكويت فيما بعد ثم تدرجت أعدادهم هنا في الازدياد وتشعب نشاطهم وعرفناهم حق المعرفة.

ونستطيع أن نستدل على تاريخ يقارب تاريخ الاتصال الأول، وهو الذي يحدد إلى حد ما متى كانت السفن الشراعية الكويتية ترسو في تلك الموانئ البعيدة، ولن يكون استدلالنا هذا إلا بمعرفة ما كتبه بعض زوار الكويت من الأجانب ومن هؤلاء

---
(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ١٨/٧/٢٠١٢.

نذكر بروكس الذي جاء إلى هنا في سنة ١٨٢٩م مُكلَّفاً من حكومة بريطانيا في الهند. حيث زار - بموجب هذا التكليف - منطقة الخليج ومنها الكويت، وقد ذكر في تقريره أن هذه البلاد (يقصد الكويت) تتميز بما حباها به موقعها الذي أتاح لها التجارة على نطاق واسع حيث سدَّت حاجة المنطقة من منتجات الهند بسبب ما تملكه من سفن وبحارة أقوياء، وهذه الشهادة تكفي للدلالة على أن السفن الكويتية كانت تمخر البحار في تلك السنة التي جاء فيها بروكس إلى الكويت، ووجودها بالأعداد والإمكانات التي شاهدها هذا الزائر ووجود الأعداد الكبيرة من العاملين المقتدرين عليها من قادة وبحارة يدل على أنَّ بداية النشاط البحري كانت أقدم من هذا التاريخ، ومعنى ذلك أن اتصال الكويت بالخارج وبخاصة بلاد المهرة كان قديماً كما نرى.

حكى لنا عدد من البحارة الكويتيين الذين ترددوا على سيحوت ميناء المهرة في ذلك الزمان، فذكروا أنهم كانوا يستوردون من هناك الأسماك المجففة (المتوت) كما يستوردون زيت السمك الذي نسميه (الصِّل) وبه تدهن أخشاب السفن حتى لا يؤثر فيها ماء البحر فيسرع إليها العطب.

والصِّل لا غنى عنه في الكويت لكثرة الاشتغال هنا بالسفن إبحاراً وصناعة. وهو منتن الرائحة، ومن هنا جاء اسمه لأن صِلّ في الفصحى بمعنى أنتن. وفيما عدا ما ذكرناه فإنه لا توجد مستوردات تذكر من هناك.

وعندما جاء الرجال من بلادهم إلى الكويت جاؤوا مصاحبين لبعض السفن الكويتية، وعملوا في البلاد، وتكونت منهم جالية مترابطة معروف عنها حسن الخلق والأمانة، وعدم إثارة المشكلات. وهم يرجعون في كل ما يخصهم إلى رجل منهم يثقون به، ويعتدُّون برأيه.

وهذه نظرة على وضعهم القديم في الكويت:

عند الطريق الذي كان موازياً من جهة الشمال لشارع الصيهد (شارع فهد السالم فيما بعد) موضع يسكن فيه عدد من أبناء المهرة هؤلاء، ولم يكن فيه – آنذاك – مسجد، فتداعى الأهالي، ولم يكونوا كلهم من المهرة إلى القيام ببناء مسجد لهذا الفريج الذي كان يطلق عليه اسم: فريج المهارة بسبب سكناهم فيه. وقد قيل أن الشيخ مبارك الصباح قد تبرع لهم بـالأرض التي بنى عليها هذا المسجد، وتحمل بذل المساعي لهذا الغرض النبيل الملا علي بن حِمّد (بكسر الحاء وسكون الميم)، كما تولى أحد أبناء المهرة الإشراف على البناء.

والمسجد قائم حتى يومنا هذا، ووجوده دليل على الطريق الموازي لشارع فهد السالم الذي ذكرناه.

تقول دائرة الأوقاف العامة في كتابها الذي أصدرته، وأجملت فيه بيانات أعمالها منذ سنة ١٩٤٩م حتى سنة ١٩٥٧م، إن هذا المسجد قد أسسه بعض المحسنين الكويتيين في سنة ١٩٠١م، وإن الدائرة المذكورة قد جددت بناءه في سنة ١٩٥٠م، وقد قيل حديث آخر عن نشأة هذا المسجد ولكننا لا نستطيع الخروج عما ورد في كتاب الدائرة المختصة.

وفيما يتعلق بتسمية المسجد فقد وردت له تسميتان في وثيقة الوقفية التي جرى إيقافها عليه، وكانت على هامش الوقفية كتابة للشيخ عبدالله الخلف يتمم بها ما ورد في الأصل. وكانت كتابتها في سنة ١٩١٦م، لقد كانت التسمية الأولى هي: مسجد بن حِمدّ، وكانت الثانية هي: مسجد المهارة أما الرجل المهري الذي ذكرنا أنه أشرف على البناء. فقد كان اسمه صنقور المهري، وقد عمل مؤذناً فيه منذ البداية.

هذا وقد استقر الاسم الأول وهو: بن حمد على هذا المسجد بحسب وثائق دائرة الأوقاف العامة.

اتسع نشاط أبناء المهرة في الكويت، وأحبهم الكويتيون، وأعجبوا بأمانتهم وإخلاصهم. وكانت أعمالهم هنا بسيطة جدا ولكنها منتجة لهم تسدُّ حاجتهم، وتمد أهلهم هناك بما يحتاجون إليه وتنفع أهل الكويت. ولتعاونهم المثمر كان الواحد منهم يجد دائماً المجال الذي يعمل فيه مهما كان بسيطًا، وفي وقت من الأوقات كان الماء لا يصل إلى البيوت فتولّوا هم هذه المسألة عن طريق عربات صغيرة تُجَرُّ باليد وعليها صهريج صغير يطوف قائدها بين المنازل لتقديم المياه، وسد حاجة الناس. وكان عدد منهم يتولى بيع الأقمشة واضعًا صُرَّة على كتفه يدور بها بين «الفرجان»، وكان هؤلاء يعانون من ملاحقة مراقبي بلدية الكويت الذين لم يكونوا يسمحون للباعة الجائلين. ولقد تبين هنا ما يدل على الحب الذي يكنُّه أهل الكويت لإخوانهم أبناء المهرة حين اهتم الشاعر الكويتي عبدالله سنان محمد بهذا الأمر، ولم يعجبه ما يحدث لهؤلاء الذين جاءوا من بلادهم من أجل العمل الشريف فقد قال قصيدة عنوانها «المهري» وفيها يندد بما يحدث لهؤلاء من أذى على أيدي رجال البلدية الذين كانوا يلاحقونهم في ذلك الوقت وكان ذلك في بداية خمسينيات القرن الماضي.

يقول عبدالله سنان محمد:

دعوا المهريّ يكتسب الحلالا
ويسعى كي يُمِدَّ به العيالا
دعوه إنه يسعى شريفاً
ولا يرجو سوى المولى تعالى
له نفس أعزُّ من الدراري
ونفسُ الحُرِّ تعتنق الجبالا
يموتُ ولا يمدّ إليك كفاً
وما شاهدته احترف السؤالا

ولم أسمع به اتخذ المخازي
سبيلاً للمكاسب أو مجالا

يسير إلى المناطق وهو حافٍ
ولم يلبس برجليه النِّعالا

ويغشى كل ضاحيةٍ ينادي
بسلعته وقد حاذى الظِّلالا

إذا غضب الشتاءُ عليه يومًا
وصال عليه من غيظ وجالا

تجلّد صابرًا وأبى خنوعًا
ويحتمل الأذى منه احتمالا

يطارده المراقبُ كلَّ يومٍ
كما قد طارد الذئبُ السَّخالا

فيأخذ منه صُرَّته ويعدو
فيتركه أشرَّ الناس حالا

فهلا زاحم المهري أهل الـ
تجارة أو تغلب واستطالا

وهل سرق المتاجر من ذويها
ولَفَّ ودار بينهم احتيالا

نحيفُ الجسم مؤتزراً باسمًا
له وكأنه لبسَ الشِّوالا

فدعه أيها المسؤولُ يسعى
ليأكل بيننا رزقًا حلالا

ومُزْ هذا المراقبَ يجتنبْهُ
ويخفي عنه أنياباً طوالا

ودعه يلاحق الطغمَ اللواتي
تحاكي في ضخامتِها البغالا

فجاليةٌ كجالية المهارى
جديرٌ أن نجنِّبَها الضَّلالا

ومما ذكر في الشعر الكويتي النبطي من تلميح إلى أن سيحوت «عاصمة التجارة في بلاد المهرة» محبَّبَة إلى النفوس ما قاله الشاعر الكويتي الكبير زيد الحرب، ففي سنة ١٩٦٦م كان هذا الشاعر في لبنان كعادة الكويتيين في فترة الصيف وكان الشاعر عبداللطيف عبدالرزاق الديين هناك أيضًا. وحدث أن امتدح أحد الحاضرين في الموضع الذي يجلسون فيه بيروت ولبنان بصورة عامة في الوقت الذي كان فيه الشاعر زيد الحرب قد اشتاق إلى العودة إلى الوطن فلم يعجبه هذا المديح لموقع يريد مغادرته فوراً فقال قصيدة منها:

يا مادح بيروت ما شفت سيحوت
سيحوت مع بيروت عندي سويه

وقد رد عليه الشاعر عبداللطيف بقصيدة من ضمنها:

يا مساوي سيحوت بفروخ بيروت
عفواً يا ليت العود فكر شويه

صحيح إنه بالعقل كان منعوت
لكن اظن اليوم ركب اردعية

والكلمة الأخيرة فيها دلالة على العناد. وسيحوت تمّ ذكرها فيما سبق، وكان البحارة الكويتيون يأتون إليها ضمن سفراتهم المعروفة فيشترون منها السمك المجفف (العوم والمتوت) والصلّ وهو زيت السمك الذي تدهن به السفن، ولذا قال أبو خالد:

وش قرّب العوم المجفف بسيحوت
لا شجار تفاح تفيًا بظله

ومناظر تسحر كما سحر هاروت

من زارها شفناه كرر مجيئه

لقد دفعت المقارنة شاعر الكويت زيد الحرب إلى تفضيل سيحوت على بيروت وكان معذوراً في ذلك فقد ملَّ بقاءه هناك بعيداً عن وطنه ثم إنه يتذكر بلاد سيحوت عندما ذهب إليها وهو في عنفوان الشباب فكان بذلك يتذكر شبابه وَفُتُوَّتَه.

☆☆☆☆

المهرة قوم عرب أولو نسب عريق وصريح في عروبتهم يسكنون منطقة الشحر بشرقي حضرموت ولهم لغة خاصة بهم ولكنها لغة تنطق ولا تكتب وكانوا في الكويت يتحدثون بها مع بعضهم واستطاع بعض أبناء الكويت التقاط عدة كلمات منها دون أن يدركوها جميعها لأنها صعبة جداً. وقد حفظ أبناء المهرة لغتهم التي تعتبر من اللغات السامية، ولها في مناطقهم نقوش أثرية تدل عليها.

وكما حافظوا على لغتهم فقد حافظوا على عاداتهم وتقاليدهم، وعلى تميزهم بالأخلاق الحميدة، والتعاون فيما بينهم في كافة المناسبات التي تدعو إلى قيام بعضهم بمساعدة البعض الآخر. وهم إلى ذلك يمتازون بالعفة والطهارة والبعد عن الرذائل مهما كانت، ويتمسكون بالأمانة والشرف.

هذا وكانت لهم دولة لها سلطان من سلسلة سلاطينها آل عفرار وتنطق آل عفرير، فاندمجت في جمهورية جنوب اليمن ثم صارت ضمن الجمهورية اليمنية بعد اتحاد اليمنين. وقد صدرت بعض المصورات عن أعمال تتعلق بدولة المهرة قبل الوحدة نجد بعضًا منها مع هذا المقال.

هذا وقد جرى ذكر المهرة في الكتب العربية القديمة، فجاء من ذلك ما يلي:

١ - ذكر ابن حزم في كتابه «جمهرة أنساب العرب» أن هؤلاء (أعني المهرة) من قبيلة قضاعة الكبيرة، وقد جاء منهم مهرة بن حيدان بن عمرو بن الحافي. وذكر ابن حزم أن بلاد المهرة في ناحية الشحر من اليمن، ببلاد العنبر على ساحل البحر.

وذكر الحسن بن أحمد الهمداني المهرة في كتابه «صفة جزيرة العرب» في أكثر من موقع، وعَدَّد أسماء بعض رجالهم، والمواضع التي عاشوا فيها.

وذكر ياقوت الحموي هؤلاء القوم فقال عن: مهرة: هي قبيلة مهرة بن حيدان، تنسب إليهم الإبل المهرية المشهورة ولهم موضع واسع في جنوبي اليمن.

وعندما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، واستقر له الأمر بها بدأت وفود من شتى قبائل العرب تفد إليه وتبلغه بإسلامها وقبولها لدعوة الدين الحنيف، وكان أول وفد من هذه الوفود قد قدم إلى المدينة في السنة الخامسة للهجرة. ثم توالت بعده وفود كثيرة.

منها وفد مهرة وكان أول من حضر من هذه القبيلة الكبيرة وفد يرأسه مهري بن الأبيض. يقول ذلك محمد بن سعد في كتابه «الطبقات الكبرى» ج١ ص ٣٥٥ وص ٣٥٦ مفصلًا ما حدث ومن جاء من وفود مهرة بعد مهري بن الأبيض.

وذكر جمال الدين بن محمد بن مكرم كلمة (مهرة) في كتابه «لسان العرب» (مادة مَهَرَ) فقال: «ومهرة بن حيدان أبو قبيلة، وهم حيٌّ عظيم. تنسب إليهم الإبل المهريَّة».

وهكذا نجد تداول المعلومات في الكتب القديمة عن (المهرة) مما يدل على قدمهم، وعلى عظم القبيلة التي ينتمون إليها، ومن المعروف أن هذه القبيلة تنتمي إلى أم أكبر منها هي: قضاعة. وقد ثبت أن مهرة بن حيدان بن عمرو بن الحافي المذكور كان ينتمي إلى قضاعة، وقضاعة شعب كبير يضم عدة قبائل. وقضاعة التي تناسل منها هؤلاء تنتمي إلى قضاعة بن مالك بن عمرو ابن مرة بن زيد بن مالك بن حمير. (انظر: ص٤٤٠ من كتاب «جمهرة أنساب العرب» لعلي بن سعيد بن حزم، من تحقيق شيخنا عبدالسلام هارون ونشر دار المعارف بمصر سنة ١٩٩٢م).

وحيث إن المهرة لهم ذكر قديم في التاريخ فقد أورد ابن عبدربه في كتابه: «العقد الفريد» شيئًا عن أحد كبارهم في الجاهلية وهو كراز بن روعان المهري، وهو فارس بطل خاض المعارك دفاعاً عن قبيلته (ج٢ ص ٣٧٤).

أما من هو معروف في الإسلام فأولئك الذين وفدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد ذكرناهم فيما سلف من حديث.

وقد اندمج عدد من رجال المهرة في جيوش الفتوحات الإسلامية فشاركوا عمرو بن العاص في فتح مصر وعبدالله بن سعد في فتح أفريقية. وكان فيهم الشعراء ورواة الحديث والعلماء وطلاب العلم.

ومن شعرائهم أبو بكر بن عمار المهري الأندلسي الذي كان في الشعر قريناً لابن زيدون وسُمِّي شاعر الأندلس وله بيتان مشهوران يحكي بهما حالة ملوك الأندلس في وقته وهما:

مما يُقبِّح عندي ذكر اندلسٍ
سماع معتمدٍ فيها ومعتضدِ
أسماء مملكةٍ في غير موضعها
كالهرِّ يحكي انتفاخًا صولةَ الأسد

وإذا رجعنا إلى العهد النبوي الكريم واستذكرنا ما مر بنا بهذا الشأن عرفنا مدى استجابة هذه القبيلة العربية الصحيحة للإسلام، ومدى حرصها على لقاء النبي الكريم والاسلام على يديه الكريمتين، ولقد جاء في هذا الأمر ذكر في الكتب الماضية نقدمه فيما يلي:

«وفدت قبيلة المهرة على النبي صلى الله عليه وسلم كغيرها من قبائل العرب التي وفدت وأعلنت إسلامها، وقد ذكر ابن سعد في (الطبقات - ج١/ ص ٢٦٦)

فقال: قدم وفد مهرة عليهم مهري بن الأبيض، فعرض عليهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الإسلام فأسلموا، ووصلهم وكتب لهم «هذا كتاب من محمد رسول الله لمهري بن الأبيض على من آمن به ألا يُؤكلوا ولا يُعركوا وعليهم إقامة شرائع الإسلام فمن بدل فقد حارب ومن آمن به فله ذمة الله وذمة رسوله، اللقطة مؤداة والسارحة منداة والتفث السيئة والرفث الفسوق».

وقال: أخبرنا هشام بن محمد، أخبرنا معمر بن عمران المهري عن أبيه، قالوا وفد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، رجل من المهرة يقال له زهير بن قرضم بن العجيل بن قباث بن قمومي بن نقلان العبدي بن الآمري بن مهري بن حيدان بن عمرو بن الحاف بن قضاعة من الشحر، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدنيه ويكرمه لبعد مسافته، فلما أراد الانصراف ثبته وحمله وكتب له كتاباً، فكتابه عندهم إلى يومنا هذا».

☆☆☆☆

وكما ذكرنا فإن المهرة كانت سلطنة ضمن سلطنات معروفة في جنوبي اليمن، وقد تأسست هذه السلطنة التي يحكمها آل عفرار أو عفرير في سنة ١٥٤٩م، ثم ألغيت في سنة ١٩٧٧م عندما انتهت تلك السلطنات جميعاً وتغيرت أحوال منطقة جنوب اليمن بقيام جمهورية جنوب اليمن ثم باتحاد هذه الجمهورية مع جمهورية اليمن الشمالي في دولة واحدة.

أما عاصمتها فهي سيحوت أو قِشِن وتقع على الساحل المحاذي لخليج عدن عند مصب وادي حضرموت. ومبانيها خشبية وسكانها في حدود خمسة آلاف نسمة من مجموعتين تمثلان جزءاً من القبيلة المهرية. وهي تنتج الأسماك وبخاصة ما نسميه (العوم) أو (المنوت) وهو سمك صغير الحجم يقومون بتمليحه وتجفيفه، ويكون التجفيف بتعريضه لأشعة وحرارة الشمس على الشاطئ. وهي الغذاء

الرئيسي لهم قديماً يؤكل مع الأرز والخبز. ولسيحوت ميناء ضحل لا تأتيه إلا صغار السفن، ولا تستورد سيحوت إلا الأرز والتمر والبن والسكر. وكافة الاتصالات داخل أراضي المهرة صعبة، والطرق وعرة، والسفر يتم بواسطة الجمال، ولا بد من اصطحاب حرس لأن قطاع الطرق لا يتركون مجالاً لراحة هؤلاء المسافرين على الرغم من أن سفرهم من أشق الأمور فهم يتكبدون خلاله الأهوال.

كان ذلك في السابق. وقد تغيرت الآن تلك الأحوال وبدأ الأمن يستتب، وصارت الطرق عامرة، والسفر من موقع إلى آخر في غاية اليسر.

هذا وسوف يرد توضيح لاسم عاصمة المهرة في الأسطر الأخيرة من هذا المقال.

ولما كانت البلاد المهرية بحرية الطابع، تعيش على ساحل البحر، ويعمل أبناؤها فيه تجارة وصيداً؛ فإنه ليس بمستغرب أن ينبغ أحد أبناء القبيلة الكبيرة في مجال المعرفة بالأعمال البحرية، وقيادة السفن ومعرفة المسالك التي ينبغي أن يسلكها البحارة في رحلاتهم عبر هذا الجار العظيم الذي يعيشون إلى جواره ويتمتعون بخيراته. لقد نشأ هذا الذي نشير إليه وهو سليمان بن أحمد المهري في أمة بحرية، وسافر كثيراً مع عدة سفن أوصلته إلى أماكن بعيدة في شرقي وغربيّ المحيط الهندي، فاكتسب دراية كبيرة، واسمًا لامعًا، وألّف عدة مؤلفات تناول فيها ذكر خبراته في عالم البحار، ومن كتبه التي أمكن الحصول عليها، ومعرفتها في الوقت الحاضر: خمسة كتب هي:

١ - العمدة المهرية في ضبط العلوم البحرية.

٢ - المنهاج الفاخر في علم البحر الزاخر.

٣ - تحفة الفحول في تمهيد الأصول، وهو رسالة مختصرة في قواعد الملاحة وشروطها.

٤ - شرح تحفة الفحول في تمهيد الأصول، وقد شرح فيه الرسالة الوارد ذكرها في رقم (٣).

٥ - قلادة الشموس في استخراج الأسوس، يشرح فيها طريقة استخراج التواريخ بمختلف السنين المشهورة كالقمرية والشمسية وغيرها.

وقد نال هذا الرجل حقه من التنويه به وبعلمه وبجهوده التي بذلها حتى وصل ذكره إلى كل مكان باعتباره عالما بحرياً مدركًا لكثير من الأمور التي يجب أن يعرفها الربابنة وهم في عرض البحار. وتم تأليف كتب عنه تناولت سيرة حياته وإنتاجه العلمي منها كتاب: «البحار اليمني سليمان بن أحمد المهري» لحسن صالح شهاب.

وكتبت عنه الموسوعة العربية الميسرة كلمة موجزة ولكنها تقدم صورة واضحة عنه وعن جهوده، فقد قالت: «سليمان ابن أحمد المهري (توفي سنة ١٥٥٤م) من مشاهير الملاحين العرب، لُقب بمعلم البحر، وضع مؤلفات عرض فيها لأحوال النجوم والرياح، وأنواء البحر، ووصف الطرق الملاحية بين بلاد العرب والهند وجاوة، أهم كتبه هو كتاب: «العمدة البحرية في ضبط العلوم البحرية».

وبعد فإذا كان هذا الرجل قد برز من بلاد المهرة بالنبوغ الذي برز به، فكم من النابغين من هؤلاء العرب الذين يعيشون في ذلك البلد الذي كان بعيداً عنا، وكم من النابغين سوف نجدهم حالياً بعد أن انتشر التعليم في تلك البلاد وأقبل عليه الجميع؟.

☆☆☆☆

ذكر مؤلف كتاب الموسوعة اليمنية (مجلد ٤ ص ٨٨٦، وما بعدها) نقولًا من بعض الكتب القديمة التي تحدثت عن المهرة أرضًا وشعباً فقال: «أرض مهرة/ مهرات هي (بلدة مهرة) عند الهمداني في كتاب (صفة جزيرة العرب). وذكرها المسعودي (ت ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م) في (مروج الذهب) حيث قال: «وأما بلاد مهرة فإن

قصبتها تسمى الشحر، وهي بلاد فقراء ألسنتهم مستعجمة جداً لا يكاد يوقف عليها، وليس ببلادهم نخيل ولا زرع وإنما أموالهم الإبل، وبها نُجُبٌ من الإبل تفضل في السير على سائر النجب واللبان الذي يحمل إلى الآفاق من هناك. وديارهم مفترشة وبلادهم بواد نائية ويقال إنها من عمان، وعمان مستقلة بأهلها..».

ويلاحظ أن المسعودي وغيره يدخلون الشحر ضمن بلاد مهرة. ويرجح أن الشحر اسم للساحل الجنوبي من اليمن وقلبه منطقة المهرة، واسم لميناء يقع في مكان على ذلك الساحل وهو اليوم كذلك. قال نشوان في شمس العلوم: «الشحر ساحل البحر بين اليمن وعمان، والأسعى (الأسعا) موضع بالشحر من اليمن. والأسعا عند الهمداني من بلدة مهرة. ويرى بعض الباحثين أن الأسعا هو في مكان مجاور للشحر، بل إنه لدى بعضهم أحد أسماء مدينة الشحر. والأرجح أن الأسعا موقع أثري مجاور لمدينة الشحر الحالية».

ثم تحدث عن المهرة في الوقت الحالي ذاكرًا ما يلي:

«وتتألف محافظة المهرة اليوم من أربع مديريات هي: الغيضة وسيحوت وقشن وحوف، وتقدر مساحة المحافظة ٨٨,٠٠٠كم٢، وبلغ عدد سكانها أكثر من ٨٤,٩٩٠ نسمة.

وفي محافظة المهرة يقع ميناء نشطون على بعد ٦٠ كيلو متراً غربي مدينة الغيضة عاصمة المحافظة، وهو ميناء حديث يُعْنى بالدرجة الأولى بتقديم الخدمات لسفن صيد الأسماك، ولكنه يلعب دوراً تجارياً هاماً في استقبال السفن التجارية وشحن وتفريغ البضائع الواردة والصادرة من المحافظة. وتربط محافظة المهرة ببقية محافظات الجمهورية اليمنية طرق مواصلات برية وبحرية وجوية، وتسعى بخطّى حثيثة نحو التحديث والتنمية».

وقد كتب هذا البيان للموسوعة الدكتور يوسف محمد عبدالله.

وعندما نصل إلى هنا يتبين لنا أن المهرة سلطنة لها سلطان ونظام وهي غير المحميات السبع التي اندمجت لتكون اليمن الجنوبي، ولكنها اندمجت مع تلك المحميات عندما لاح أمل الاستقلال فزالت المظاهر القديمة لكي تحل محلها دولة جديدة.

أذكر جيداً أن أبناء المهرة ومعهم أبناء اليمن الذين أقاموا في الكويت كانوا أول من غادر البلاد عندما قام العراق بغزوها في اليوم الثاني من شهر أغسطس لسنة ١٩٩٠م وكم كنا نود أن يبقى معنا هؤلاء الذين عايشناهم زمناً طويلاً ولكننا نلتمس لهم المعذرة فإن رئيسهم العميل الرسمي لصدام حسين هو الذي أصر على مغادرتهم رغبة في التأثير على الروح المعنوية للكويتيين، ولكن هيهات.

☆☆☆☆

هذا ما كان أخيراً ولكننا – مع ذلك – فسوف لا ننسى لهم صفاتهم الحميدة وأخلاقهم العالية، فقد عرفنا فيهم الجد في العمل والصبر على تحمُّل المشاق، ووجدناهم متعاونين فيما بينهم لا يتعرض أحدهم لأزمة من الأزمات إلا وجد جماعة من قومه معه يشدون من أزره ويساعدونه. وكان سلوكهم حسنا لم نشهد لهم مخالفة للنظام ولا للقانون بل كانوا مثالاً للالتزام وطاعة الأوامر الرسمية.

نعرف أنهم كانوا محبين للكويت على الرغم مما حدث، وأثبتت الأيام أنهم كانوا مجبرين على فراقها، فما إن مضت فترة قصيرة حتى وجدنا أعداداً منهم يعودون إلى أعمالهم التي اعتادوا العمل بها بعد أن كيَّفوا أوضاعهم الرسمية، فلم يجدوا بين أبناء الكويت إلا كل ترحيب وحسن الاستقبال.

ملاحظة أخيرة: عاصمة المهرة الرسمية هي: قِشِنْ، ولكن السفن الكويتية الشراعية اعتادت الرُّسُوَّ في ميناء سيحوت فهو أفضل لها. ولذلك صارت لبلدة سيحوت شهرة عندنا منذ تلك الأيام، وكان البعض يعتبرها هي عاصمة بلاد المهرة.

****

شعر المناسبات الإسلامية في الكويت

المولد النبوي الشريف [1]

شهر رمضان يقتضي منا أن نقف وقفة نتحدث فيها حديثاً غير الذي اعتدنا أن نقدمه كل يوم أربعاء في «الأزمنة والأمكنة» لأن الروح الدينية والروحية المسيطرة خلال أيام هذا الشهر ولياليه تتطلب أن نقدم شيئاً عن الأمور المتصلة بالنواحي المشابهة.

نجد في الشعر الذي تركه لنا شعراء الكويت القدماء كثيراً من ذلك، وهذا ما دفعنا إلى أن نجعل مقالات شهر رمضان لهذه السنة ذات محور واحد هو «شعر المناسبات الإسلامية في الكويت»، ولما كانت المناسبات الإسلامية متعددة. فقد وجدنا أن من الأفضل تقسيم الموضوع إلى أربعة أقسام بحيث يغطي كل قسم مناسبة من تلك المناسبات.

هذا ونحن عندما قلنا هنا عبارة شعرائنا القدماء فإننا نقصد أولئك الذين قدَّموا قصائدهم منذ فترة تصل إلى ستين سنة مضت وما حولها، وكانت البلاد في ذلك الوقت الذي أنشدوا فيه تلك القصائد تحتفل بالمناسبات الدينية احتفالات تليق بها. ومن ذلك أن دائرة معارف الكويت كانت ترعى احتفالات حاشدة عند كل مناسبة، وكانت المدارس كالمدرسة المباركية والمدرسة الشرقية ومعهد الكويت الديني تشارك في ذلك.

أما دائرة الأوقاف العامة؛ فكان لها دورها منذ أن صدر قرار إنشائها في سنة ١٩٤٩م إلى اليوم، فهي لا تتأخر عن الاحتفاء بالمناسبات الإسلامية جميعها، وهي - على كل حال - مناسبات جديرة بالاحتفاء.

---

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠١٢/٧/٢٥.

وسوف يكون أول مقال من مقالات الشهر المبارك مكتوباً عن القسم الأول منها وهو : «شعر المولد النبوي» وهذا هو موضوعه:

مولد الرسول الكريم من أهم المناسبات الإسلامية، به يحتفل الناس، ويعلنون فرحتهم، وكانت المساجد قبل أن تقوم المدارس والجهات الحكومية الأخرى تقوم بالمهمة، ففي مساجد تلك الأيام كانت الاحتفالات تقتصر على قراءة قصة المولد النبوي بعد صلاة العشاء من كل سنة، وكانت المساجد تكتفي بالمستمعين الذين يحرصون على المشاركة في هذه المناسبة السعيدة.

أما الاحتفالات المدرسية فهي متنوعة فيها الخطب والأشعار، وفي بعضها فصول من تمثيليات تاريخية لها دلالتها على المولد، وكان شعراء الكويت في ذلك الوقت يتبارون في تقديم ما لديهم من شعر ويتنافسون فيما بينهم كل منهم يريد أن يُقدِّم الأفضل. ثم يقوم بعضهم بنشر ما قدمه في الاحتفال في إحدى المجلات الكويتية كالبعثة وغيرها.

ومن هؤلاء الشعراء الذين اعتادوا المشاركة في مثل هذه المناسبات الأستاذ أحمد السقاف الذي لم يترك مناسبة إلا وكان له صوت فيها، وقد نشر شعره، ثم أصدره مجموعاً في ديوان له صدر في سنة ١٩٨٨م.

والأستاذ أحمد السقاف أديب وشاعر كويتي كبير، له إنتاج وافر أبدع فيه كل الإبداع، ومؤلفات عدة ملأى بالفوائد الثقافية والتاريخية والسياسية، وهو رائد من رواد الأدب الكويتي، بدأ نشاطه هذا منذ أمد طويل ، وأسهم في الحركة الأدبية في عدة مجالات منها الندوات التي كان يعقدها في منزله ويلتقي فيها ببعض المهتمين من أبناء البلاد. ومنها المشاركة في الاحتفالات التي تقام في المناسبات المختلفة وذلك ما أشرنا إليه قبل قليل، ومنها التأليف حيث نجد له مؤلفات كثيرة منها: الأوراق، والعنصرية الصهيونية في التوراة، وتطور الوعي القومي في الكويت،

وله ديوان شعر شامل لكل شعره ذكرناه في ما مضى لنا من حديث. وأسهم الأستاذ السقاف في مجال الصحافة الكويتية حين أصدر في ربيع سنة ١٩٤٨م مجلة «كاظمة» وكانت أول مجلة تصدر وتطبع في الكويت، وقد قام مركز البحوث والدراسات الكويتية في سنة ٢٠٠١م بإعادة طبع كافة ما صدر منها في مجلد واحد.

وشارك في مجالات أخرى تحسب له، وتدل على اهتمامه بالنشاط الاجتماعي في الكويت فقد أسهم في قيام النادي الثقافي القومي، وتولى مسؤولية تحرير مجلته الإيمان وقام فيه بدور بارز من خلال أنشطته المتعددة.

وشارك – أيضًا – في رابطة الأدباء الكويتيين، وكان أمينًا عاما لها حتى سنة ١٩٨٤م، وقام من خلالها بأنشطة كثيرة، ورأس وفودها إلى المؤتمرات الخارجية لعدة سنوات، وشارك في المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب عندما كان هذا المجلس يقوم بدوره الذي أقيم من أجله، وكانت مشاركة الأستاذ أحمد السقاف فيه قد بدأت منذ سنة ١٩٧٢م حتى سنة ١٩٧٦م.

وفي الأعمال الرسمية كان وكيلًا لوزارة الإرشاد والأنباء (الإعلام) منذ سنة ١٩٦٢م، وفي هذا المنصب قام بأعمال كثيرة تحمّل خلالها العبء الإعلامي والثقافي معًا. ونشأت بجهوده مجلة «العربي» التي اختار لها الدكتور أحمد زكي لكي يكون رئيساً لتحريرها، واهتم بنشر وتحقيق المخطوطات العربية فصدرت في عهده مجموعة قيمة من تلك المخطوطات النادرة وكان آخرها كتاب «تاج العروس» وعدد آخر من الكتب التراثية. وكان كتاب تاج العروس قد استغرق وقتاً طويلاً حتى تم إنجازه بعد مغادرة الأستاذ السقاف للوزارة، وذلك لأن هذا الكتاب يتكون من مجلدات كثيرة.

وجرى – بعد فترة – تعيينه نائباً لرئيس الهيئة العامة للجنوب والخليج العربي بدرجة سفير، وذلك في سنة ١٩٦٥م، وبقي في عمله هذا إلى أن استقال

منه في سنة ١٩٩٠م تاركاً آثارًا بارزة في مختلف البلدان التي كانت هذه الهيئة تعمل من أجلها.

وكان – رحمه الله – حريصاً على عمله الرسمي، يعتبره رسالة يقوم بأدائها، ولا يرضى إلا بالأفضل، ولهذا فهو يتشدَّدُ في اختيار العاملين معه لأنه يريدهم أن يكونوا جميعاً في مثل إخلاصه. وأن يتمتعوا بالحرص الذي جبل عليه حتى يكون ناتج العمل بعيدًا عن النقد مرضيًا لكل مراقب.

أما فيما يتعلق بالأعمال الأدبية الخاصة به، فقد استمر في إنتاجها إلى آخر أيام حياته، فكان يقول القصائد، ويكتب المقالات، ويؤلف الكتب في كل ما يخطر على باله من موضوعات أدبية وفكرية. وكانت الروح القومية العربية بارزة في كل إنتاجه مما جعل له صفة مميزة، ووقعًا في النفوس مختلفًا.

وقد حزنا جميعًا لوفاته في اليوم الرابع عشر من شهر أغسطس لسنة ٢٠١٠م. رحمه الله.

سوف تكون لنا وقفة مع ثلاثٍ من قصائد الأستاذ أحمد السقاف التي قالها في ثلاثة احتفالات جرت في الكويت في سنوات متفرقة، وكانت كلها حول المولد النبوي الشريف.

ألقى القصيدة الأولى من هذه القصائد الثلاث في احتفال أقامته المدرسة المباركية في سنة ١٩٤٧، وقد صادف زمن الاحتفال صدور قرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود، وهو قرار صدر بضغط من الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وروسيا. ولم يرض هذا القرار أحداً من العرب أو من المسلمين، وكان وقعه على أبناء فلسطين وقع الصاعقة، فقد جاءهم في وقت كانوا فيه ينتظرون الإنصاف من هذه الهيئة الدولية ولكن ظنهم فيها خاب، فما وجدوا إلا

الاستمرار في الجهاد طريقا لتحرير وطنهم. وقد انتهز الشاعر فرصة الاحتفال للتعبير عن هذه الكارثة الجديدة غير المتوقعة، فذكر أن هذا القرار جاء لكي يدفع بنا إلى الجهاد فهو يعطينا إشارة البدء فيه، ويترك لنا أي عذر في التراخي.

بـين فتك الظُّبى وخوضِ الملاحمْ
ظهرَ المجدُ وهو جذلان باسمْ

بارك اللهُ في الجهاد ولا عا
شَتْ نفوسٌ تعيش عيشَ البهائم

ذا أوان النهوض يا معشر العُر
بِ، فلا عُذر بعد ذاك لنائم

وهو يرى أن الدول التي تكاتفت مع إسرائيل ودعت إلى الأخذ بمبدأ التقسيم هي التي سعَّرت الحرب وأعطت اليهود فرصتهم الذهبية حتى يدركوا مرامهم بابتلاع الأرض العربية وتدنيس القدس الشريف.

إنهم سعروا الحرب، وروعوا حرم القدس بهذا الحكم المتحيز الغاشم. لقد هُزت الأرض إنكارًا لفعلهم، ومادت فيها العُرْبُ والأعاجم وتعالت فيها نداءات: الله أكبر ممتدة من مصر إلى الهند من كل مصلٍّ وصائم.

سعَّروها وروَّعوا حرمَ القدْ
سِ بحكم بادي التحيُّز غاشم

سَعَّرُوها فَهُزَّتِ الأرضُ إنكا
رًا، ومادت في عُربها والأعاجم

فتعالت اللهُ أكبر، من مصْ
رَ إلى الهند من مُصلٍّ وصائم

إنهم اختلقوا المزاعم لكي يبرروا إسنادهم لقرار التقسيم الغادر، وذلك ليأخذوا بثأر حطين التي حطمتهم وأبادت جموعهم، عندما انتصرت فيها جموع

المسلمين بقيادة صلاح الدين على الصليبيين، في تلك الحرب التي لم يشهد لها التاريخ مثيلًا، إذ قضت على آمالهم في البقاء على أرض فلسطين وما حولها.

ثم يوجه القول إلى هؤلاء الذين يدعون أنهم حماة السلام فيقول لهم:

يا حُماةَ السلامِ منِّي سلامُ
مُحرِقٌ كالشواظِ غضبانَ ناقمْ

ليس عدلًا أن يُشنق العدل في القُدْ
سِ، وأن تُستباحَ منه المحارم

ليس عدلًا أن تُنجزوا حلم صهيو
نَ، وصهيونُ فاقدُ الرشد واهم

جَلَّ ما تطلبون يا أيها القو
مُ، وهيهاتَ أن تَضام الأكارم

لقد أقسم العرب عل أن تصان فلسطين، وعلى ألا يروعها التقسيم، واستعدوا للجهاد:

فالعقال الأبيُّ شد على العز
مِ، وليثت على الثبات العمائم

ومضى الشاعر السقاف في قصيدته معبرًا عن آلامه لما حل بأمته العربية، مُنَدِّدًا بما اقترفته أيدي الجور ضدها وضد فلسطين التي باتت فريسة للتقسيم، ولقد جاء ذلك في الوقت الذي كنا ننتظر فيه أن تظهر الحقيقة، وأن يعود الحق إلى نصابه ولكن ذلك لم يتحقق بسبب الموقف الذي جارى الظالمين المغتصبين وأنكر حق أصحاب الحق.

هكذا عبر شاعرنا عن إحساسه بالكارثة التي حلت بفلسطين نتيجة لقرار الأمم المتحدة بتقسيمها، وقد انتهز فرصة وقوفه في ذلك اليوم من شهر ربيع الأول لكي يطلق ما في نفسه ويُعَبِّر عن آلامه. ومن هنا اتجه إلى الرسول الكريم قائلًا:

سيدَ المرسلينَ الهمتني الشِّعْـ
ـرَ، فاشكَتْ صادحاتِ الحمائمْ
وتغنيتُ إذ تغنيتُ بالمجـ
ـد، وبالعُرب والحمى والصوارم
ومسحتُ الجراح في وحي ذِكرا
كَ، وذكراكَ للجروح مراهم

لقد كان قدومك – أيها الرسول الكريم – في يوم سعيد رقصت له البيد، وانتشت التهائم والوهاد، وصار الوجود كله يرفل في ثوب ناصع من البشر المطرز بعظائم ما شهدته البشرية جمعاء يوم المولد الشريف.

هذا الوجود الذي شهد عظائم الأمور وصارت:

تتنادى الفتوحُ فيه وتشتا
قُ إلى ملتقى الليالي القوادمْ
انجبتْ خالدًا وسعداً وامسى
مِلءَ ساحتها الكماةُ الضَّراغم

إنها وثبة عظيمة حطمت صروحَ الطغيان وأبادت الطواغيت ثم هدَّت عروشهم وعواصمهم.

وفي آخر القصيدة يوجه قوله إلى الدهر طالبًا منه أن ينحي عنه بعض صده، وأن يوجه نظره إلى تلك الحقبة الرائعة من حياة الأمة التي ازدانت بأعمال أولئك الجنود:

ايها الدهرُ بعض صدك واذكـر
حِقَبا زانها الجدود بَواسمْ
نحن كالشمس لم يشنْها إذا ما
حُجِبت ساعةً وراءَ الغمائمْ

وفي هذين البيتين وهما آخر ما جاء في القصيدة التي عرضناها يعبر الشاعر عن أمله وأمل أمته بيوم جديد، يعاود المجد فيها وقوفه مع أبناء هذه الأمة ويقول إننا شمس تغيب أحيانًا وراء الغمائم ولكنها باقية لا تزول بسبب ذلك. وسنبقى شمساً مشرقة تعم الدنيا وتعمر الكون على رغم من عادانا.

كان الأستاذ أحمد السقاف في سنة ١٩٥٠م ناظرًا للمدرسة الشرقية، وكان يبرزها في أنشطة متعددة، ويسعى إلى جعلها شعلة متوهجة في ذلك الوقت الذي تحتاج البلاد فيه إلى من يقوم بمثل ذلك النشاط الذي يُحيي النفوس ويجدد الآمال بسرعة الوصول إلى التقدم المأمول. وقد أقام في تلك السنة حفلًا باسم مدرسته الشرقية احتفالاً بمولد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وشارك شخصيًّا في هذا الحفل بقصيدة عصماء عبَّر فيها عن سروره بهذه المناسبة وعن إجلاله للرسول الكريم.

تدل القصيدة على حزن دفين عاش بين أضلاع الشاعر في قلب أحب العروبة والإسلام، وتمنَّى أن تختلف تلك الأوضاع المؤلمة التي يعايشها في وقته ذاك، وبخاصة أن سنة ١٩٥٠م كانت من السنوات العسيرة على الأمة وذلك لأنها جاءت بعد أن حلَّت بنا مأساة فلسطين ونكبنا جميعًا بما حل بها، وكان الظلام سائداً فلا يرى عربي بارقة من أمل تُنبئ بمستقبل طيب مما أثر في الشاعر وهو يصوغ قصيدته. وقد ألهمه ذلك الموقف أن يعبِّر عن المأساة التي يراها رؤية العين وأن يستنجد برسول الله صلى الله عليه وسلم آملًا تفريج الهم بإزاحة المأساة عن دروبنا. وهو يقول:

أملي لانتَ، وانتَ كلُّ رجائي
يا باعثًا المني وشجو غنائي
يا موطنًا لعب الشَّتاتُ باهلهِ
حتى غدَا متعدِّدَ الأسماءِ

حاشاك تجحد ما بقيت قصائدي

ولوَ انّها دمعٌ وبعضُ دماء

ويستمر الأستاذ السقاف في قصيدته، ذاكراً حيرته قائلاً لنفسه: ماذا أقول وقد تتابعت الرؤى وهي تحمل الأكدار والإرزاء معها. إنني مهما أجلت طرفي وجدت أمة تحيا على نزواتها وأهوائها، في الوقت الذي عاث الدخيل ببلادها مستغلًا آفتها المسيطرة عليها وهي: الاستكانة لرغبة الدخلاء.

لقد تغير حال أمتنا حتى:

أضحت مجزاةً وليس بنافعٍ

جسم تُبعثره إلى أشلاء

ذهبت مع الإيمان كلُّ عظيمةٍ

ومضى مع التوحيد كلُّ علاء

ومع ذلك فإن الوطن لايستحق أن يكون وضعه على هذه الحالة السيئة التي وصفها الشاعر فقال:

يا موطنًا لبسَ الهوانَ وأرضُه

أرضُ الخلودِ وجنّةُ الشعراءِ

نظمتْ محاسنُك الطبيعةُ مثلما

نُظُمِت عقودُ لآلئ الحسناء

أجدب فليس الغُرب مهما طنطنوا

أهلاً لعيشة هذه الآلاء

والواقع أن من يقرأ هذه الأبيات الثلاثة وينتهي إلى آخر بيت فيها سوف يكتشف مدى اليأس المسيطر على الشاعر نتيجة لحيرته الناجمة عن مشاهداته في ديار قومه. وليس هذا فحسب، بل هو يتابع القول فيما هو أجلّ منه فيطلب

من الوطن أن يُذيق أهله بؤس الحياة أضعافًا مضاعفة وأن يتركهم وقد صاروا من جملة الفقراء وذلك لأنهم:

هم ضَيَّعوك حماقة وتسابقوا

ركضًا وراء مشورةِ الأعداءِ

إنهم في جبن مسيطر عليهم حققوا لأجبن الجبناء ما كانوا يحلمون به، ولكنهم لا يصلون إليه. كان هؤلاء ليوث الغاب ولكنهم أخلوا غابهم فرقًا وأسلموه إلى الحرباء. فأين الإباء؟ وأين كل مزية؟ بل أين الثأر للعزة والكرامة. إننا نرى اليوم ذلك الحديث عنهما نوعًا من الكذب ننمقه لأنفسنا، ثم لا يفيدنا هذا التنميق بشيء.

ثم يقول:

لقد مضت خمسون سنة لم نحضر لأنفسنا فيها غير الكلام ومباريات الخطباء فيما بينهم. بينما غيرنا من الناس يحثُّون الخطى إلى الأعمال وإلى التعمير والتقدم والرقي، لقد تركوا الكلام ومضوا في طريقهم إلى العلا وكأنهم الشهب، لقد كانت هممهم عظيمة وطموحهم عاليًا، وهم يعرفون أن الكون قد جرى نظامه على ألا يكون العز للضعفاء.

ولكن الأمل في الأمة موجود ولذلك قال:

قَومِي وإن جارَ الزمانُ عليهم

وتخاذلوا في الليلة الليلاءِ

سيوحِّدُون صفوفهم كجدودِهم

وسيثارون بنخوةٍ وإباء

بأبي الكميّ مدججًا بسلاحه

يحمي مواطنه صباح مساء

ومن هنا يصل إلى الحديث عن المولد الشريف الذي كان الحفل قائماً من أجله فيقول:

رَقَصتْ لمولده بطاحُ تهامةٍ
وَهَفتْ إليه روائع الصَّحراء
فهوى على الشرك الذميم مهدَّما
وبنى من الإيمان أي بناء

هذا العالم السعيد بمولد الرسول صلى الله عليه وسلم إنما هو سعيد لأن في مولده قضاء على الشرك وتوحيدًا للأمة، ومعه تتجاوب أصداء التكبير لله تعالى يرددها أسود الجزيرة الذين تحقق رجاؤهم حين ولد الهدى وعمّت الدنيا أنواره.

وفي سنة ١٩٥٢م ألقى الأستاذ أحمد السقاف قصيدة ثالثة عنوانها: «في ركب محمد» وعلق عليها في ديوانه بقوله: «ألقاها الشاعر في احتفال ضخم بذكرى مولد الرسول العربي محمد صلى الله عليه وسلم».

بدأ القصيدة بالتساؤل عن هذا الحفل الكبير الذي جمع الناس من كل مكان فتساءل: لمن الحفل؟ ولمن هذا الشعر العاطر؟ ولمن اجتمعت هذه الجماهير بأعدادها الزاخرة؟ هل هذا المهرجان لزعيم يحبه الشعب؟ أم لبطل شجاع بارز في ساحة المجد؟ قد عاد للوطن بعد انتصار فبذل الناس أقصى ما يقدرون عليه من أجل تكريمه. أم من أجل مليك عادل يشيدون به ويقيمون له منابر الثناء؟ ثم يتوقف الشاعر ليقول:

لا وربِّي هذا أجلُّ من القصْـ
ـدِ وأسمى مما ذكرت وأخطر
إنما الحفلُ للذي هزم الشِّرْ
كَ، وأعلى في الكون «اللهُ أكبر»

لقد عُرف الحق يوم ميلاده الميمون، وكان الحق يُهدر قبل ذلك.

وعرف بانتصاره على أعدائه بفضل تأييد الله له وبفضل شجاعته. ولقد أعز الله به العرب فانتصروا في مجابهتهم لأعدائهم أجلّ انتصار:

إنما العُرْبُ أمَّةُ الله في الأرْ
ضِ وعنها مصادر الخيرِ تنشرْ
خَصَّها الله بالرسالة والمجْـ
ـدِ، وبالمصلحِ الذي قد تَخَيَّرْ

أما وضع الأمة العربية في الوقت الذي ألقى فيه قصيدته، فلم يكن وضعاً حسناً وبخاصة بعد احتلال إسرائيل لجزء كبير من فلسطين:

إيه شعري قد ذاب جسمي للخطْـ
ـبِ، وقلبي لهوله قد تفطَّرْ
ما عهدنا العرين يحتلُّهُ قِرْ
دٌ، وعنه يزاح شبل وقسور

ثم يعيد القول مرة أخرى:

تفديك نفسي يا بلادي، فأنا حائر في هذا الوجود المزوَّر فواقع الأمر أننا في مجال الثراء أقوى وأقدر، وفي مجال الكثرة والعدد فإننا لسنا بأقل الشعوب بل نحن أكثر، أما العلوم فمنا هُذِّب الذوق والدماغ تنوّر:

فلماذا غزتكَ هذي الحُثالا
تُ، وفي أرضك العدوُّ تَنَمَّرْ
جَلجلِي يا صواعقَ الموتِ حتى
يُنسفَ الكون فالنهاية أجْدَرْ

ويختمها بقوله: يا بلادي أنت السناء من الكون وأنت الجمال الساحر، ولقد جاش شعري عليك حين أضاعوك فقد تفجر من قلبي الرقيق، فاقبلي شعري هذا لأنه أنَّةُ من جريح، وإنه الدم وقد سال من شهيد مُعَفَّرْ.

هذه هي قصائد الأستاذ أحمد السقاف التي ألقاها بمناسبة المولد النبوي الشريف، ولاقت الاستحسان، ودلت على شاعريته المبهرة.

****

شعر المناسبات الإسلامية

الهجرة النبوية[1]

مضى مقالنا السابق من «الأزمنة والأمكنة» في الحديث عن «شعر المولد النبوي» مثلنا فيه لما ورد من قصائد بهذه المناسبة المباركة. وها نحن ننتقل منه إلى القسم الثاني من أقسام مقالات الشهر الكريم، وهو عن: «شعر الهجرة النبوية» فهذا الحدث التاريخي المهم في حياة المسلمين بما له من أثر في انتشار الإسلام وزيادة أعداد المسلمين وقوتهم قد قال الشعراء فيه كثيراً من الأشعار في الماضي وفي الحاضر. ومما قيل في الوقت الحاضر ما قاله شعراء الكويت الذين لم يهملوا هذه المناسبة الإسلامية الكريمة فعبّروا عنها بشعرهم، وذكروا أهميتها في دنيا الإسلام والمسلمين ولقد كانت الكويت - ولا تزال - تحتفل بها سنويًّا كما تحتفل بالمولد الشريف. وهذه هي البداية:

ما إن صدع رسول الله بدعوته حتى تكالبت عليه قريش تؤذيه وتؤذي من يسلم من أصحابه، ولا تدخر وسعًا في سبيل كف الناس عنه حتى لا يؤمنوا بالإسلام كما آمن غيرهم وكلما مرت الأيام ازداد الأذى وكثرت الإساءات حتى وجد النبي الكريم أنه لابد وأن يجنب أصحابه هذا البلاء فأمرهم أولا بالهجرة إلى الحبشة، ولكن قريشًا أرسلت إلى ملك الاحباش (النجاشي) من يبلغه بخطر هذه المجموعة التي لجأت إلى بلاده ولكنه لم يستمع إليهم وأبقى المسلمين في حمايته.

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠١٢/٨/١.

خلال هذه الفترة كان الرسول يعرض نفسه الكريمة على القبائل علها تدخل في الإسلام فيكون في عددها المنعة والقوة ولكنه لم يتمكن من ذلك إلى أن جاءه من المدينة قوم ينتمون إلى الأوس والخزرج، وقد جاؤوا على دفعات. حتى انتشر الاسلام في المدينة وزاد عدد المسلمين، حتى إذا جاءت السنة الثالثة عشرة لمبعثه صلى الله عليه وسلم جاءه في موسم الحج يومذاك سبعون رجلًا وامرأتان، كلهم تسلل إليه وهو جالس في شعب العقبة، وكان معه عمه العباس بن عبدالمطلب قبل أن يسلم، وقد بايعه هؤلاء على السمع والطاعة، وعلى أن يحموه إلى أن يُظهر الله دينه، واختار منهم اثني عشر نقيبًا كل منهم مسؤول عمن وراءه.

ومما روي في هذا الموقف ما ذكره الصحابي الجليل عبادة ابن الصامت وهو قوله: «بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة الحرب، وعلى السمع والطاعة، في عُسرنا ويُسرنا، ومنشطنا ومكرهنا، وأثرة علينا، وألا ننازع الأمر أهله، وأن نقول بالحق أينما كُنَّا لا نخاف في الله لومة لائم».

ولقد سميت هذه البيعة بيعة العقبة الثانية، وبها قوي شأن المسلمين وانتشر الدين الحنيف، وقد شعر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن الأجواء صارت مهيأة في المدينة المنورة لاستقبال المسلمين، فأمر أصحابه بالهجرة إليها بعد تلك البيعة التي تمت في السنة الثالثة عشرة لمبعثه الكريم. وقد هاجر المسلمون تباعًا إلى هناك بناء على أمر الرسول.

وبعد ذلك لم يبق في مكة إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعلي بن أبي طالب أو من منعه الكفار بأن حبسوه أو كان مريضًا. وقد اكتشف القرشيون فجأة أن مكة صارت شبه خالية من المسلمين، وعلى ذلك توقعوا من خروجهم الشر فعزموا على قتل النبي الكريم، وهذه النية لم تفته فعزم على الهجرة وترك ليلة

مغادرته علي بن أبي طالب في فراشه وغادر معه أبو بكر الصديق وباقي حكاية الرحلة معروف.

وقدم الرسول وصاحبه إلى المدينة وسط أفراح أهلها وترحيبهم، وبدأت منذ لحظة وصوله عملية بناء الدولة الإسلامية التي شهد التاريخ قيامها وقوتها.

هذا ما كان من حديث الهجرة التي كان لها أثرها كما رأينا في التاريخ الإسلامي، وكانت المدينة المنورة محطة مهمة من محطات الجهاد في سبيل نشر الإسلام واستعادة المهاجرين لحقوقهم المسلوبة. وقد رأى المسلمون في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب أن تكون سنة الهجرة هي بداية السنة الاسلامية، وأطلقوا عليها السنة الهجرية وهذا هو ما يجري عليه التقويم الهجري حتى اليوم.

وننتقل الآن إلى الشعر الذي قيل بمناسبة الاحتفال بذكرى الهجرة، مما قاله الشعراء الكويتيون. وسوف نذكر شعر شاعرين من بلادنا هما: الأستاذ عبدالمحسن محمد الرشيد والأستاذ محمد أحمد المشاري وكلاهما شاعر مبدع له إنتاج شعري فاخر.

أولهما: **هو عبدالمحسن محمد الرشيد**، معلمي في أوائل أربعينيات القرن الماضي في المدرسة الأحمدية في مبناها القديم الكائن على ساحل البحر، وقد أزيل ودخلت أراضيها ضمن امتداد قصر السيف عندما جدد وأضيف إليه.

وهذا الرجل متميز بمعنى الكلمة، إن ذكرنا الشعر وجدناه فارس ميدانه. وإن ذكرنا العمل التربوي وجدناه خير من جدَّ في هذا المجال وأبدع فيه، وتكفيه عنايته الكبرى بالوسائل التعليمية المعينة للمدرسين في عملهم فقد تولى هذا الأمر مدة طويلة وأنجز فيه إنجازات تحسب له. وإن ذكرنا نشاطه بين زملائه من التربويين وجدناه وثيق الصلة بهم حريصًا على جميعهم. وهذه الأمور التي ذكرناها سوف نعرضها هنا:

ولد أبو ماهر في حي القبلة من عاصمة الكويت في اليوم الثامن والعشرين من شهر أغسطس لسنة ١٩٢٦م ودرس منذ البداية في الكتاب الذي افتتحه ودرَّس فيه الشيخ أحمد خميس الخلف، وتنقَّل بعد ذلك في عدد من الكتاتيب التي كان مجال عملها حي القبلة.

في سنة ١٩٣٧م التحق بالمدرسة القبلية، واستمر فيها إلى أن أنهى السنة الثالثة الثانوية، وهي السنة الأخيرة في مراحل التعليم في الكويت آنذاك.

بدأ عمله في سلك التدريس منذ سنة ١٩٤٣م، ومكث فيه مدة تزيد قليلاً عن الثلاث سنوات ثم استقال. وتفرغ للعمل التجاري، واستفاد من رحلاته في سبيل عمله الجديد هذا بأن تردد كثيراً على إيران وتعلّم فيها اللغة الفارسية واطلع على أدب عمر الخيام اطلاعًا مكنه من أن يلقى عنه في إذاعة الكويت بعض المحاضرات.

وفي سنة ١٩٤٩م عاد إلى التدريس مرة أخرى فكان عمله في المدرسة القبلية التي تخرج فيها وخلال عمله هذا التحق بعدة دورات دراسية في الجامعة الأمريكية ببيروت، ثم أكمل دراسته التربوية في إنجلترا فحصل من هناك على دبلوم في التربية وعلم النفس.

وفي سنة ١٩٥٦م انتقل الأستاذ عبدالمحسن الرشيد إلى ديوان دائرة معارف الكويت، وبدأ عمله بها مراقبًا لقسم وسائل الإيضاح الذي طوره فيما بعد حتى صار صرحًا تربوياً كبيراً ومهماً. وبعد أن صار مديراً لدائرة الوسائل التعليمية تقاعد في سنة ١٩٧٨م.

شارك في كثير من الأعمال المتعلقة بالتربية وبالأدب، وأصدر ديوانه الشعري الوحيد في سنة ١٩٧٢م، وقد ضم هذا الديوان كامل شعره الذي سبق أن نشره في

مجلة البعثة وغيرها من المجلات وفيه تنوع واضح، أما من الناحية الفنية فهو شعر جميل فيه روح الشعر التي يبحث عنها الشعراء ومحبو الشعر الرائع. وإلى جانب ذلك فإنه أسهم في إنشاء نادي المعلمين ورابطة الأدباء الكويتيين وكان أمين سرها في السنة الأولى لإنشائها.

عبدالمحسن الرشيد رجل لا يُنسى فضله وجهده وإنتاجه، توفي رحمه الله في سنة ٢٠٠٨م.

هذا ولعبدالمحسن الرشيد قصيدة جميلة أوردها في ديوانه، وكان قد ألقاها في حفل أقيم بمناسبة عيد الهجرة سنة ١٩٤٩م، وقد صادف ذلك وقوع نكبة فلسطين التي كان لها أثرها في نفوس كافة العرب والمسلمين، وقد نال الكويتيون من أذاها الشيء الكثير، ولا بد وأن تضفي هذه النكبة على الاحتفال شيئًا من الحزن، وتُثير في نفوس الحاضرين كثيرًا من الضيق. وكان هذا الشاعر ضمن أبناء هذه الأمة يحس بالإحساس نفسه، ويتألم بما حل بفلسطين كما يتألم قومه. وهو يرى أن ما حدث لهذا البلد العربي، كان حدثًا عامًّا، وما أصبحت بلادنا نهبًا للعدا إلا عندما رمينا بالشقاق فقادنا إلى المسعى السيء الذي سار بنا إلى الحال التي نحن عليها الآن.

وبسبب هذه الفرقة فإن الجيوش العربية التي خرجت من أجل تحرير فلسطين عادت وهي مكللة بالعار بدلًا من أن تكلل بالغار كما يحدث للمنتصرين، وقد هزمت هذه الجيوش بسبب الغدر لا بسبب الحرب.

ووجدنا نتيجة ذلك في ضياع فلسطين وتشرد أهلها، فاستولى على مغانيها الصهاينة الأغراب. لقد كان التخاذل من أدوائنا المرة، ومتى دب في قوم وجدتهم ضعاف العزم لا يقدرون على إنجاز شيء.

أجل هذه العقبى، وبئست هي العقبى
أما أصبحت أوطاننا للعدا نهبا
رَمينا إلى داعي الشِّقاق قيادَنا
فلم نحمد المسعى، ولم نشكر الدَّربا

ثم يضيف إلى كل ما تقدم، فيقول إننا في عصر يتحكم فيه القوي ويزيح عن دربه الضعيف الذي يستكين رعبًا إذا هب في وجهه ذلك القوي المستأسد. وهذه هي طبيعة الدنيا يُهاب الأسد (الضرغام) ويجتاح الذئب الحمل الضعيف.

ثم إن الشعب لا تكون قوته بعدده فقط وإنما بسلاحه أيضًا فالسلاح هو القوة التي ترهب الأعداء وتجعلهم يحسبون ألف حساب لمن هو في مقابلهم.

وبسبب ذلك فإن الشاعر ينهى أمته عن اتباع أباطيل السياسة فهي كالحرباء تبدي في كل يوم ثوبًا جديدًا بلون جديد. وكم واحد نراه ممن يدعي حب السلام ينقلب على آرائه فيتحول بسبب أطماعه إلى داعية للحرب مثير لها.

ثم إن الشاعر ليعود إلى حسن الظن بأمته عارضًا عليهم أن يضموا صفوفهم، فيضربوا بكف واحد، حاملين قلبًا واحدًا، طالبًا منهم أن يعرضوا عن مثيري الفرقة ودعاة النزاع فهم كلهم كالغربان، فهل وجدنا غُرابًا ينعب فيطرب له سامع.

ولقد اعتاد العرب الحرص على الكرامة، والثأر لأنفسهم من أعدائهم المتسلطين عليهم. ومن ظن أن هؤلاء ينسون ثأرهم، ويرضون حمل الضيم فإنه لا يعرف العرب على حقيقتهم.

إن الأمل قوي في نفس الشاعر، لأنه يرى أن ما حدث ليس إلا رجعة تسبق الوثوب، وأن الكتائب العربية قادمة:

فلا يحسب الأعداء فينا هوادة
فما هي إلا رجعة تسبق الوثبا

رويدهم يلقوا كتائب يعرب
كما فاض في الوادي المضيق إذا عبا
بكلٍّ فتى كابن الوليد بسالة
يرى الموت في ساح الوغى منهلًا عذبا

هذا الفتى الذي يشبه خالد بن الوليد في بسالته ومقدرته هو الذي سوف يكون النصر على يديه لأنه:

أبيٌّ هوى الأوطان حلَّ شغافه
فليس يرى إلا بها مُدنفاً صبًا
همامٌ إذا ما الخطبُ حلَّ بساحهِ
أخو ثقةٍ بالنصر يقتحم الخَطْبا
ستغدو فلسطينُ بحدِّ حسامهِ
محررةً سهلا، مطهرة هُضْبا

كان أملًا قويًّا اندفع الشاعر في التعبير عنه، وكان وليد الحماس الذي اشتعلت به نفسه، ولكنا نرى الأمر على خلاف ما كان يأمل، فها قد مرت على ذلك اليوم الذي وقف فيه عبدالمحسن محمد الرشيد ليلقي قصيدته ثلاث وستون سنة دون أن يتغير شيء بل إن الأمور تسوء إلى درجة أشد مما كانت عليه من قبل.

ولكنه معذور في ذلك لأنه يتحدث عن قومه الذي عرف أحوالهم في كتب التاريخ ومرت به أخبار المعارك التي خاضوها والانتصارات التي حصلوا عليها، ولذلك نراه يقول:

وإنَّا، ومن رام اغتصابَ بلادنا
يُرَدُّ على أعقابه دونها غصبا
بلادٌ حباها الأولون دماءهم
فأضحى ثراها ينبت العزَّ لا العشبا

أبَــوْا هـونَـهـا يـومًـا بـأيـدي عـدوهـم

ونـحـن كـمـا كـان الـجـدود لـهـا: نـابـى

ولم يأت على ذكر ما جاء إلى الحفل من أجله، وهو ذكرى الهجرة النبوية الشريفة إلى المدينة المنورة إلا في الأبيات الأربعة التي جاء بها في آخر قصيدته. وهي لا تدل دلالة واضحة على حادث الهجرة، وإن كان فيها ذكر للرسول الكريم:

نحن شعب بنينا فخارنا بين الأمم بدين محمد بن عبدالله فصرنا أكرم تلك الأمم شعبًا، وحملنا إلى الناس في كل مكان مشعل الهدى، فأمطنا من ليل جهلهم الحجب التي تغطيه، فلا يحق لأي أمة أن تفخر بسبقها إلى فضل التمدُّن، فنحن الذين مَّدنوا الشرق والغرب، لا ينكر أحد فضلنا في ذلك:

وإنَّــا إذا مـا انـكـر الـبـعـضُ فضلنا

لكالشُّهْبِ لا تـخـفـى ومـن يُـنـكـر الشهبا

وإلى هنا تنتهي قصيدة أبي ماهر، وقد عبر بها في صدق ظاهر عن مشاعره نحو ما حل بالوطن العربي، وعبر كذلك عن آماله في مستقبل مشرق لهذا الوطن في أسلوب رقيق ضم معاني راقية تطرب لها النفوس.

وثاني الشاعرين وهو **محمد أحمد المشاري**، له هو الآخر قصيدة جميلة جاءت في ديوانه الذي أشرنا إليه، وهي في ثلاثة وثلاثين بيتًا. يبدؤها بحنينه إلى الماضي الذي عاش فيه أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، فاستمعوا إلى هديه، وسرتهم رؤيته، ورأوا ما فاض في الكون من نوره.

شَجًى يعتري نفسي، ودمعي له الصدى

عـلـى طـول عـمـري لايـزال مُـرددًا

حـنـيـنـا إلـى الـفـجـر المشـعِّ وهـديـه

إذا أظـلـمـت حـولـي الـدروب تجـدّدا

ثم يمضي في تهنئة ذلك العهد المنير، الذي به مُزِّقت أستار الظلام فتبدد وحل الضياء غامراً الحياة على سعتها ثم يقول هنيئاً لأيام لا نزال نذكرها فهي مديدة باقية في أعمار الخلائق إلى الأبد. وأخيراً هنيئاً لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وكل من معه، وهنيئًا لكل من رآه وهو يقود الأمة إلى ما وصلت إليه من قوة ومنعة، استمعوا إلى أحاديثه الشريفة وحاربوا معه، وتطبَّعوا بالطباع الكريمة التي أمرهم بأن يتطبعوا بها حتى يتمكنوا من العيش بسلام، وحتى تزول من نفوسهم كل ضغائن الماضي.

أما بعد ذلك فهو يوجه نداءه إلى رسول الله قائلًا:

حـبـيـبـي رسـول الـلـه يـا سـيـد الـورى

ويـا رحـمـة الـبـاري ويـا خـيـر مُـقـتـدى

ويـا شـافـعًـا يـوم الـحـسـاب مُـشَـفَّـعـاً

ويـا هـاديـا لـلـنـاس فـي الـعـيـش مرشدا

ويـا مـن بـه الـرحـمـن أحـيـا عـبـاده

فـبـشَّـرهـم بـالـفـوز يـومًـا وأوعـدا

وفي الفقرة التالية من القصيدة بدأ بذكر حال المسلمين عند بداية الدعوة الإسلامية، وقبل الهجرة النبوية الشريفة فقال إن المسلمين كانوا في ذلك الوقت جماعة قليلة العدد يحيط بهم كفار مكة ويتربصون بهم، ويراقبون ما يقومون به من أعمال خشية أن تتوسع دائراتهم وتزداد أعدادهم على حساب أهل مكة الذين كانوا يكبُّون على عبادة أصنامهم ولا يرضون بها بديلاً.

فماذا حدث للمسلمين وهم على هذه الحال، يقول الشاعر:

فـلـمَّـا أراد الـلـه نـصـراً لـديـنـهِ

الانَ قـلـوبًـا فـي المـديـنـة بـالـهُـدى

فبايعت الأنصار: أوساً وخزرجاً
نبيَّ الهدى أن يمنعوه من العِدا

ومن هنا بدأت الهجرة بمغادرة أعداد من المسلمين بناء على أمر رسول الله. وقد تركوا كل شيء وراءهم بمكة، ولم يمنعهم من الانتقال إلى المدينة مال ولا أهل ولا أصحاب، وقد ذكر لنا الشاعر رجلًا من هؤلاء هو صهيب.

وهو صهيب بن سنان بن مالك، ويطلق عليه لقب الرومي، لأنه أسر وهو صغير أسرته الروم وبقي عندهم فترة إلى أن أتيحت له الفرصة فجاء إلى مكة عند عبدالله بن جدعان الذي صار حليفًا له. وهو صحابي جليل، هاجر إلى المدينة مع سيدنا علي بن أبي طالب وقد تبعه عدد من المشركين، فقال لهم: يا معشر قريش إني من أرماكم ولا تصلون إليَّ حتى أرميكم بكل سهم معي فإن كنتم تريدون مالي دللتكم عليه فرضوا بالمال وعاهدوه، وقد روى ما حدث له للرسول صلى الله عليه وسلم فقال له: «ربح البيع. ونزلت في شأنه الآية الكريمة: ﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله﴾.

ومما يدل على مكانته أن سيدنا عمر بن الخطاب أوصى أن يصلي عليه صهيب، وأن يصلي بالناس إلى أن يجتمع المسلمون على إمام. وقد حضر كافة المشاهد التي حضرها رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يتخلف عن أي مشهد منها.

وقد توفي صهيب رحمه الله ورضي عنه وهو ابن سبعين سنة في شهر شوال لسنة ثمان وثلاثين من الهجرة. (١٦ من شهر مارس ٦٥٩م).

ثم يمضي الشاعر متحدثًا عن هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن هاجر جُلُّ أصحابه، وصاروا في المدينة ضيوفاً على المسلمين من أبنائها. وقد تناول

هذا القسم من القصيدة عزم بغاة الشرك على منع الرسول الكريم من مغادرة مكة بعد أن علموا بنيته هذه، لأنهم رأوا أن خروجه سوف يزيده قوة وسوف يجمع له الناس من كل مكان إضافة إلى المهاجرين من مكة والأنصار من أهل المدينة. ولذلك فإن كبرهم الذي أرغى وأزبد شيطانه بهم جعلهم يقدمون على فعل ممقوت، فهم في الليلة التي غادر فيها الرسول مكة يجتمعون حول بيته عازمين على قتله، ولكن الله سبحانه أعماهم عنه فخرج دون أن يحسُّوا بخروجه:

وقد مكروا والله يمحق مكرهم
ويحميه منهم آمنا ومُسَدَّدا

ويستمر محمد أحمد المشاري في وصف الرحلة النبوية إلى المدينة المنورة. وقد كانت المرحلة الأولى منها في غار حراء الذي نال شهرة كبيرة عندما لجأ إليه الرسول الكريم وأبو بكر الصديق ليكون موضعًا يستتران به إلى أن ييأس الباحثون عنهما من قريش. وقد كانت فترة البقاء في هذا الغار آية من الآيات التي تذكر بهذه المناسبة، فقد بدت تلك الآيات فور دخولهما فيه حين خيمت على بابه العنكبوت واتخذت الحمامة من مدخلة عشًّا باضت فيه، مما حمل المتابعين على الظن بأن هذا المكان قديم لم يمر به أحد من قبل ودليل قدمه واضح في الحمامة والعنكبوت.

وكانت قريش قد وعدت من يعثر عليهما بجائزة ثمينة، فتهيأ سراقة بن مالك الجشعمي لذلك طمعًا في الجائزة، ولكنه عندما عثر عليهما لم يتمكن من عمل شيء، فقد هبطت قوائم فرسه في الأرض وأصبح لا يستطيع الحراك، وقد تكرر منه ذلك ثلاث مرات وفي كل مرة يرجو العفو عنه وإقالة عثرته ثم يعود إلى ما كان عليه بسبب الطمع، ولكنه في المرة الثالثة عرف أن الأمر فيه سر خطير وأن محمداً صلى الله عليه وسلم نبي لا شك في نبوته، فصار عونًا منجداً لهما بعد تلك العداوة التي كانت قد استقرت ضدهما في قلبه.

ولسراقة بن مالك قصة لطيفة تتعلق بموقفه هذا نقدم منها هنا ما يدل عليها

وكان سراقة بن مالك بن جعشم كنانيّاً من أهل مكة. وبعد الحادثة التي ساخت فيها قوائم فرسه، وجه أبياتًا لابي جهل قال له فيها:

أبا حكمٍ والله لو كنت شاهداً
لأمرِ جوادي إذ تسوخ قوائمه
علمت ولم تشكك بأن محمداً
رسولٌ ببرهان فمن ذا يقاربه

وَرُوِيَ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لسراقة يومذاك: كيف بك إذا لبست سواري كسرى؟ وقد حدث ذلك فيما بعد، بعد فتح فارس في عهد سيدنا عمر بن الخطاب حين أُرسِل إلى الخليفة السواران فدعا سراقة وكان رجلًا مسنًّا آنذاك فقال: أرفع يديك، فهذا مصداق ما قاله لك رسول الله.

وأخيراً وصلت الرحلة المباركة إلى نهايتها وأشرف الرسول الكريم على المدينة المنورة فتهلل الكون بها واستنارت بطلعته بدراً على مشارفها، فهذا هو رسول الله وهذا هو الصديق وقد أخذ يظلله عن حر الشمس الذي توقَّدَ يومذاك، وقد أسفرت الدنيا بنور الهداية الذي عم الخلق فيما بعد، وهكذا سُطِّرت الآيات في الهجرة التي أطاحت بضلال الشرك، فجاء ذكرها مخلداً في القرآن الكريم.

وعلى الرغم مما شهدناه في قصيدة الشاعر محمد أحمد المشاري من اعتزاز بحادث الهجرة، واهتمام كبير بوصف ما جرى خلال رحلة الرسول الكريم وصاحبه، فإنه قد عاد في الختام لكي يعبر تعبيراً صادقاً عن عقيدته الدينية التي يرى الدين – من خلالها – منهجًا في الحياة، وأن الدين معنًى وليس شكلا ومظهراً من المظاهر التي يتظاهر بها الناس فيقول في ذلك:

أرى الدين في الدنيا حياةً ومنهجاً
وليس احتفالًا ينتهي حين يُبتدا
أرى الدين معنًى ليس شكلاً ومظهراً
وزُخرفَ أقوالٍ ومجداً وسؤددا
هو البرُّ والإيمان بالله والتُّقى
وألاَّ نرى إلا رضا الله مقصدا

وهكذا تنتهي هذه القصيدة بما حملت من مشاعر طيبة وأفكار سديدة. وما دلَّت عليه من حسن اعتقاد الشاعر بربه وبرسالة محمد صلى الله عليه وسلم.

وفي الختام نجمل شيئاً من سيرة شاعرنا الذاتية، لأن الرجل وقد توفي في اليوم الثالث والعشرين من شهر يونيو لسنة ٢٠٠٠م يحتاج اليوم إلى التعريف به وسط الأجيال الحاضرة.

محمد أحمد خالد المشاري شاعر من شعراء الكويت البارزين. ينشر شعره منذ فترة طويلة، وله ديوان مطبوع نشره مركز البحوث والدراسات الكويتية بعد وفاته، وراجعه الدكتور خليفة الوقيان مع مقدمة كتبها الأستاذ عبدالله زكريا الأنصاري. وكان نشر هذا الديوان في سنة ٢٠٠٧م. وهو يضم عدداً كبيراً من القصائد في موضوعات شتى، وأغراض متعددة، إذ إنه اهتم بالقصائد الوطنية والدينية، وقصائد الرثاء، والوصف، والتعبير الصادق عن النفس، مع ذكر الأحداث التي مرت به، والمشاهدات التي شاهدها ومما يلفت النظر إلى هذا الديوان بعض القصائد الخاصة بالصغار التي قام المركز المذكور بطبعها مفردة في طبعة أنيقة تشد أنظار الأطفال إليها.

ولد الشاعر محمد المشاري في سنة ١٩٣٦م، وقد أنهى دراسته الابتدائية ثم الثانوية في الكويت، وواصل تحصيله العلمي في مصر حتى حصل على شهادة

البكالوريوس في الاقتصاد في كلية التجارة والاقتصاد بجامعة القاهرة سنة ١٩٥٧م. فور تخرجه عمل في دائرة المطبوعات والنشر بوظيفة محاسب، ثم صار معاونًا ماليًّا.

وانتقل بعد ذلك إلى وزارة الخارجية حيث صار السكرتير الأول لسفارة الكويت في اليابان، وعاد من هناك ليشغل منصب مدير الإدارة الاقتصادية في الوزارة التي يعمل بها. ولكنه عاد إلى السلك الدبلوماسي عندما عين سفيراً للكويت بكينيا في يوم الثامن والعشرين من شهر مارس لسنة ١٩٦٧م. ولم يطل به المقام هناك إذ استقال في اليوم الخامس من شهر مارس لسنة ١٩٦٩م لكي يتفرغ لأعماله الخاصة.

كان عضواً في رابطة الأدباء الكويتيين، ورئيساً لتحرير مجلة الرابطة (البيان) حتى سنة ١٩٦٨م.

وفي الختام فإن كل ما نرجوه هو أننا قدمنا ما يكفي عن كل ما حدث بمناسبة الهجرة الكريمة، وتحدثنا عن المعاناة التي تَكَبَّدها المسلمون منذ ظهر الإسلام ببعثة الرسول الكريم إلى أن فتح الأنصار قلوبهم للدين ولإخوانهم المهاجرين وبايعوا الرسول على الإيمان به والدفاع عنه.

****

ملحاق خير

في مطلع خمسينيات القرن الماضي كان نادي المعلمين قائمًا في الكويت. يتقدم بانشطته المعتادة ويصدر مجلته (الرائد)، ويلتقي فيه أبناء الكويت من معلمين وغيرهم يتبادلون الأفكار ويديرون الندوات، كما أنهم - أيضًا - يستمعون إلى المحاضرات والمهرجانات الشعرية التي تقام بين آونة وأخرى.

نشرت مجلة «الرائد» في المجلد الأول - القسم الثاني ص ٥٤٤ - وهو يعادل العدد رقم ٦ للسنة الأولى الصادر في شهر أكتوبر لسنة ١٩٥٣م حديثًا عن مهرجان كبير أقامته دائرة معارف الكويت برعاية الشيخ جابر العبدالله الجابر الصباح بمناسبة الاحتفال بذكرى رأس السنة الهجرية وكان الشيخ جابر نائبًا عن والده الشيخ عبدالله الجابر الصباح رئيس المعارف، كان المهرجان شعريًّا بحتًا تبارى فيه عدد من الشعراء وحضره عدد كبير من المتابعين لمثل هذه الأنشطة من مسؤولين وجماهير. وكان المشتركون في إلقاء قصائدهم من الشعراء هم عبدالعظيم بدوي وراشد السيف ورياض هلال وأحمد أبو بكر إبراهيم وعبدالله الدشلوطي وأحمد عنبر ومحمود شوقي الأيوبي، وقارئا القرآن الكبير محمد البحيري ومحمود ربيع. وكان جميع هؤلاء من العاملين في دائرة معارف الكويت، وكان القارئان والشيخ رياض هلال وهو شاعر جيد الشعر مَنْ مدرسي معهد الكويت الديني، وكان الأساتذة الآخرون بين ناظر ومدرس وموجه مدرسي ولكنهم كانوا مُبدعين في

مجال الشعر يتوقع الحاضرون إلى المهرجانات التي يشتركون فيها أن يستمعوا منهم شعرًا راقيًا رفيعًا وقد أكسبوا الحركة الثقافية في الكويت حياة وأضافوا إليها نشاطاً.

وقد أضافت الدائرة المعنية إلى المهرجان إضافة جعلته أكثر حيوية، وأشد جذبًا لنفوس الحاضرين وأذهانهم، وذلك عندما أشركت فيه فقرة تمثيلية نشرت مجلة الرائد صورتين تمثلان المشاركين في التمثيل فيها وهم يؤدون أدوارهم، ويسعدون المشاهدين يومذاك.

كما نشرت المجلة المذكورة إحدى قصائد المهرجان، وهي التي ألقاها الشاعر أحمد أبو بكر إبراهيم وكان موجهًا للغة العربية في دائرة معارف الكويت، وله نشاط ثقافي كبير أثرى به الحياة الثقافية عندنا.

هذه القصيدة بعنوان «مع الركب الطاهر» وهي طويلة فيها كثير من الأمور المتعلقة بالهجرة الكريمة بدأها الشاعر بذكر خروج الركب الطاهر في جنح الليل إلى مُهَاجِرِه، فقال:

سائلِ البيدَ كيف لاح الرّكابُ
فأضاءت بجانبيه الهضابُ

لابسًا في الرحيل جنح الليالي
وهو للدهر والحياة شهاب

ثم يتجه إلى الرسول الكريم مخاطبًا:

يا رسولَ الإله سِرْ بسلام
آمن الطُرقَ قاهرٌ غلابٌ

جهل الظالمون قدرك في الرّسـ
ـلِ وشاءوا ما بيّتوه فخابوا

ثم يحكي حكاية الهجرة منذ كان الرسول الكريم في بيته إلى أن خرج إلى هجرته، وكفار قريش أمام الباب واقفون في انتظاره، وقد بيّتوا له نية سيئة ولكن الله فوق ما يبيتون، فقد عصم نبيه منهم فخرج بسلام.

ومضى الشاعر يحكي ما حدث في غار حراء منذ أن حطت به الحمامة، ونسج حول بابه العنكبوت نسيجه، ثم ينتقل إلى حديث الرحيل كاملًا:

قد أراد الإله للدين نشرًا
فأتته بالهجرة الأسبابُ

بين قوم كنفحة الروض طُهرًا
ورجالٌ هُمُ الليوثُ الغضاب

وفي ختام القصيد يقدم أحمد أبو بكر إبراهيم النصح للأمة الإسلامية، عارضًا على هذه الأمة العودة إلى ما كان عليه سلفها من مجد وعزة وتقدم. وهو يرى أن سلف هذه الأمة قد أراد النجاح فأصابه، وإذا ما أراد الخلف ذلك فعليهم بالجد في ذلك كما جد الاسلافُ، فنحن لن نصل إلى ما نريده في حياتنا إلا إذا لبسنا من الفضائل درعًا فهي موجبات المجد:

وطرحنا عن العيون رقادًا
وعرفنا أن الحياة غِلابُ

****

شعر المناسبات الإسلامية في الشعر الكويتي

الإسراء والمعراج[1]

ننتقل اليوم إلى القسم الثالث من الأقسام الأربعة الخاصة بشعر المناسبات الإسلامية في الكويت، وسوف يكون مجال حديثنا حول ما ورد عن شعرائنا من قصائد تتحدث عن الإسراء والمعراج.

وليلة الإسراء والمعراج من الليالي التي داوم أبناء الكويت على الاحتفال بها ضمن المناسبات الإسلامية ولا يزالون يقومون بإحيائها حتى اليوم.

وهذه هي البداية:

كان رسول الله ﷺ قد أحس بضيق شديد لتزاحم عدد من الأحداث المحزنة عليه، ومنها وفاة عمه أبي طالب الذي كان يدافع عنه وكان يرعاه منذ صغره ويبسط حمايته عليه، ولما صدع الرسول الكريم بدعوة الحق، وبدأ كفار قريش بإيذائه، وتعريضه للمضايقات ما كان أحد يمنعهم عنه بعدالله سبحانه إلا هذا العم الكريم. وفي هذه الفترة - أيضًا - توفيت زوجته خديجة بنت خويلد وهي أول من آمن برسالته من النساء، وكانت تواسيه دائمًا وتخفف عنه من أعباء ما يشعر به جراء المشكلات التي يثيرها المخالفون في كل وقت وقد حاول أن يجد عند أهل الطائف ملاذًا يكفل له نشر دعوته، فلم يجد منهم إلا الصد والأذى بأكثر

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠١٢/٨/٨.

مما كان يناله من كفار قريش. فوسط كل هذه الهموم أراد الله سبحانه أن يفرج من همومه بمعجزة تشرح صدره وتزيل ما علق بنفسه في تلك الفترة من أحزان. وقد تمثلت تلك المعجزة بأن أتاح الله له الذهاب إلى بيت المقدس بروحه وجسده ثم بعد الإسراء به، عرج إلى السماء وشاهد ما شاهد هناك من الأمور العظيمة، وتم كل ذلك في جزء من الليلة التي حدث فيها هذان الحدثان. ثار جدل طويل في مكة حول هذا، وقد رد رسول الله ﷺ بالبراهين القاطعة على جميع الادعاءات التي كانت تشكك فيما حدث. وصدرت كتابات كثيرة تروي ما تم في تلك الليلة، ولكننا لا نستطيع عرضها هنا، وذلك لتعدد الروايات من جهة ولطول الأحاديث من جهة أخرى. ولكن المهم في الأمر أن مسألة الإسراء والمعراج معجزة من المعجزات التي خص الله نبيه بها. وأنها مذكورة في القرآن الكريم بما لا يحتمل أي تشكيك في الأمر، وقد ورد ذكر الإسراء في بداية سورة الإسراء وجاء ذكر المعراج في بداية سورة النجم.

☆☆☆☆

لا تزال الكويت حتى يومنا هذا تحتفل بذكرى الإسراء والمعراج في اليوم السابع والعشرين من شهر رجب لكل سنة هجرية، وفي الوقت الحاضر تحيي وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية هذه المناسبة كما تقدم وزارة الإعلام برامج إذاعية وتلفزيونية حولها، وذلك من أجل إحياء ذكرى هذه المعجزة. أما في كويت الماضي فقد كان الناس يحتفلون في المساجد في التاريخ نفسه، وذلك بقراءة قصة الإسراء والمعراج، ثم عندما بدأ التعليم النظامي في الكويت في السنة الدراسية ١٩١١ - ١٩١٢م صارت المدارس تحتفل احتفالات كبيرة يحضرها كبار القوم ويشترك في التحدث خلالها بعض العلماء والشعراء، وقد جرى حفظ بعض ما ورد من تلك الأشعار، ونشر بعضها في الصحف بعد ذلك.

لدينا في هذا المجال قصيدتان أولاهما للشاعر الأستاذ محمود شوقي الأيوبي والثانية للأستاذ الشاعر الأديب فاضل خلف.

ولتكن البداية مع القصيدة الأولى التي ألقاها الشاعر محمود شوقي الأيوبي، في حفل أقامه نادي المعلمين بالكويت بمناسبة ذكرى الإسراء والمعراج في المدرسة الأحمدية في مساء يوم الجمعة الموافق للخامس من شهر مايو لسنة ١٩٥١م ونشرتها له مجلة البعثة في عددها الصادر في اليوم الأول من شهر يونيو للسنة ذاتها، وهي قصيدة طويلة ضمنها الشاعر كثيرًا من المعلومات عن الإسراء والمعراج وأفاض في الثناء على الرسول ﷺ ووصف ما حدث وصفًا دقيقًا يتماشى مع ما ورد في النصوص التي حدثتنا عن المناسبة.

بدأ ذلك بقوله:

المجدُ قبَّلَ ثغرَهُ مستبشرا
وسرى به الروحُ الأمين على الذرا
وتأهبت زمرُ الملائكة التي
في النور تنتظر النبيُّ الأكبرا

ثم يستمر في وصف المواكب السماوية، حين طافت الملائكة في أقطار السموات العلا تسبّح ربها وتذكر فضله، وقد تكشف تلك المواكب عن موكب مهيب هو موكب الحق حين عرج بالرسول الكريم إلى هناك ثم:

وتطلَّعَ الرُّسلُ الكرامُ لنورِهِ
في البرزخ العلوي لما أسفرا
شرفُ الدهور وعفَّةَ الدنيا به
شعًا على الأكوان مجدًا مُبْصرا

ولقد كانت آثار ذلك عظيمة في النفوس فإن ما تشعشع في ذلك الوقت من مجد يجيش من جنة الفردوس يغري بمحبة هذا الذي صعد إلى الملأ الأعلى،

فتوثب به قلب الحياة ضارعًا لله، واشتعل الفكر بتدبر الحقائق الماثلة، فكأن الأمم جميعًا قد سارت إلى بعضها وهي تترنم بالرحمات على هذا الخالد الميمون فكان ذلك لحنًا مسكرًا مثيرًا. ثم تطلعت أرواح الخلائق إلى الارتواء من منبع الغيب المعطر كوثرًا صافيًا عذبًا:

اللهُ أكبرُ كلُّ شيء صَيَّتُ
حتى الجماد الصُّلب حنَّ وعبَّرا
وتفتحت دُعجُ العيون وقد تلا
إقرا فرنَّ الكونُ يشدو من (حِرا)

لقد بهر البشر نور الرسالة كما بهر الملائكة الكرام الذين هبّوا مرحبين بالقادم إليهم من ملكوت الأرض إلى ملكوت السماء، بل هب الزمان كله والسناء يعلو من بين كفيه وقد تعطر الوجود بطلعه محمد ﷺ.

إنه نور يسوق الحائرين إلى صرحه العالم ، بالتوحيد الذي يردده الخلق في وقت السُّرى. وهو يهيب بالعقول أن تلتفت إلى البركات الصادرة من الرسول الكريم وهي بركات لا تنتهي إلى يوم القيامة. لقد كان زمانه هو زمان العبقرية التي قطعت فيه الأمة شوطًا إلى الخلود ولا تزال في مسيرها ذاك أمة فيها الخير، ولها المجد بفضل ما أنعمه الله على رسوله من كل ذلك. إنه نور يتموج لألاؤه فينعش الأرواح ويرفع الناس إلى المعالي.

طهارة الإيمان في صلواته، وكلها رحمة لمن انبرى إلى تقبل الدين الحنيف وآمن برسالة الرسول الكريم، وتحلى بالأخلاق العالية والعلم الغزير وقد صارا جزءًا من روحه أبعد بهما الظلام عن الكون كله: ثم يدخل الشاعر إلى موضوع الإسراء والمعراج قائلًا:

سبحان من أسرى وطاف بعبده

في العالم العلوي تمَّ وقدَّرا

هذي هي الذكرى فهلّا رجعةً

يا قومُ للمجدِ الذي قد أدبرا

ويناشد القوم راجيًا منهم أن يسعوا إلى استثارة غيرتهم على أوطانهم وما حل بها من بلاء، وبهذه الغيرة يمكنهم أن يعيدوا المجد الغابر، وأن يمحو عار السنين الذي ألمّ بأوطانهم طولًا وعرضًا بسبب التهاون، وأبعدهم عن أهداف الرسالة المحمدية السامية، ويقول إن غير الزمان مرت علينا واخترقت بلادنا، ونفثت على كل مكان من هذه البلاد ريحًا صرصرًا غير كل شيء وأعادنا إلى الوراء والآن ونحن نتذكر هذه الذكرى العطرة في ليلة الإسراء والمعراج ينبغي أن نلاحظ:

المسجد الأقصى يئنُّ بلهفةٍ

تدع الحليمَ أمامها مُتحيِّرًا

إن كان ثمَّ عروبةٌ فَلِمَ الردى

يختال ما بين النفوس مُكشِّرا

وإن كان الأمر أمر دين فها نحن متمسكون بديننا نحتفل بذكرى مهمة من الذكريات التي لا تنسى منه. وإن كان ذلك أمر أخلاق فإننا أمة لها شيم عطرة تنشر عطرها في كافة الآفاق، وتلفت إلى قيمتها الأذهان. كل ذلك لا ينقصنا بل إن حبنا لأرض العرب باقٍ في نفوسنا لا يتزعزع وهو الذي ينبغي أن يعيش دائمًا في قلوبنا ويدفعنا إلى الحفاظ على الأرض والعرض والناس جميعًا.

والكويت جزء من الدوحة العربية بل هي دوحة عذراء حريصة على دينها ولن تدبر عنه.

ومن هنا يتوجه إلى مواطنيه من الكويتيين قائلًا لهم: دعوا التخرص والشقاق جانبًا، فكم أمة خسرت وطنها بسبب الشقاق. ولذا فينبغي أن تمدوا اليمين وأن تسيروا إلى مستقبلكم دون تردد، ولتذكركم ليلة الإسراء أن الرسول الكريم الذي جرى نحو التراحم هو الذي فاز. فتراحموا وليكن اهتمامكم بنشر الوفاق بينكم قويًا ولا تترددوا في بذل كل غالٍ ونفيس في سبيل تقوية الأواصر، والعمل من أجل الوطن ومن أجل الدين الحنيف.

وأخيرًا:

وطنُ العروبةِ واحدٌ وبنوه في

عرف الحقيقة أمةٌ لن تُنكَرا

فأمومةٌ وأبُوةٌ وعمومةٌ

وخؤولةٌ اضحتْ جميعًا عنصرا

حلمٌ وذكرى أشرقت محبوبةً

طوبى لمن للإتحاد تَذكَّرا

هذه هي قصيدة الشاعر محمود شوقي الأيوبي التي ألقاها في مساء يوم الخامس من شهر مايو لسنة ١٩٥١م بمناسبة ذكرى الإسراء والمعراج، وقد سمى قصيدته: الليلة الخالدة، ونحن بتتبعنا لما ورد في أبياته نجد فيها صدق الحديث والحرص على تقديم النصيحة. والمديح اللائق برسول الله ﷺ. ولا حظنا في شعره الإكثار من ذكر النور الساطع الذي بهر الناس بإطلالته مع النبي الكريم. ثم استطعنا أن نعرف شيئًا عن الإسراء والمعراج فيما جاء في ختام أبياته كما قرأنا معه الأبيات التي تحدث فيها عن العروبة، وأن العرب أمة واحدة متماسكة. وقد أشرقت عليها هذه الذكرى وهي في حالة يتجدد فيها أملها بالعودة إلى المجد القديم.

وأخيرًا فإن الشاعر محمود شوقي الأيوبي، من شعراء الكويت المعروفين، قال شعرًا غزيرًا وطبع دواوين كثيرة. ولد في الكويت خلال سنة ١٩٠٣م، درس بمدرسة الشيخ زكريا الأنصاري الأهلية وكان مقرها في سكة ابن دعيج، ثم تابع دراسته في المدرسة المباركية، وبعدها انتقل إلى البصرة حيث تعلم فن الطباعة، وغادرها إلى بغداد ليلتحق بكلية المعلمين التي تخرج فيها سنة ١٩١٨، وكان إلى جانب دراسته النظامية يغشى مجالس العلماء ويأخذ عنهم علومهم مما جعله مثقفًا ثقافة واسعة ومتنوعة. ولقد كتب له أن يسافر إلى أندونيسيا ويستقر فيها فترة طويلة حيث قام بافتتاح مدرسة هناك ويسعى إلى نشر التعليم الديني الإسلامي وإلى تعليم اللغة العربية ولم يعد إلى وطنه الكويت إلا في سنة ١٩٥٠م.

ومنذ ذلك الوقت وهو يعمل في مجال التعليم في الوطن فكان مدرسًا في معهد الكويت الديني، ثم في مدرسة الشعبية، فمدرسة حولي، واستمر في نشاطه التعليمي هذا حتى سنة ١٩٦١م.

وخلال هذه الفترة كان لا يتوقف عن نظم الشعر، وكانت غزارة شعره تلفت إليه الأنظار حتى لقد عجب له أحد زوار الكويت من المهتمين بالشعر والأدب، وأثنى على عبقريته، وعلى مقدرته على التعبير الشعري عن كل ما يخطر له على بال. ولم يكن مستغربًا أن يكون له عدد من الدواوين الشعرية فقد كان ينظم الشعر منذ ريعان شبابه، ونذكر على سبيل المثال مما طبع له ديوان الموازين الذي سبق لنا أن نشرنا عنه مقالًا كاملًا في «الأزمنة والأمكنة» ثم ديوان «رحيق الأرواح» وديوان «هاتف من الصحراء» وديوان «الأشواق» و«ألحان الثورة» وله عدد آخر من الدواوين لم يتم نشرها نظن أن عددها يصل إلى ثمانية هي: أحلام الخليج، والملامح العربية، والمنابر، والأقلام، والينابيع، والصباح الجديد، وأغاني الحمى، وفردوس الشعر. وكل هذا العدد الهائل من الدواوين بما يضم من شعر متنوع الأغراض

يدلنا على مقدار ما يتمتع به هذا الشاعر من قدرة فنية، واستعداد فطري لقرض الشعر والإجادة فيه.

أمضى حياته متميزًا بحسن الخلق وطيب التعامل مع الناس حتى صار مذكورًا لدى الجميع لا يغيب عن بال أحد وعلى الأخص عن بال أولئك الذين تلقوا شيئًا من دراستهم على يديه ومنهم كاتب هذا المقال. وقد توفي الشاعر في سنة ١٩٦٦م تاركًا في النفوس أطيب الآثار.. رحمه الله.

☆☆☆☆

وفي اليوم الخامس عشر من شهر يونيو لسنة ٢٠١٢م طلعت علينا جريدة «الوطن» بقصيدة جميلة نظمها أستاذنا الشاعر فاضل خلف. تناول فيها الموضوع الذي نتحدث عنه في هذا المقال وهو: «الإسراء والمعراج» وقد أطلق على قصيدته عنوانًا هو: «من وحي الإسراء». وقد ذكر في بدايتها أنه كتبها بعد أن استمع إلى أحد المتحدثين من إذاعة الكويت وهو يروي ما يتعلق بمعجزة الإسراء وأعجب بحديثه اليومي مما دفعه إلى كتابة هذه القصيدة.

والأستاذ فاضل خلف من أدباء الكويت الذين أنتجوا كثيرًا في مجالي الشعر والنثر. كتب القصيدة وكتب المقال واتجه إلى القصة القصيرة فكتب عددًا من القصص أصدرها في كتابه «أحلام الشباب» وجمع أشعاره في دواوين منها «على ضفاف مجردة» و«٢٥ فبراير» و«كاظمة وأخواتها» وكتب عن عدد من الشخصيات الأدبية المعروفة فأصدر كتابه «زكي مبارك» كما أصدر كتاب «سعاد الصباح الشعر والشاعرة» وغير ذلك كثير فهو أديب متنوع الإنتاج لا يزال كذلك منذ بدأ الكتابة وهو شاب يافع حتى أيامنا هذه فهو يمدنا دائمًا بمقالاته وقصائده، ويسعدنا بمتابعته.

تلقى الأستاذ فاضل خلف دراسته في المدرسة الشرقية ثم المباركية. وامتهن مهنة التدريس في المدرستين المذكورتين وفي مدرسة الصباح. وبقي في هذه المدارس منذ سنة ١٩٤٤م حتى سنة ١٩٥٢م.

ولقد كان صغير السن حين بدأ في مزاولة مهنة التدريس فهو من مواليد سنة ١٩٢٧م.

ثم انتقل من سلك التدريس إلى العمل الفني بدائرة معارف الكويت منذ سنة ١٩٥٢ حتى سنة ١٩٥٤م، وفي هذه السنة الأخيرة انتقل إلى عمل آخر في دائرة المطبوعات والنشر وبقي بها حتى سنة ١٩٥٦م وفي هذه الفترة أصدر مجموعته القصصية الأولى: «أحلام الشباب» وفي نهاية عمله بدائرة المطبوعات والنشر تاقت نفسه إلى متابعة الدراسة فسافر في سنة ١٩٥٨ إلى بريطانيا حيث استقر به المقام في مدينة كيمبردج، وبقي فيها حتى سنة ١٩٦١م.

وبعدها عاد إلى وطنه وكانت الأمور هنا قد تغيرت نتيجة إلغاء الاتفاق التعاقدي الذي يربط بلدنا ببريطانيا، وسارت الكويت في طريق جديد يقتضي منها العناية بالاتصالات الخارجية فقامت بجهود كبيرة في هذا المجال عن طريق فتح السفارات في عدد من البلدان. واستصحب ذلك إلحاق مكاتب صحفية ببعض تلك السفارات، ومنها سفارة الكويت في تونس التي انتدبته للعمل فيها (وزارة الارشاد والأنباء) آنذاك (الاعلام حاليًا). وقد أقام أبومحمد هناك إلى سنة ١٩٧٦م، وكوّن علاقات طيبة وراسخة مع أدباء وشعراء تونس، واستهوته المناظر الطبيعية هناك فكتب عنها شعرًا ونثرًا، ولقد أكسبته وظيفته هذه مقدرة خاصة على الاتصال بالناس والمشاركة في الأنشطة الثقافية المتنوعة، وهو لا يزال مستمرًا على عادته هذه يشارك في كل ملتقى يعقد في الكويت في مجال رابطة الأدباء الكويتيين، ويسعدنا بوجوده بيننا، ونحن لا نزال نطمع بالمزيد من إنتاجه الطيب، الذي عرضنا

بعضه في مقالات «الأزمنة والأمكنة» وبخاصة عندما تحدثنا عن قصيدته العالية المستوى «الثمانون» التي سبق له أن نشرها في مجلة «العربي» الكويتية».

ونعود الآن إلى عرض سريع لما جاء في القصيدة الخاصة بالإسراء، وقد بدأها موجهًا القول إلى الرسول ﷺ:

لك الفخرُ إذ لقّنتَ أنفسَنا الفخرا
ونالت بفضلٍ منك أمّتنا النصرا
لقد صانكَ الرحمن من كل غادرٍ
وزفّتْ لنا الدنيا بمقدمِكَ البُشرى
وأصبحتِ الدنيا بنوركَ تهتدي
وتنشرُ في الأرجاء من مجدك العطرا

ثم يمضي في وصفه لرسول الله قائلًا: إنه نبي طأطأ له التاريخ هامته، وصار بانتصاره الشامل آية من آيات الله الكبرى، وقد جاء بالإعجاز في عدد الظواهر والآيات فكان الإسراء من أهمها. فسبحان من هيأ له الذي من أجله نقدم الشكر لله ونقر بالنعمى.

لقد جاء محمد ﷺ إلى الدنيا وهي ملأى بالظلم غارقة بالجور يعمها الجهل والضلال، فوجد كل قوي من الناس يستبد برأيه، ويطغى بقوته، وعلى العكس من هؤلاء فإنه وجد الضعاف من الناس وهم يعيشون عيشة الذل يطحنهم الفقر ويعمّهم البلاء.

ولقد صدع الرسول الكريم بدعوة الحق، فجلجل صوته في الآفاق، وملأ الدنيا عدلًا وعلمًا وخيرًا، وانطوت بوجوده صفحة الجهالة والفقر ليفتح صفحة البر والحق، ولكي يقوم بنصرة كل مظلوم قد تنغص عيشه، وأصبح مهملًا بين الناس لا كلمة له ولا شأن.

بل إنه كلما حاول التعبير عن أي أمر يحس به جوبه بالكبت، وأذيق من الأهوال ما يؤذيه.

ولقد جاءت الرسالة المحمدية لكي تزيل عن الفقراء فقرهم وعن المهمومين همومهم، ولقد قال أبومحمد:

فجاء رسول الله بالعدل والتقى

فصار ذليل القوم مستبشرًا حُرًّا

وألّف بين القوم حتى رأيتهم

وقد نشروا الدين المظفر والفكرا

القصيدة جميلة كما ذكرنا، وبها لمحات فيها دلالة على مقام الرسول ﷺ وعلى عظم الرسالة التي جاء بها فأزالت الأذى من النفوس، وحمت الضعفاء من تسلط الطغاة.

لقد لاحظنا كم هي عظيمة ذكرى الإسراء والمعراج، وعرفنا دورها المهم في حياة الرسول الكريم، وبخاصة وأنه عندما روى ما حدث له في تلك الليلة المباركة، كان حاضرًا للإجابة على أسئلة مستمعيه يقدم الدليل تلو الدليل على صدق ما جرى له، وقد صدقه الناس الذين استشهد بهم جميعًا وهذا ما أعطى الأمر مصداقيته، وجعل المسلمين يفخرون بهذه المعجزة التي أفاض بها الله سبحانه على رسوله فكانت راحة لنفسه الكريمة، وسببًا من أسباب التفاف عدد من البشر حوله ممن لم يكونوا قد أسلموا من قبل.

لكل ذلك اهتم المسلمون على اختلاف العصور بهذه المناسبة التي أشرقت أحداثها في سماء الإسلام وأصبحت عسيرة على النسيان، وصاروا يحتفلون بذكراها كلما حان وقتها من كل سنة.

وإذا كانت الكويت تحتفل بها، وكان شعراء الكويت يشيدون بها، والاحتفالات تقام سنويًا من أجل ذكراها منذ القديم، فإن ذلك لم يكن قاصرًا علينا وحدنا، فإن الأمة الإسلامية تحتفل كلها بذلك، وشعراء العرب يلهجون بذكر هذه المناسبة الشريفة، ويقولون فيها شعرًا كثيرًا معجبًا، وهذا هو أمير الشعراء أحمد شوقي يذكر الإسراء ويرد على أقوال المتسائلين عن طبيعة الإسراء؛ هل كان بالروح فقط أم بالروح والجسد:

يتساءلونَ وأنتَ أطهرُ هيكلٍ

بالروح أم بالهيكلِ الإسراءُ

بهما سموتَ مطَهَّرَينِ كلاهما

نورٌ وروحانيَّةٌ وبهاء

فضلٌ عليك لذي الجلالِ ومنَّةٌ

واللهُ يفعلُ ما يرى ويشاء

وهذه المنة الإلهية هي التي جعلتك:

تغشى الغيوبَ من العوالم كلَّما

طُويَتْ سماء قلَّدتْكَ سماء

في كلِّ منطقةٍ حواشي نورُها

نونٌ وأنت النقطةُ الزَّهراء

ثم يصف بعض المظاهر العلوية التي أشرنا إليها عندما تحدثنا عن الإسراء والمعراج فيما سبق، ولقد وردت هذه الأبيات في قصيدة شوقي الهمزية التي غنتها أم كلثوم، وكان مطلعها:

وُلِدَ الهدى فالكائناتُ ضياءُ

وفمُ الزمانِ تبسُّمٌ وثناءُ

ولأمير الشعراء أيضًا قصيدة غنتها أم كلثوم، وأحبها الناس في شتى البلاد الإسلامية وهي التي مطلعها:

ريمٌ على القاع بين البانِ والعلَمِ
أحلَّ سفكَ دمي في الأشهرِ الحُرمِ

وهي من أروع القصائد التي قيلت في مدح رسول الله ﷺ، وأشارت إلى نبذ من حياته الكريمة وفيها ذكر الشاعر الإسراء والمعراج حين قال:

أسرى بك اللهُ ليلًا إذ ملائكةُ
والرسلُ في المسجد الأقصى على قدمِ
لما خطرتَ بهِ التفُّوا بسيدهم
كالشُهب بالبدر، أو كالجندِ بالعلم
صلى وراءكَ منهم كلُّ ذي خطَرٍ
ومن يَفُزْ بحبيبِ الله يَأتَمِ
جُبتَ السماواتِ أو ما فوقهنَّ بهم
على مُنوَّرةٍ دُريَّةِ اللُّجُم

وبعد فهذه إشارة سريعة لابد منها للدلالة على أن الاهتمام بهذه المناسبة الكريمة كان اهتمامًا يشترك فيه المسلمون جميعًا، كما هي إشارة إلى أهمية القدس الشريف والمسجد الأقصى لنا نحن المسلمين مما يدعونا إلى أن نجعل تحريرهما من بني إسرائيل نصب أعيننا، فهذا فرض علينا ينبغي ألا نتخلى عنه.

****

شعر المناسبات الإسلامية في الكويت

غزوة بدر الكبرى [١]

من المناسبات التي كان الكويتيون يهتمون بها، ويذكرون ما وقع فيها مناسبة غزوة بدر الكبرى، وهي من أهم ما جرى للمسلمين بقيادة الرسول الكريم منذ هاجر إلى المدينة وبدأ في ترسيخ دعائم الدولة الإسلامية بها.

كانت المعركة قد جرت أحداثها في موضع اسمه «بدر» ومنه أطلق الاسم على الغزوة فعرفت به، وكانت فاصلة بين الحق والباطل، نقلت المسلمين إلى مرحلة متقدمة انتشر خلالها الإسلام، وتكاثر عدد المسلمين، وبدأت الوفود من شتى القبائل تأتي إلى الرسول الكريم مؤمنة بالرسالة الإسلامية مقتنعة بأنها الحق المبين.

وقد جعلنا الموضوع الرابع من موضوعاتنا الرمضانية خاصًا بغزوة بدر الكبرى، وسوف نقدم عنها بمقدمة يسيرة ثم ننتقل إلى الشعر وفقًا لما يدل عليه العنوان.

تقع البئر التي عرفت باسم بئر بدر على مسافة قصيرة من المدينة في الطريق المؤدي إلى مكة. وقد حدثت غزوة بدر في السنة الثانية للهجرة. وقد كان الأذى الذي تعرض له المسلمون من قبل كفار قريش قبل هجرتهم، سببًا في تطلعهم إلى

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠١٢/٨/١٥.

إضعاف قريش حتى لا تعود إلى إيذائهم مرة أخرى، وبخاصة وأنهم يعرفون ما تحيكه لهم من مؤامرات، وتدسه عليهم من دسائس، ومن المعروف أن المسلمين قد اضطروا إلى هجرة وطنهم مكة بسبب ما كانوا يتعرضون له من التنكيل، فكفار قريش كانوا قد اغتصبوا ممتلكاتهم ومنعوهم من أداء الحج والعمرة، ولذا فإن أي ضعف يلحق بقريش إنما هو الجزاء المستحق عليهم بسبب أعمالهم تلك. وكان أول ما فكر به الرسول الكريم هو التعرض لقوافل قريش القادمة من الشام عن طريق مُحاذٍ لموقع بدر. ولذا فإنه عندما علم بقدوم قافلة يقودها أبو سفيان وهي مقبلة من الشام، استشار أصحابه في أمر الاستيلاء عليها تعويضًا عن جزء مما أخذته قريش من المسلمين، ولقد أحس أبو سفيان بهذه النيَّة ولاحظ التحرك نحوه فأنذر أصحابه في مكة، وقد أدى الإنذار إلى استنفار حاشد بغية إنقاذ القافلة والقضاء على المسلمين في الوقت الذي استطاع فيه أبو سفيان أن يميل عن الطريق قليلًا فينجو هو وقافلته. وعلى الرغم من أنه أبلغ قومه بنجاته هو والقافلة فإنهم صمموا على الخروج مما أشعل الحرب التي كانت نتيجتها انتصارًا ساحقًا لصالح المسلمين وهزيمة منكرة لكفار قريش.

كان عدد المسلمين ثلاثمائة وبضعة عشر رجلًا، وكان القرشيُّون في نحو ألف رجل.

ولقد تبارى الشعراء من الطرفين في وصف المعركة وما دار على ميدانها من أحداث. وكان الشعر هو الصوت الإعلامي الواضح في ذلك الوقت، وكان من شعراء المسلمين حسان بن ثابت، وكعب بن مالك وكلاهما من الأنصار.

ولما كان شعر حسان منتشرًا أكثر من غيره بحيث يسهل على القارئ الوصول إليه، فإننا نجد من الأفضل هنا أن نذكر شيئًا عن كعب بن مالك الأنصاري وشعره، قاصدين تقديم بعض ما قاله في هذه المناسبة المهمة، وكان أحد شهودها والمشاركين بالقتال فيها.

كعب بن مالك بن أبي كعب الملقب بالأنصاري، هو من أنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل المدينة، وكان خزرجيًّا من أصل يماني، ولكن نشأته كانت في المدينة، وقد تزوج بها وأنجب عددًا كبيرًا من الأولاد والبنات، واشتهر بقول الشعر وله اهتمام بالحديث الشريف فقد رويت عنه أحاديث نبوية يصل عددها إلى ثمانين حديثًا. وهو إلى جانب ذلك ثقة لا يتردد أحد في الأخذ بمروياته والاعتداد بها.

وكعب بن مالك من أوائل مسلمي أهل المدينة، وقيل إنه أسلم في وقت لم يكن معه فيه أكثر من أربعين مسلمًا من أهلها. وقدم إلى الرسول الكريم وبايعه بيعة العقبة الثانية ومعه سبعون رجلًا وامرأة وقد تحدث كثيرًا عن رحلتهم هذه منذ خروجهم برئاسة الصحابي الجليل البراء بن معرور. كان من أكثر ما أدخل السرور على قلب كعب بن مالك في هذه الرحلة ما ذكره بقوله: «دخلنا المسجد فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمه العباس جالسين ناحية المجلس، فسلمنا ثم جلسنا، فقال رسول الله للعباس: هل تعرف هذين الرجلين يا أبا الفضل؟ فقال: نعم، هذا هو البراء بن معرور سيد قومه، وهذا كعب بن مالك، فوالله ما أنسى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: الشاعر؟ قال: نعم. لقد أحس الشاعر بالفخر أن عرفه رسول الله، وكانت سعادته بهذه الكلمة كبيرة جداً.

وجدت في ديوان كعب بن مالك ثلاث قصائد كان قد قالها بمناسبة غزوة بدر. وربما كان له أكثر من هذه القصائد الثلاث لأن من المعروف أن شعره الوارد في ديوانه غير كامل إذ يعتريه نقص كثير، لأنه لم يحظ بمن يجمع له شعره في فترة حياته، ولكن الرواة هم الذين سجلوا ما له من قصائد، وحرصوا على أن يضعوا له ديوانًا يضم ما قدروا على جمعه من شعر.

أول الأبيات في الديوان هي التي قالها ردًّا على ضرار بن الخطاب وهذا الشاعر كان في الجانب الآخر من المعركة: جانب قريش وهو ضرار بن الخطاب بن

مرداس من بني فهر. وكانت بينه وبين كعب بن مالك أكثر من مناقضة منها هذه التي نتحدث عنها هنا. ومطلعها:

عجبتُ لأمر الله والله قادرُ

على ما أراد، ليس لله قاهرُ

في هذه القصيدة يعجب كعب بن مالك لأمر الله الذي كتب لهم التفوُّق والذي دبَّر لهم أمر هذه المعركة، وهيأ لهم النصر فيها. فقد قضى الله أن يُلاقوا بغاة بغوا عليهم وساقوا إليهم أعداداً كثيرة من المحاربين احتشدوا بأسلحتهم وكلهم متجهون إلى المسلمين لا يريدون حرب غيرهم.

وقد ذكر بعد ذلك الجانب الذي فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وبعض القبائل المحيطة به كبني النجار وغيرهم، ثم ذكر السلاح الذي اشهروه في وجوه أعدائهم، وهو الذي مكّنهم منهم وفيهم صناديد قريش وكبارهم:

فأمسوا وقود النار في مستقرِّها

وكل كفور في جَهَنَّم صائرُ

تَلَظَّى عليهم وَهي قد شبَّ حَمْيُها

بِزُبَرِ الحديد والحجارة سَاجرُ

كل ذلك لأنهم لم يستجيبوا إلى دعوة الرسول الكريم ولم ينصاعوا إلى الحق الذي أوضحه لهم فهذا هو جزاؤهم.

وكان رسول الله قد قال أقبلوا

فولّوا، وقالوا: إنما أنت ساحرُ

لأمرٍ أراد اللهُ أن يهلكوا بهِ

وليس لأمرٍ حمَّهُ اللهُ زاجرُ

وفي هذه الأبيات ما يدل على أن ديوان هذا الشاعر الصحابي غير كامل، فنحن إذا نظرنا إلى مقدمة القصيدة وهي قول جامع الديوان: وأجاب ضرار بن

الخطاب في يوم بدر فقال لم نجد من الأبيات التي قرأناها ما يدل على أنه يرد بها على شاعر ولكنه يتحدث عن المعركة والاستعداد لها ونتائجها ولكن من المؤكد أن بعض الشعر قد سقط ولم يستدل عليه من قام بجمعه فجاءت الأبيات الواردة في الديوان خالية من الإجابة على ضرار بن الخطاب التي هي السبب الذي دفع كعب بن مالك إلى قولها.

كانت هذه هي القصيدة الثامنة عشرة في الديوان، ثم جاء فيه – أيضًا – القصيدة الخامسة والخمسون وهي عن غزوة بدر كذلك، وفيها سبعة أبيات فقط.

يريد في بداية أبياته أن يبلغ من حوله من قبائل العرب في الجزيرة العربية وفي خارجها بما حدث. قائلاً: هل أتى غسان وهي نائية الدار خبر ما حدث، إذن فليعلموا فإن أخبر الناس بالأمور عليمها. لقد رُمينا عن قِسِيٍّ ترشح العداوة واجتمعت علينا معه قريش بجاهلها وحليمها، لا لشيء إلا لأننا عبدنا الله لم نَعْبُدْ غيره، رجاء جناته التي بشرنا بها الرسول الكريم.

نبيٌّ له في قومه إرث عِزَّةٍ

وأعراق صدق هَذَّبتها أرومُها

فسَاروا وسرنا فالتقينا كأننا

أسودُ لقاءٌ لا يُرجَّى كليهما

ثم ختمها ببيتين ذكر فيهما كيف ضربوا أعداءهم حتى خرُّوا ساقطين وولى بعضهم هارباً بعد أن أضناهم وقع السيوف البواتر التي لم تفرق بين الصميم من أولئك القوم والمحالف لهم.

وفي الأبيات ذات الرقم (٧٠) كان له ذكر يتعلق بغزوة بدر ولم تكن أبياتاً كثيرة بل هي ستة أبيات عَرَّض فيها بأبي سفيان. وأنَّبه هو وقومه لعصيانهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما طلب إليهم أتباعه في الدين الحنيف، ثم قال في مدحه للنبي الكريم:

فإني وإن عنفتموني لقائلُ
فِدًى لرسول الله أهلي وماليا
أطعناهُ لم نعدله فينا بغيره
شهابًا لنا في ظلمة الليل هاديا

وعلى قلة هذه الأبيات فإن الشاعر قد أوجز فيها كثيرًا من الأمور المتعلقة بغزوة بدر. ولما كان أبو سفيان لم يحضُر المعركة فقد قال له كعب بن مالك:

فأقسم لو وافيتنا فلقيتنا
لأُبتَ ذميمًا وافتقدت المواليا

ووصف له كيف تركوا أوصال قومه مقطعة مرمية في بئر بدر بعد أن تم النصر لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولصحبه ثم يُتبع بذلك قوله: لقد عصيتم رسول الله ولم تطيعوه إلى ما أمركم به فأف لكم ولدينكم الذي ارتضيتموه، وتركتم من أجله الإسلام، ودينكم هذا لا ينبني إلا على عبادة الأصنام التي لا تستطيع أن تصنع لكم شيئًا، ولا أن تدفع عنكم ضرًّا. لقد كان أمركم غير رشيد، وتصرفكم غاويًا بعيدًا عن الرشد. وما حدث لقومك يا أبا سفيان في يوم بدر هو دليل قاطع على صدق الرسالة الإسلامية، وخطأ الطريق الذي سرتم فيه منذ أعلن لكم رسول الله عن دعوته.

☆☆☆☆

بعد أن قدمنا ما يدل على مدى اهتمام قدامى الشعراء بغزوة بدر، وأوردنا ما يدل على ذلك من أشعار قالها الصحابي الجليل كعب بن مالك الأنصاري، ننتقل إلى الحديث عن الشعر الكويتي. وحتى لا نذهب بعيدًا فهذه قصيدة قالها كاتب هذا المقال منذ أمد طويل فقد ألقاها في أحد المحافل التي أشادت بذكرى غزوة بدر في سنة ١٩٥٤م، وطواها عن الناس فترة من الزمن إلى أن قام الأخ الدكتور عبدالله القتم بنشرها ضمن كتابه: «أشعار الدكتور يعقوب يوسف الغنيم» الذي أصدره في سنة ٢٠١٠م.

ولما كانت العادة قد جرت على أن نذكر شيئًا من السيرة الذاتية لكل شاعر من الشعراء الذين أوردنا قصائدهم خلال مقالات هذا الشهر الكريم وهي أربع مقالات، فإننا نرى هنا أنه لابد من الخروج على القاعدة. إذ لا أعتقد أن القارئ في حاجة لمعرفة شيء عني وبخاصة إذا كان من متابعي مقالات «الأزمنة والأمكنة» ففي أكثرها إشارات إلى سيرتي الذاتية وما مر علي من أحداث. وقد أصدرت بهذا الخصوص كتابًا هو «همس الذكريات» فيه تفصيلات شاملة تجعل تكرار ما جاء منها هنا نوعاً من التزيد الذي لا داعي له.

إذن فإن من الأفضل أن ننتقل مباشرة إلى القصيدة: في سنة ١٩٥٤م كانت جمعية الإرشاد الإسلامي تحتفل بالمناسبات الإسلامية كما جاء الوقت الملائم لتاريخ حدوثها ولم تكن تترك الفرصة دون أن تقدم من تعرفهم من الأدباء والشعراء وعلماء الدين في تلك الاحتفالات التي يجري خلالها التذكير بكل مناسبة. وقد كانت ذكرى غزوة بدر الكبرى قد مرت في الوقت الذي أتحدث عنه، واستعدت الجمعية المذكورة للاحتفال، وكان ضمن ذلك أن طلب مني إلقاء كلمة أو قصيدة مشاركة مني في الاحتفال. وقد انفعلت يوم ذاك مع الذكرى فكتبت قصيدة تتحدث عن تلك الغزوة المباركة وتقدمت لإلقائها في الحفل، وقد وفقني الله سبحانه إلى الإجادة فيها بحسب ماسمعته من ثناء عليها جاد عليَّ به الأخوة الذين استمعوا إليها. ولم أكن – يومذاك – قد تَمَرَّسْتُ في قول الشعر، ولكن الرغبة في المشاركة والاهتمام بالمناسبة والموقف العام بين إخواني أعضاء الجمعية كانت من الأسباب التي دفعتني إلى تقديم شيء استحق الاستماع والثناء.

تبدأ القصيدة بالفخر قائلة نحن أهل الطهر، ونحن الأسد في الحروب لم تُصادف الأيام مثلنا ولم ير الدهر غيرنا، يوم ضربنا ضربتنا الكبرى في غزوة بدر، ومن يفعل مثل ذلك في الأعداء سوانا؟

إن ذكرتَ الطُّهر فاذكرْ رمضانا
أو ذكرت الأُسْدَ لا تذكرْ سِوانا
سَلْهُ كم صادف من أيامِنا
أو رأى ما قد فعلنا بِعِدانا

ثم تجيب الأبيات اللاحقة على التساؤل الذي قد يتساءله المرء وهو: من أنتم. وللإجابة على ذلك فإنه لابد من سؤال الشهر الكريم (رمضان) الذي شاهدنا يوم بدر ونحن نجالد الأعداء نصرة لديننا فحن أهل العز منذ القدم ونحن أهل العلا الذين سابقوا الزمن إلى الأمجاد.

سائل الشهر فقد شاهدنا
يوم لاقينا عِدانا ورآنا
نحن أهل العزِّ قِدمًا والعُلا
كم إلى الأمجاد سابقنا الزّمانا
وَلَكَمْ خُضنا بها ساحَ الوغى
ولَكَم جدنا فداها بدمانا

وكل ذلك قد ظهر منا في يوم بدر، لم نتردد في النزال ولم يرهبنا العدد الكبير الذي كان ثلاثة أضعاف عددنا.

تلك بدرُ شهدت في يومِها
لعداة الله آجالًا تدانى
قد طويناهم بكفٍّ صارمٍ
وأذقناهم لدى الكرِّ هوانا
عجبًا.. تلقى مقلًّا أغلبا
وترى المكثر في الهول جبانا

ثم يأتي نداء للذكرى يتم توجيهه إليها من وراء الغيب على الرغم من السنين الطويلة التي مرت منذ الغزوة الشهيرة، هذا النداء يطلب منها إعادة التذكير

بالماضي الكريم والمجد التليد الذي كان يزين ذلك الماضي. ويطلب منها أن تردد – ما شاءت – أخباره، وما كان منه بالأمس البعيد فإن الذكرى في مثل هذه الحالة تفيد، وتدفع بنا إلى غذ السير إلى نيل منانا.

وكان لابد من الإشارة إلى الأوضاع التي كانت تمر بها الأمة وقت الاحتفال بالذكرى من باب المقارنة بين وضعنا المتراجع ووضع رجال الإسلام الأوائل من اهل بدر:

إيه يا ذكرى أعيدي واذكري
ماضيًا بالعزِّ والمجد مُزانا
رددي ماشئت من أخبارهِ
واذكري بالأمس ماكان وكانا

ونحن نريد ترديد ذلك لأننا نريد منه العبرة التي تدلنا على الطريق السليم، وتجعلنا نغذ السير في سبيل نيل ما نتمناه لأنفسنا ولأمتنا. والواقع أن حالنا الآن حال مؤسفة فقد نزعت عنا الأيام ثياب العز والمجد، وألبستنا ثيابًا غيرها هي ثياب المهانة والذل حتى لقد اعترانا العار وصرنا في آخرة الأمم بعد أن كنا نتقدم عليها كلها، وفوق ذلك فقد صرنا نخاف أعداءنا، وهم الذين كانوا بالأمس يخافون لقاءنا خشية تغلبنا عليهم.

وأعداء اليوم (سنة ١٩٥٤م) هم إسرائيل التي لا تزال تعادينا وهي تزداد بأسًا وقوة باستمرار، وفي الوقت نفسه لا نراها ترقب عهداً أو أماناً، فلها موقف متقلب يتماشى مع أهدافها في التسلط على الأراضي العربية، وهذا الموقف لايزال قائمًا على تعنته وصلفه إلى يومنا هذا.

لقد اتضح الآن أن إسرائيل تمثل عدو الأمس وعدو اليوم، ونحن لا نزال ننتظر اللحظة التي نستطيع فيها أن نقوم بعمل يوقفها عند حدها ولا يزال هذا

الأمل يراودنا وسوف يستمر تعايشنا معه ما لم يتحقق بعمل بطولي يعيد الحق إلى نصابه.

أما عدو اليوم المذكور في القصيدة فهو فرنسا التي كانت - وقتذاك - تعيث كما شاءت في الأراضي العربية في الجزائر والمغرب وتونس، ونلحظ لها في كل يوم عملًا عسكريًّا يزيد جروحنا جروحًا، ويزداد تعجبنا من مكثنا على الضيم على الرغم مما نرى من هذا العدو.

داؤنـــا قــد زاد فــي إيـلامِـنـا
فــلــمــاذا لــم نــفــكــرْ فــي دوانــا

ولكن الأمر اختلف بعض الاختلاف فيما بعد حين تكاتف العرب، ووقفوا وقفة واحدة في طريق الاستعمار الفرنسي حتى زال هذا الاستعمار بفضل التكاتف العربي وبفضل المجاهدين من أبناء تلك البلدان العربية المسلمة التي لم تصبر على الضيم ولم ترض إلا بالاستقلال التام.

ثم تتوجه القصيدة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم شاكية حال الأمة التي صارت حال سوء، ولكن العذر عند رسول الله مقبول إن شاء الله فهو يسمح عنا وعن تراجعنا، وذلك إذا عدنا إلى ما كنا عليه من الاهتمام بأمر أمتنا وديننا الذي فيه فلاحنا، والذي نلاحظ أننا منذ ابتعدنا عن أحكامه ابتعد عنا النصر الذي ألفنا وألفناه سنين طويلة.

ثم إننا نعد- اليوم بأننا سوف نعود إلى بناء مجدنا وإعلاء لوائنا؛ لواء الحق، وسوف نكون كعهدنا السابق لا نترك ما أمرنا به القرآن الكريم المنزل من عند الله سبحانه.

وأخيرًا تتوجه القصيدة إلى شهر رمضان المبارك تشهده على الأمة كلها بأنها سوف لا ترضى بالذل ولاتخضع للهوان وأنها سوف تُري الأعداء وجها مظلمًا

وسلاحا قاطعًا، وسوف تعود بدر أخرى لكي تُري أعداءنا أننا أبناء أولئك الرجال الذين انتصروا في بدر الأولى:

رمــضـــان اشــهــد بــأنــا ســـوف لا
نــرتـضـي الــذل ولا نــرضــى الــهــوانــا
ســنُــري الأعـــداء وجــهًــا مـظـلـمًـا
وســنــبــري الــيــوم لــلــحــرب الــسّــفــانــا
رُبَّ بـــدرٍ رجــعـــتْ ثــانــيــةً
فــنــثــيــرُ الــنــقــعَ فــيــهــا والــدُّخــانــا

ولا نزال في انتظار بدر الثانية، آملين أن تطل علينا لكي تشفي غلَّ صدورنا، وتزيل آلامنا التي عانينا منها نحن ومن سبقنا من أبناء الأمة الإسلامية.

وإن شهر رمضان المبارك لسوف يكون شاهداً على مواقفنا، إذ وعدناه بأننا سوف نرفض الذل فيما سوف يأتي من أيامنا وسوف يكون الانتصار على أعدائنا نصب أعيننا دائمًا، وبدون هذا التصميم لن نحقق أملًا من آمالنا، ولن نحصل على النصر الذي به نرفع رؤوسنا.

****

ملحاق خير(١)

الأستاذ أحمد عنبر شاعر كويتي مبدع، مصري الأصل ولكنه عاش هنا مدة طويلة وحصل على الجنسية الكويتية، وخدم البلاد في مجال التربية كثيرًا. كان مدرسًا وموجهًا ومسؤولًا عن الامتحانات، وكان مشاركًا في كافة المناسبات التي تحتفل بها الكويت سواء أكانت هذه المناسبات دينية أم وطنية، وله كتب مطبوعة منها عدد من دواوين الشعر الذي قاله وهو في الكويت وكله تعبير عن حبه لهذا الوطن وحديث عن علاقاته الطيبة مع أهله ولاسيما الشعراء منهم، وكان له دور في حفلات وزارة التربية التي كانت تقيمها عندما تجد أنها لابد وأن تشارك في مناسبة ما، ومن أناشيده المشهورة ذلك النشيد الذي كان عنوانه «جابر الشعب» فقد انتشر انتشاراً كبيرًا وأحب الناس سماعه ولا يزال البعض منهم يردده حتى اليوم.

احتفل الشاعر أحمد عنبر بذكرى يوم بدر على طريقته الخاصة به بصفته شاعرًا فكتب قصيدة جميلة أحيا بها هذه الذكرى العاطرة، فعبر عن اعتزازه بهذه المناسبة التي رفعت من قدر المسلمين، وانتشر بسببها الإسلام بعد أن كان المسلمون الأوائل يعانون أشد المعاناة من المعاندين الذين لم يعجبهم أن يتركوا دينهم القديم إلى الدين القيم الذي دعا إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

لا ندري إن كان الشاعر قد ألقى قصيدته هذه في حفل عام كما جرت العادة، ولكن الأمر الجلي هو أنه قد نشرها في العدد الصادر في مطلع شهر يونيه

لسنة ١٩٥٣م من مجلة «البعثة» وهي مكونة من أربعة وثلاثين بيتًا بدأها بتقديم التحية لبدر ولأبطالها من المسلمين الذين رفعوا راية الدين ببطولاتهم التي أبدوها في تلك المعركة، فلم يرهبوا عدوهم الذي جاء إليهم بعدد كبير من المحاربين المدججين بالأسلحة العازمين على إبادة ما أمامهم من آثار الإسلام الذي تحالفوا فيما بينهم على طمسه.

ولكن الأمر جرى على خلاف ما كان يتمنى المعاندون، فما إن تراءى الجمعان: الجمع البرُّ والجمعُ الفاجرُ، ووقف الرسول وصحبه بالعدوة الدنيا يشاورهم فيما يستجد من أمور الحرب حتى وقفت الجموع تفديه بالأرواح ويتسابق المهاجرون والأنصار إلى الوقوف معه والدفاع عنه وعن الدين الحنيف.

سلام على بدر وأبطالها الغُرِّ
فقد رفعوا للدين ألوية النَّصرِ
بها وقف التاريخ يكتب قصةً
تظلُّ على الأيام خالدةَ الذِّكر

ولقد كانت حدثًا عجبًا، وحديثًا يروى على مدى الدهر، وظل الزمان يصغي لأبنائها وكأن الأحداث كلها قد توقفت عندما صنعوه في ذلك اليوم الخالد. في «يوم بدر» وهذا هو عنوان القصيدة، قال الشاعر أحمد عنبر عن الصحابة الكرام:

يقولون للمختار سمعًا فإننا
جنودُك هيَا خضْ بنا لُجَجَ البحرِ
فإما حياةٌ حرَةٌ وكريمةٌ
وإلا فإن الموتَ أجدرُ بالحُرِّ

ووقف - يومذاك - كفار مكة يعلنون تصميمهم على ما بيَّتوا النية عليه من فجور وغدر:

يقولون لا نأوي لمكة قبلها
نثير قلوبَ العالمين من الذُّعر

ولم يكن الأمر كما شاءوا بل دارت بهم الدوائر، ووقع بهم القتل الذريع، وغلبت الفئة القليلة من المسلمين بتأييد من الله تلك الفئة الكثيرة المعتمدة على عددها وعدتها، وعلى ما يوسوس لها شيطانها به، وانتصر المسلمون ذلك الانتصار الذي سمعت به جزيرة العرب وما حولها ففرح به المؤمنون، وحزن له المعاندون:

بنفسي رسول الله يقدمُ قومه
إلى العزة القعساء في الموكب الوعر
وقد شَبَّتِ الحربُ الزبون جحيمها
ودارت بها الأبطالُ تصلى على الجمر

وفي ختام حديثنا هذا لابد وأن نذكر أن القصيدة قد احتوت على رواية كاملة لما حدث في «يوم بدر» ابتداءً من الإعداد للمعركة إلى الالتحام ثم إلى نصر الله لرسوله صلى الله عليه وسلم، وهي إلى جانب ذلك قصيدة رائعة، قوية السَّبك.

****

ملحاق خير (٢)

كان حسان بن ثابت الصحابي شاعراً بارزاً في الجاهلية ثم عظم شأنه في الإسلام، وقد كان يدعى: شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذي كان يقول له: «قل وروح القدس تؤيدك» لأنه كان يرد على شعراء الكفار الذين يقدحون في الدين الإسلامي وفي مقام الرسول الكريم، وقد قام حسان بن ثابت بدور كبير في منافحتهم والرد عليهم حتى استطاع أن يخرسهم.

وقد أشرنا إليه ضمن المقال المرفق مع هذا الملحاق وقلنا إنه قال بعض القصائد عن غزوة بدر، واكتفينا هناك بالحديث عن كعب بن مالك.

ولكننا هنا سوف نتحدث عن حسان بما يستحقه بصفته قيمة شعرية وإنسانية مع عدم التعرض لما قاله يوم بدر.

ولد حسان بن ثابت في سنة ٥٤٠م، وعاش في المدينة المنورة وهو أحد بني النجار الخزرجيين. شهد حروب الجاهلية، ثم شهد حروب الاسلام، ولكنه لم يحارب بسيفه، وإنما حارب بلسانه... وسوف نعرض له هنا قصيدتين قال إحداهما في الجاهلية وقال الأخرى في الإسلام.

أما الأولى فقالها عندما ذهب إلى الشام يمتدح بني غسان الذين كانوا ملوكا هناك في ذلك الوقت. كان قدومه على عمرو بن الحارث الغساني، وقد دخل عليه بعد انتظار طويل يقول حسان: «فدخلت عليه فوجدت عنده النابغة الذبياني وهو جالس عن يمينه، وعلقمة بن عبده وهو جالس عن يساره» يقول: فلما رآني قال لي

أرأيت إلى هذين السبعين إني أخاف عليك منهما. فاذهب فإني مرسل إليك بهدية سنية تغنيك. وهنا أصر حسان بن ثابت على إلقاء قصيدته، فقال: ذلك يرجع إلى عميك فاسألهما، فالتفت حسان إلى الشاعرين الكبيرين وقال لها: بحق الملك إلا قدمتماني عليكما، فقالا: قد فعلنا.

فبدأ بقصيدة مطلعها:

أسَألتَ رسمَ الدار أم لم تسألِ
بين الجَوابي فالبُضيعِ فحوملِ

وهي قصيدة من قصائده المشهورة التي يحفظها كثيرون من الناس إلى يومنا هذا، وكانت لها قصة لطيفة في الكويت أوردناها في كتابنا: «همس الذكريات» ومن مشهور أبياتها:

لله درُّ عصابةٍ نادمتهم
يوما بجلّقَ في الزمان الأول
يمشون في الحُلل المضاعف نسجها
مشيَ الجمِال إلى الجمال البُزَّلِ

ومنها:

أولادُ جفنةَ حول قبر أبيهم
قبرِ ابن ماريةَ الكريمِ المفضِلِ
يُغشون حتى ما تهرُّ كلابهم
لا يسألون عن السَّواد المقبل
يَسقونَ مَن وردَ البريصَ عليهمُ
بَرَدَى يُصَفَّقُ بالرحيق السَّلسل

ولقد قال الشاعر الحطيئة عن حسان إنه أشعر الشعراء في البيت الثاني من الأبيات الثلاثة الأخيرة.

وأما القصيدة الثانية فهي قصيدة جيدة قالها في الرد على أبي سفيان الذي قال قصيدة قبل إسلامه هجا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم. ومطلع قصيدة حسان:

عَفَت ذاتُ الأصابعِ فالجَواءُ
إلى عذراء منزلُها خلاءُ
ديارٌ من بني الحسحاس قفرٌ
تُعفّيها الرّوامس والسماءُ

ثم يصف خيلهم وهي مقدمة على المعركة فيقول:

عدمنا خيلنا إن لم تروها
تثيرُ النقعَ موعدها كَداءُ
يبارينَ الأعنة مصعداتٍ
على أكتافها الأسلُ الظِّماءُ

ثم يوجه حديثه إلى أبي سفيان قائلًا:

هجوتَ محمداً فأجبتُ عنه
وعند الله في ذاك الجزاءُ
أتهجوه ولست له بكُفءٍ
فَشَرُّكُمَا لخيركُمَا الفداءُ

هذا ولحسان بن ثابت ديوان شعر كبير يضم قصائده التي قالها في الجاهلية وفي الإسلام. وهي متنوعة الأغراض، ولكن القصائد الإسلامية تدل على أنه تَحَمَّل الدفاع عن الدين وعن الرسول الكريم وذكر المواقع التي جرت أحداثها في ذلك الوقت، وامتدح رسول الله ثم رثاه بعد وفاته ورثى عددًا من كبار الصحابة عندما وافاهم الأجل. شعره متين السبك محبَّبٌ إلى النفوس، وهو نموذج جيد من نماذج شعر مخضرمي الجاهلية والإسلام.

****

أهمية الجليب في الكويت قديماً [١]

يقول جمال الدين ابن مكرم؛ ابن منظور في كتابه «لسان العرب» (مبادة بأر): البئر هو القليب، وهذا يدلنا على أن لفظ القليب المستعمل عندنا عربي فصيح، وإن كنَّا ننطق القاف جيمًا فنقول: الجليب. كما نقول: (جاسم) حين نريد أن ننطق بـ (قاسم).

هذا من حيث اللفظ، وأما من حيث المعنى فإن القليب أو (الجليب) معروف في الكويت قديمًا وحديثًا. فلا يكاد يخلو بيت منه في الماضي. وذلك لأنه مصدر للماء في المنازل يستخرج منه الماء قليل الملوحة لكي يستعمل في التنظيف والاستحمام وغيرهما.

وفي كل بيت من بيوت الكويت القديمة حجرة صغيرة تسمى (مسَبَّح) وفيها بئر ينزح منه الماء، ويستعمل المسبح غالبًا للاغتسال والوضوء. ويؤخذ من ماء البئر ما يستفاد به من غسل الأواني وغيرها.

تُحفر للبئر حفرة مستديرة يختلف عمقها باختلاف الموقع الذي حُفرت فيه. وتطوى بصخور بحرية تجلب من منطقة عشيرج الواقعة في غربي العاصمة، ويبنى لها حاجز لا يقل عن المتر وذلك للحماية من الأخطار. وهناك رجال مهمتهم حفر الآبار هم أكثر دراية بها، ولهم تخصص في بناء جوانبها فهم يطوونها بالصخور، ولذا سميت الآبار عند بعض العرب القدماء باسم: الطَّويّ. ولما كان البئر أو الجليب

---

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠١٢/٨/٢٢

في حالة استعمال مستمر ولا سيما في أوقات الصيف فإنه يحتاج إلى تنظيف بين وقت وآخر، وذلك بسبب تهاوي الأتربة حول جوانبه السفلى مما يؤثر في غزارة الماء فيه.

ومن أجل التنظيف قد تخصص أناس بهذه المهنة، فكانوا يجولون في الطرقات وبين المنازل وهم ينادون: جليبٍ نخُم. ومعنى نخم: نكنس وننظف، ونزيل الأوساخ والأتربة من الجليب، وقد جرت العادة أن يسير كل اثنين من هؤلاء العاملين على تنظيف (الجلبان): جمع جليب؛ معًا لأن العمل يقتضي نزول أحدهما إلى قاع الجليب ووقوف الثاني في الأعلى لكي ينزح ما يدفعه إليه صاحبه. وقد كانت هذه المهنة رائجة في ذلك الزمان، وذلك لكثرة استعمال (الجليب) كما ذكرنا آنفا.

وهناك آبار أخرى في خارج المنازل تكون مياهها عذبة وبخاصة بعد هطول الأمطار في الشتاء. واعتاد بائعو الماء من حمَّارةٍ وغيرهم الذهاب إليها وجلب المياه منها إلى الناس، وقد اشتهرت بالقرب من العاصمة مياه (أبو دوارة) في الشرق، ومياه قلبان الشامية في منطقة الشامية، وفي خارج العاصمة آبار تُستَمدُّ منها المياه مثل قرية حولي التي اكتشفت فيها بئر عذبة الماء تحدث عنها الناس كثيرًا في حينه، وقد ذُكر في كتاب «تاريخ الكويت» لعبدالعزيز الرشيد هذا البئر، وما تحدث الناس به عن مائه العذب حين افتخروا به قائلين:

مــــاءُ حَـولّـــي مـثـلـه مــا دارا

ولفظ (مادار) في اللهجة يعني: لم يأت مثله، ولم يعرف ما يماثله. حتى لقد قالوا:

مـن حـسـنـه قـد تـيَّـةَ الأفــكــارا .

وإضافة إلى ماذكرناه عن الجلبان (الآبار) ذات المياه العذبة في الكويت، فإنني أذكر هنا شيئًا عن بعض آبار الشامية التي وردت في وثيقة عدسانية صدرت في

اليوم الرابع والعشرين من شهر رجب لسنة ١٣٤٣هـ الموافق اليوم السابع عشر من شهر فبراير لسنة ١٩٢٥م، وسيأتي بيان ذلك أدناه، ولكننا لابد وأن نذكر أن هذه الوثيقة مهداة إلينا من الأخ الكريم الدكتور يوسف البحر، وقد حصل عليها على سبيل الهدية - أيضًا - من الأستاذ باسم اللوغاني، فلهما غاية الشكر والتقدير.

تتحدث الوثيقة عن بيع آبار في منطقة الشامية. ولما كان ذكر الأسماء ضروري، وذكر الأماكن مهم لأن أسماءها الواردة في الوثيقة غير معروفة الآن بل هي منسية تمامًا لذا فمن الأفضل أن نوردها كاملة:

يقول القاضي عبدالله بن خالد العدساني إنه قد قضى وحكم بصحة البيع الوارد ذكره وهو كالتالي:

«السبب الداعي إلى تحرير هذه الأحرف الشرعية هو أنه قد باع بدر ابن منصور الخرقاوي أصالة عن نفسه، وباعت سبيكة بنت منصور الخرقاوي أصالة عن نفسها، وباع عبدالرحمن بن سليمان بن رباح بتوليه على القاصرين وهم منصور وهيا وشريفة أولاد منصور المذكور، وباع قاضي الكويت الواضع اسمه وختمه على الكتاب عن لطيفة بنت منصور المذكور الغائبة عن البلد - قد اشترى منهم ما هو ملكهم وهو القلبان في الشامية المسماة (البحرة) المحدودة قبلة: (أمّهات عقرب) وشمالًا (الجرشة) التي بينه وبين سعد بن هبلة، وشرقًا الدرب الذي يفيض على (شمعة) وجنوبًا الجرشة التي تسيل أمهات عنز، والقلبان المسماة (أمّهات عنز) المحدود قبلة (حبس المار) وشمالًا القلبان التي في البحرة، وشرقًا (خرّ فهيد) والدرب، وجنوبًا الجرشة إلى الصيهد اشترى عبدالعزيز المذكور من البائعين المذكورين القلبان المحدودة بهذه الحدود، بثمن قدره وعدده مائة وسبعون ربية، وسلم الثمن بتمامه وكماله المشتري عبدالعزيز المذكور بيد البائعين بدر وسبيكة وعبدالرحمن وقاضي الكويت المذكورين، قبضوه بالوفاء والتمام، فكان

بيعًا صحيحًا شرعيًا، فبموجب ما ذكر صارت القلبان المبيعة المذكورة مالًا وملكًا للمشتري عبدالعزيز المذكور يتصرف فيها بما شاء».

ولابد هنا من الإشارة إلى مايلي:

١ - منصور المذكور أولًا هو والد الشاعر منصور الخرقاوي.

٢ - منصور الذي ذكر مع اختيه هيا وشريفة هو الشاعر نفسه. ولذا فإن اسمه الكامل هو: منصور منصور الخرقاوي.

٣ - الأماكن التي ذكرت لا ندري عنها شيئًا، ولعل دائرة بلدية الكويت أن تقوم بدورها في التعريف بها.

٤ - عبدالعزيز الدعيج هو صاحب سبيل الماء المشهور في وسط السوق بالقرب من سوق ابن دعيج، وقد اشترى هذه الآبار من أجل تزويد السبيل بالمياه عندما يصعب عليه الحصول عليها من مصادرها الأخرى.

وقع اسم الجليب على عدد من الأماكن في دولة الكويت، ومن أشهرها على الإطلاق: جليب الشيوخ. وكان قرية صغيرة، ولكنه اليوم مختلف فقد أصبح الموقع مدينة ضمن محافظة الفروانية. كان عدد سكانها في سنة ٢٠٠٤م يزيد على اثنين ومائة ألف ساكن. وهي في الجنوب الغربي للعاصمة على مسافة ستة عشر كيلومترًا منها، وتحوي كل احتياجات المدينة الحديثة. ويقال إن أصل تسمية هذا الجليب (البئر) باسم: جليب الشيوخ إن الذي أمر بحفره الشيخ محمد بن صباح الذي كان حاكماً للكويت منذ سنة ١٨٩٢م حتى سنة ١٨٩٦م، وقد وجد حاجة الناس ماسة في هذا الموضع من الماء، وبخاصة في أيام الصيف حين يأتي أبناء البادية بإبلهم ومواشيهم بعد أن تكون الأماكن التي كانوا فيها لا تلائمهم. ويقال أيضاً إن هذه البئر كانت موجودة وبها ماء حتى تم تقويضها في سنة ١٩٧٦م.

وهناك قول يرى أن الذي أمر بحفر الجليب هو الشيخ جابر بن عبدالله المعروف بلقب جابر عيش وقد حكم الكويت منذ سنة ١٨١٤م حتى سنة ١٨٥٩م وقد ورد هذا الخبر على لسان الشيخ عبدالله الجابر الصباح في أحد اللقاءات التي تحدث فيه عن بعض الأحداث الكويتية.

ومن ذلك – أيضًا – جليب قرينيس، وهو موقع يدل اسمه على انه كان موضع بئر ترتوي منها الناس الذين يمرون هناك قديمًا، فتكون سادّة لحاجاتهم من الماء في هذه المنطقة الواقعة في جنوب شرقي الكويت بالقرب من الشقيق، ووادي الشق، وتأتي في الجوار خبرة قرينيس، ولها صفات الخَبْرات المعروفة، وهي من مستنقعات مياه الأمطار، والجليب والخبرة كلاهما يقع في غربي خط الطول رقم ٤٨ْ، ٤٨ْ جنوبي خط العرض رقم ٤٨ْ، ٢٨ْ.

ونجد في موقع مجاور للوفراء موضعاً يطلق عليه اسم القرين وضمنه يقع جليب القرين. وبالقرب منه خور القرين وهو مجرى مائي جاف ومشاش القرين.

ويوجد في الكويت – أيضًا – موضع يسمَّى «الجليب» ورد اسمه دون أن ينسب إلى جهة أخرى كما سبق أن ظهر لنا فيما سبق. وهذا الموقع نراه على الخريطة في جنوبي غرب الكويت (العاصمة) بجوار منطقة أم قدير في غربي خط الطول رقم ٤٢ْ، ٤٧ْ جنوبي خط العرض رقم ٤٩ْ، ٢٨ْ.

ثم نعود إلى حديثنا السابق فنقول:

إذن فقد كان أساس نشأة «جليب الشيوخ» هو هذا الجليب الذي ذكرناه. وقد تجمع حوله السكان بعدما وجدوا هذا المورد الملائم، ومع مرور الوقت صار قرية، ثم نمت حتى صارت مدينة اندمجت بها منطقة أخرى مجاورة هي التي كانت تسمَّى العضيلية، وقد كانت هذه من القرى المعروفة في تلك المنطقة وكانت فيها مدارس، وفيها مستوصف، وعدد من الهيئات الرسمية التي يحتاج إليها السكان.

وقد بدأ تنظيم جليب الشيوخ عندما اتخذ مجلس الإنشاء قراره الذي صدر في اليوم الثالث من شهر ديسمبر لسنة ١٩٦٣م بتنظيمها، وتحويلها إلى منطقة سكنية تتساوى من حيث المظهر والطرق والخدمات بغيرها من مناطق الكويت.

وكان قد تم بناء أول مرفق من مرافقها وهو مدرسة جليب الشيوخ في سنة ١٩٧٩م، تلتها مدارس أخرى كثيرة فيما بعد.

ومن الواضح أننا نلاحظ في تعداد السكان أنه دمج أحياناً مع العضيلية ولذلك فإننا نجد اضطراباً في التعدادات، ومما يلفت النظر أننا وجدنا عدد سكان جليب الشيوخ في سنة ٢٠٠٥م كما يلي: ١٧٩/٢٦٤ نسمة.

وذكر ياقوت الحموي البئر، وهي الجب، وقال إنها معروفة لا تحتاج إلى تفسير، كما ذكر أن البئر تجمع على آبار، وقد قيل للحفرة: البؤرة واللفظ مأخوذ من لفظ البئر ومعناه.

ثم قام الحموي بذكر عددٍ كبير من الآبار التي جاء ذكرها في التاريخ والجغرافيا العربيين، ومنها بئر أرما بالقرب من المدينة المنورة، وبئر أريس، وهما بئران إحداهما في المدينة والأخرى بقبا في مقابل مسجدها المعروف. وبئر الأسود بمكة، وبئر رومة بالمدينة وهي التي اشتراها سيدنا عثمان بن عفان فتصدق بمائها وقد ذكر مصعب بن عبدالله الزبيري (روقة) في شعر يتشوف به إليها وهو بعيد عنها فيقول:

أقولُ لثابتٍ والعين تَهمي
دموعاً ما أنهنهها انحدارا
أعرني نظرة بقُرَى دُجيلٍ
تُخايلها ظلامًا أو نهارا

فقال: أرى بـ(روقة) أو بسلعٍ
منازلنا مُعطلةً قفارا

وسلع موضع بالمدينة مثل روقة.

وذكر الحموي - أيضًا - بئر عروة، وتنسب إلى سيدنا عروة بن الزبير رضي الله عنه. وفيها يقول علي بن الجهم:

هذا العقيق، فَعَدِّ أيدي الـ
عيس من غُلوائها
وإذا أطفت ببئر عر
وة، فاسقني من مائها
إنا، وعيشك ما ذممـ
ـنا العيشَ في أفنائها

وماء هذه البئر عذب يقبل الناس عليه، ويأخذون منه إلى منازلهم ويهدونه إلى كبارهم يقول السريُّ بن عبدالرحمن الأنصاري عن هذه البئر:

كفِّنوني إن متُّ في درع أروى
واجعلوا لي من بئر عروة مائي
سُخنةٌ في الشتاء باردةٌ في الصَيْـ
ـفِ سراجٌ في الليلة الظُلماء

وقد ذكر المؤلف ما يقرب من ثمان وعشرين بئراً، كلها مذكور في الحوادث التي كتبت في تاريخ العرب، وورد ذكر بعضها في أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن ذلك قوله الكريم عن بئر رومة: «نعم القليب قليب المزني» وهي التي ذكرنا أن سيدنا عثمان اشتراها وكان ذلك بعد سماعه ذلك وجعلها للناس كافة يشربون منها. وكان صاحبها قبله يتقاضى مقابلاً للسقيا.

ولقد ذكرنا في مقال سابق من «الأزمنة والأمكنة» أغنية كتب كلماتها الشاعر الشعبي فهد بورسلي، وهي التي يقول مطلعها:

يوم الإثنين الضحى
شفت لي غرو عجيب

تحدث فيها عن إحدى الجميلات عندما رآها في قرية الفنطاس فذكر حسنها ودلالها، وذكر أنها منعمة لا تعمل بيدها وهي مخدومة دائماً، فهي لا تجمع الحطب من البر حيث يعيش أهلها في وقت الربيع كما تفعل غيرها من الفتيات، ولا يكلفها أحد بنزح الماء من (الجليب) الذي يظل الرشا (حبل الدلو) فوقه حتى يأتي غيرها ليجلب لها الماء من قعره:

ما تعنَّت للحطب
والرّشا فوق الجليب
دايمُا مخدومة
والعبيد تحوفها

والأغنية التي ورد فيها ذكر (الجليب) من أشهر أغاني السامري التي قالها شاعر الكويت الشعبي الذي ذكرناه وهي لا تزال في بال الناس، وعلى أفواههم.

وهذه أبيات جميلة قالتها شاعرة يعرفها قدماء أهل الكويت فقد عاشت بينهم، ولها أولاد من أهل هذا الوطن وقد ذكر الأبيات الأستاذ عبدالله بن محمد بن روّاس في كتابه: «شاعرات من البادية» وقدم لها بمُقدّمةٍ هو مسؤول عنها إذ لم استطع الحصول على تأكيد لها من مصدر آخر. يقول: «وللشاعرة نورة الهوشان الرشيدية، وكانت تقطن في (عين الصوينع) في السر بنجد، وكان بينها وبين زوجها اختلاف أدّى إلى طلاقها منه، ومرت ذات يوم بزرعه، فتذكرت أيام ألفتها السالفة، وما حدث أخيراً من جفوة وطلاق فقالت:

يـا عَـينِ هِـلّـي صَـافـي الـدَّمْـع هِلّيه

واذا انـتـهـى صـافـيـه هـاتـي سِـرِيـبِـهْ

يـا عـين شـوفـي زَرْع خِـلّـكْ وراعـيـه

شُـوفـي مَـعَـاوِيـدِهْ، وشـوفـي قِـلـيـبِـهْ

إن مَـرّنـي بـالـدَّربْ مـا اقْـدَرْ احَـاكِـيـه

مـصـيـبـةٍ يـا وَيِّ والـلـه مـصِـيـبَـهْ

الـلّـي يَـبِـيـنَـا عَـيَّـتَ الـنَّـفس تَـبغـيـه

والـلِّـي نـبـي عَـجـزَ الـبـخـت لا يـجيـبِهْ

(السريب: الحثالة الباقية، المعاويد: الإبل المعدة للسقي)

ويروى البيت الرابع هنا:

«والـلـي نـبـي عـيَّـا الـبَـخَـتْ لا يـجيبه»

والقصد من ذكر هذه الأبيات واضح ففيها ذكر القليب الذي هو مدار حديثنا في هذا المقال. وينطق عندنا: جليب.

كانت الآبار منتشرة في قرى الكويت وفي صحرائها وكانت في وقت الصيف موضع تجمع للمواشي وعلى الأخص الإبل وذلك من أجل السقيا بعد أن تزول آثار الأمطار من البوادي التي كان أهل هذه المواشي يقيمون فيها.

ففي شمالي قرية الجهراء (قبل أن تصير مدينة كبيرة) كنا نرى آبار (مُرَيْطبة) وحولها الذين يستقون منها، وإلى الشرق بالقرب من كاظمة نرى الآبار في منطقة المعترضة، وبينهما آبار في منطقة الخويسات، وهكذا، وفي غير (الجهراء) أماكن في الكويت طولًا وعرضًا لا تخلو من آبار على هذه الشاكلة وهي آبار مختلفة في استعمالها عن آبار مياه الشرب العذبة ومياه سقي الزروع.

ومن المعروف أن الجهراء كانت واحة جميلة تملؤها الـزروع، وتكثر فيها المزارع، وكلها تعتمد على الآبار ذات الشكل الخاص فهي متسعة تجر قِرَبَ الماء من قاعها أعداد من الحمير بقدر الحاجة إلى الماء. ولأهمية هذا المورد للمزرعة وهو (الجليب) فقد أطلق الأهالي اسم (الجليب) على كل مزرعة.

وكان أهالي هذه القرية يستقون المياه العذبة من منطقة تقع في الغرب منها وهي لا تزال معروفة باسمها وإن فقدت ميزتها القديمة تلك المنطقة هي: السِّلَيِّل.

هذا والآبار معروفة منذ القدم، وعلى الأخص في المواضع التي ليس بقربها أنهار فتكون هذه الآبار هي الوسيلة الوحيدة للحصول على المياه، وكان الناس منذ القدم يحرصون على أن تكون هناك آبار في الطرق التي يسلكونها، ففي كل موقف من مواقف القوافل مورد ماء حفره الناس، وبعضها حُفرَ بأمر ولي الأمر، أما البعض الآخر فيهتم بعض المحسنين بحفره تقرُّبا إلى الله تعالى، وذلك بأن يدفع للمختصين بمثل هذه الأمور ما يشترطونه عليه من المال، ثم يعلن البئر على أنه سبيل يستطيع كل عابر أن يستفيد من مائه.

ولقد مر بنا في كتابنا «السِّيدان، قبس من ماضي الكويت»، عند حديثنا عن «الشجي» وهو ما نطلق عليه اليوم اسم الشقايا أنه قد مات قوم بالشجي عطشًا في أيام الحجاج، والشجي منزل من منازل طريق مكة من ناحية البصرة، فاتصل خبرهم بالحجاج، فقال: إني أظن أنهم دعوا الله حين بلغ بهم الجهد، فحفروا في مكانهم الذي كانوا فيه لعل الله أن يسقي الناس، فقال رجل من جلسائه: وقد قال الشاعر امرؤ القيس:

تـراءت لـه بـين الـلـوى وعـنـيـزة

وبـين الـشـجي ممـا أحـال عـلى الـوادي

وما تراءت له إلا على ماء. فصح عزم الحجاج على تحقيق هدفه وأمر عُبيدة السلمي أن يحفر بالشجيّ بئرًا يقال: «فأنبط ماءً غزيرًا لا يُنزح».

وتقع عنيزة المذكورة في شعر امرئ القيس بالقرب من المنطقة التي فيها الشجي أو الشقايا في وسط وادي الرمة وهي غير عنيزة المدينة المشهورة في نجد.

وما سقناه هنا دليل على اهتمام ولاة الأمور بحفر الآبار حتى لا يتعرض الناس إلى المهالك. والماء الغزير الذي نجده في منطقة الشقايا اليوم هو الدليل على تلك البئر التي لا ينزح ماؤها لكثرته. وهو - أيضًا - دليل على جانب من جوانب حرص الحجاج بن يوسف الثقفي على عمله، وهو حرص دفعه في أحيان كثيرة إلى العنف الشديد.

وإضافة إلى ما تقدم فإننا نجد مما يجب علينا الحديث عن ثلاثة آبار (قلبان) قديمة لها تاريخها ولها ذكرها في القرآن وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أولها: بئر زمزم، وهي بئر يعرفها جميع المسلمين وفيها الحديث الشريف: «ماء زمزم لما شُرب له» ومعنى ذلك أن ماءها مبارك، جليل الفائدة، ويكفي أن الفحص الذي تم عليه حديثًا ولأكثر من مرة دليل على نقائه وخلوه من أية شوائب. ظهر هذا الماء المبارك عن يد أمنا هاجر يوم تركها سيدنا ابراهيم مع ولده وولدها اسماعيل وهو أبو العرب. كانت في واد غير ذي زرع، وقد نفد الماء الذي تركه لها زوجها فصارت تسعى بين الموضعين اللذين صارا من مناسك الحج وهما الصفا والمروة بحثًا عن ماء أو عن من معه ماء فيسقيها. وقد وردت حول حالتها هذه رواية طويلة ورد ذكرها في كتاب «قصص الأنبياء» لعبدالوهاب النجار. وقد حصلت السَّيدة على الماء الذي جلب إليها السكان، وصار الوادي عامراً. ولقد مر دهر على ذلك، وحدثت أحداث، فكان من شأن ذلك أن طمر ذلك النبع (زمزم) مدة طويلة إلى أن رأى عبدالمطلب بن هاشم جد رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤيا تنبئُهُ عن زمزم وتأمره بحفرها، وقد فعل ذلك في قصة طويلة رواها محمد بن عبدالله الأزرقي في كتابه: «أخبار مكة» وقد لبَّى عبدالمطلب ما جاء في رؤياه فحفر بئرًا أوصلته إلى النبع، وكان قد غُطِّي بطبقات من الأحجار والرمال، وسمى بئر زمزم.

وثاني الآبار القديمة، ما ورد ذكره في سورة يوسف التي جاء فيها ذكر ما حَدَثَ لسيدنا يعقوب مع أبنائه وما قاموا به تجاه أخيهم يوسف الذي كان مقربًا إلى أبيه وكانوا يرون أنه أحب إلى أبيهم منهم، ولقد تداول الإخوة في صنع مؤامرة حتى يخلو لهم وَجْهُ أبيهم، وكان من نتيجة ما تداولوا فيه ما ورد في الآية الكريمة: ﴿قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف، وألقوه في غَيَبَتِ الجب يلتقطه بعض السيارة﴾.

وقد فعلوا ذلك وفقًا لما أشار عليهم هذا، فإنهم بعد أن استأذنوا والدهم في أخذ يوسف إلى البر حتى يرتع ويلعب وهناك أنزلوه إلى الجب، فالتقطه الذين مروا يومذاك في قافلة متجهة إلى مصر (السيَّارة) وهم السائرون في طريقهم، والقصة طويلة جاءت بتفاصيلها في السورة الكريمة. والجب اسم من أسماء القليب.

وثالث الآبار القديمة، بئر بدر، ولقد كانت غزوة بدر هي أول غزوة كبيرة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هجرته إلى المدينة. وجرت في منطقة بدر، وكانت في المنطقة بئر معروفة، وقد دارت المعركة لصالح المسلمين، على الرغم من قلة عددهم، وكثرة عدد كفار قريش الذين خرجوا بكل ما عندهم من أفراد ومن خيل وسلاح ظانين أنهم سوف يتغلبون على الرسول الكريم، وينهون الدعوة الإسلامية وهي في مهدها، ولكن أملهم خاب وتلقوا هزيمة منكرة، وقتل كبارهم حتى تم دفنهم في بئر بدر، وقد وقف صلى الله عليه وسلم بعد انتهاء المعركة، لاجه إليهم القول: «يا كفار قريش لقد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًّا، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًّا»؟ (انظر: كتاب الكامل لابن الأثير ج٢ ص٩٠)

هذا وفي كتب السيرة تفصيلات كثيرة حول غزوة بدر وحول الموقع مع بيان أسماء الحاضرين من الجانبين، وسرد لأسماء الشهداء من الصحابة، والقتلى من قريش.

هذه هي الآبار الثلاثة، ولو أردنا أن نفيض في ذكر الآبار التاريخية الأخرى لاحتجنا إلى مجال أرحب من هذا.

هذا حديث مختصر عن الجليب في البيت الكويتي قديمًا بعضه مر بنا وبعضه الآخر لابد من ذكره في الختام:

الجليب هو القليب أو البئر أو الجب، يضعه صاحب البيت عند بنيان بيته في (المسبَّح) كما قلنا أو في حوش فرعي يسمى - أحيانًا - حوش المطبخ.

يحفر الجليب على هيئة تجويف أسطواني قطره متر أو أكثر قليلًا، ويمتد عمقه في الأرض حتى يتصل بالماء الصافي الصالح للاستعمال. وتختلف الجلبان من حيث العمق ومن حيث غزارة الماء بحسب قرب البيت أو بعده من البحر، ويتم تبطين الجليب بالصخور من أسفل إلى أعلى، وذلك من أجل حمايته حتى لا يتداعى وينهار مع مرور الوقت، أما فوهته عند سطح الأرض فيعلوها بناء يبنى على استدارة الفوهة، ويكون ارتفاع هذا البناء بقدر متر، تعلوه خشبة قوية تتصل بها (مَحَّالة) أي بكرة خشبية أو حديدية يمر عليها حبل الدلو المسمى: الرِّشاء. فينسرب الحبل مع الدلو إلى أسفل البئر حيث الماء ثم يتم جَرُّه إلى الأعلى للتزود بما فيه.

وماء الجليب المنزلي مالح في العادة فهو لا يصلح للشرب ولا للطبخ، ولكنه يستخدم من أجل النظافة والطهارة، وتبريد بعض الفواكه مثل الرقي (البطيخ الأحمر) حيث تربط الرقية جيداً بحبل متين ثم تُدلَّى إلى الماء وتترك حتى تصير باردة فيتم نقلها إلى المائدة.

****

ملحاق خير

فيما يتعلق باسم القليب في اللغة الفصحى فإن ابن منظور في لسان العرب كان يقول إن القليب هي البئر ما كانت، وذكر أنَّ كلمة القليب تطلق - أيضًا - على البئر القديمة التي لا يُعرف حافرها ولا صاحبها، وهذا الاسم لها قبل أن تطوى فإذا طويت بالأحجار من أسفلها إلى أعلاها أطلق عليها اسم «الطويّ»، واطلق اسم القليب - أيضًا - على البئر مطوية كانت أو غير مطوية. وسميت القليب بهذا الاسم لأنه قد قلب ترابها وأخرج حتى يتم الوصول إلى نبع الماء، ولا تأخذ اسمها هذا إذا لم يتوصل حافرها إلى النبع، بل تسمى: حفرة.

وطيّ البئر على الصفة التي ذكرناها أكثر من مرة في مقالنا هذا هو المتبع عندنا في الكويت، وهذا هو الاسم المعروف لوضع الأحجار مُستديرة من أسفل البئر إلى أعلاها.

ومما ورد فيه اسم (القليب) قديمًا ما جاء في الحديث: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه وقف على قليب بدر كما أشرنا إلى ذلك من قبل.

ومما ورد فيه ذكر اسم (القليب) بالتحديد من الشعر ما جاء في قصيدة كعب بن سعد الغنوي التي يرثى فيها أخاه، وقد قال عنها أبو هلال العسكري: ليس للعرب مرثية أجْود من قصيدة كعب بن سعد. ومطلعها:

أخـي مـا أخـي لا فـاحـشٌ عـنـد بـيـتـهِ
ولا ورعٌ عـنـد الـلـقـاء هـيـوبُ

ووجه حديثه إلى صاحبين له فقال:

وحدثتماني إنما الموت في القرى

فكيف وهاتا هضبةٌ وقليبُ

كان يظن أن الموت يكون للناس الذين يسكنون القرى والمدن، أما الذين يعيشون في البادية فهم في منجاة منه لصفاء جو البوادي وطيب هوائها وما فيها من أعشاب ووديان ولقد عجب سعد لوفاة أخيه في خارج القرى حيث القليب والهضبة وهما يدلان على ذلك، ومن هنا نرى أن آبار المياه العذبة تكون عادة في ظاهر كل بلد ولا تكون بين البيوت وما قلنا عن موارد المياه في الكويت يثبت ذلك. فكل المياه المتوافرة لدينا في الزمن الماضي إنما تجلب من أماكن خارج المدينة وخارج القرى.

وورد اسم «القليب» أيضًا في شعر الشاعر عبيد بن الابرص، وهو من قدماء الشعراء، وله قصيدة مشهورة عُدت من المعلقات التي استجادها النقّاد واختاروها من بين القصائد الجاهلية. ومطلعها:

اقفر من اهله ملحوبُ

فالقُطَبيّات فالذّنوبُ

وقد جاء ذكر (القليب) في البيت الثاني من هذه القصيدة حين قال الشاعر:

فراكِسٌ فثُعيلباتٌ

فذاتُ فرقَينِ فالقَليب

فَعردةٌ فقَفا حِبرٍّ

ليس بها منهمُ عريب

إنْ بُدّلت اهلها وحوشًا

وغيّرتْ حالَها الخطوبُ

ديار بني أسد بنجد وما حولها فقد كانت منازلهم واسعة.

****

على خُطَا الدكتور عبدالعزيز الخويطر[1]

من الناس من إذا عرفته لأول مرة فكأنك تعرفه منذ زمن طويل، وكأن بينكما مودة راسخة لا يفنيها الدهر، ومن هؤلاء رجل كريم طيب النفس، عالي الأخلاق، تُجِلُّه عندما تراه لأول وهله، وتحبه عندما تحادثه وتستمع إلى أفكاره النيرة، وإلى تجاربه التي حوت دروسًا كثيرة، فإن ما مر بهذا الرجل من التجارب كثير، وما قام به من الأعمال الأكاديمية والسياسية لا تكفي الجلسات العابرة لاستفاد ذكره كله. هذا هو الدكتور عبدالعزيز بن عبدالله الخويطر.

عرفت هذا الرجل في منتصف الستينيات من القرن الماضي، وكنت قد عُينت - آنذاك - وكيلًا لوزارة التربية. وقد جاء إلى الكويت مدعوًّا فسعدت بلقائه ومعرفته، وكان - وقتذاك - وكيلًا لجامعة الرياض. فكان وجوده هنا فرصة لنا، فقد عرفناه معرفة مباشرة بعد أن كانت مناقلة الأخبار تعطينا عنه أفضل المعلومات، فكان اللقاء دليلًا على تقصير الرواة فيما رووا عنه، إذ وجدناه عالمًا جليلًا محيطًا بمادته ومجليًا في عمله، وكان من أهم ما وجدناه فيه هو حرصه على التعرف إلى الأصدقاء واكتسابهم لا أقول ذلك عن نفسي فقط ولكن أقوله عن نفسي وعن كل الإخوة الذين كانوا معي في وزارة التربية آنذاك.

وقد مضت الأيام بعد ذلك فكنا نلتقي كلما سنحت فرصة، وانتقل من عمله ذاك إلى رئاسة ديوان المراقبة العامة فبقي به لمدة سنتين، صار بعدها وزيرا للصحة

(1) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠١٢/٨/٢٩

ثم وزيرًا للمعارف. وقد بقي في وزارة المعارف حتى سنة ١٤١٦هـ (١٩٩٥م) فكانت لنا فرصة واسعة للاتصال به في مناسبات عدة، ولاسيما في اللقاءات التربوية التي تتم اقليميًّا ودوليًّا. ولقد كان محط أنظارنا أثناء نقاش المسائل ذات الطبيعة التي تتعدد فيها الآراء، وتشتبك فيها الأفكار، حيث نراه يطرح الرأي السليم بهدوء وتمكن وبإحاطة المجرب الذي لا يصعب عليه العثور على حل لكل معضلة مهما كانت. فكان الدكتور الخويطر يعيدنا إلى جو العمل الهادئ الباحث عن الحقيقة والنتيجة لكي نتوصل بعد ذلك إلى ما نريد وندرك الأفضل من النتائج.

وأنا اليوم لا أقول شيئًا أكثر من أنني قد اكتسبت أخاً، سعدت به وبصلتي به، فلقد كان مُعَبِّرا عن آرائه بشجاعة نادرة وكان حريصًا على إبداء كلمة الحق، وكان كريمًا متواضعًا، اكتسب ثقة الناس ومحبتهم ورضي بحكمه كل من اتصل به من أجل قضية من قضايا العمل الذي يضطلع به ويزاوله حتى لقد ترك أطيب الأثر، ونمت في القلوب له محبة لا تزول.

ولقد كان الدكتور عبدالعزيز الخويطر مستحقًّا للتكريم في الدورة الرابعة والعشرين لمهرجان الجنادرية التي جرت في سنة ٢٠٠٩م، وذلك بصفته شخصية العام، وقد توج هذا التكريم ببادرة مهمة عندما سلّمه الملك عبدالله بن عبدالعزيز درعًا وجائزة خاصة. وقد صدر بهذه المناسبة بيان شامل يؤرخ حياة هذا الرجل ويبين صفاته ومؤلفاته ومشاركاته العديدة في الحياة العامة ضمن المملكة العربية السعودية وخارجها. وليس أمامنا إذا أردنا الإحاطة ببيانات كاملة عنه إلا أن نقدم هنا عرضًا شبه كامل لما جاء في هذا البيان لأنه وافٍ في بابه محيط بكل ما يحتاج إليه المرء من معلومات. ولقد جاء فيه:

«د .الخويطر من مواليد محافظة عنيزة بمنطقة القصيم، أتم دراسته الابتدائية في مدرسة العزيزية بعنيزة وهي أولى المدارس النظامية في نجد.

يمتلك سمات شخصية نادرة فهو عنوان على النزاهة وطهارة اليد، ونموذج لإعلاء عوامل الاستقامة، وعدم الميل الخاطئ الذي تمليه الأهواء الشخصية، وطبائع النفس المتغيرة، ولأن يبقى في مواقع صنع القرار العام، فهو أهل لكل ذلك.

كما يمتلك سيرة أدبية وعلمية ووطنية واجتماعية عطرة جدًّا وثرية.. فهو أول سعودي يحصل على شهادة الدكتوراه حيث تخرج في جامعة لندن عام ١٣٨٠هـ وعين مباشرة أمينًا عامًا لجامعة الملك سعود ثم وكيلًا للجامعة عام ١٣٨١هـ. ثم انتقل منها رئيسًا لديوان المراقبة العامة لمدة عامين ثم وزيرًا للصحة ثم وزيرًا للمعارف.. وفي عام ١٤١٦هـ عين معاليه وزيرًا للدولة وعضوًا في مجلس الوزراء.. كما كان عضوًا في كثير من اللجان والهيئات الوطنية العليا التي كانت لها مساهماتها الوطنية الكثيرة.. وكان محل ثقة ولاة الأمر بدءًا بالملك سعود ثم الملك فيصل ثم الملك خالد والملك فهد - يرحمهم الله - والآن هو محل ثقة خاصة من لدن خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز.

وعلى الصعيد الفكري والثقافي، فقد وضع الدكتور الخويطر مجموعة مهمة من المؤلفات، جميعها مهما اختلفت موضوعاتها تشف عن مكونات ونوازع هذه الشخصية التي تعبر عن معان بارزة، هي أمثولة لطريقة حياة، تشف عن القدوة المتميزة.

حيث اهتم الخويطر بالأدب إلى جانب التاريخ من خلال إطلالاته الشهيرة على التراث والتي امتطى من خلالها متن المعرفة والخيال الأدبي مصطحباً جيل اليوم في زيارات لمضارب الأمس وعاداته وتقاليده وطبائع أهله وأساليب عيشهم ونشرها عبر خمسة مجلدات بعنوان (أي بني) وهي بمثابة موسوعة تراثية كاملة، أمضى في كتابتها خمس سنوات، ما بين أعوام ١٤٠٩ و١٤١٤هـ، وله كتاب هو من أجمل الكتب في المكتبة العربية، لمعت فكرته في ذهنه منذ عام ١٣٨٨هـ حينما

كان يكتب عمودًا في جريدة الجزيرة، ثم وضعها في كتابه من «حطب الليل» وقد وجه هذه الكلمات أساسًا إلى أبناء هذا الجيل الذي نشأ بعد جيله ولم يشاهد ما شاهده، ولم يعانِ ما عاناه جيله.

هذا الجيل يقول عنه في هذا الكتاب:

هذا الجيل الراكض اللاهث هو الذي أخاطبه، ليقف ويلتفت خلفه، ويرى ما كان عليه أبوه، بمحيطه وآلاته ومعداته ودوابه ومساكنه وعاداته، بأفراحه وأحزانه، بآلامه ومتعه، بوجده وعدمه، بتفكيره وانطباعاته، ويقارن بين ما كان والده عليه وما هو نفسه عليه، ويقول لما حباه الله به: الحمد لله رب العالمين.

والكتاب على هذا النحو يجمع بين صور التراث، كأساس وكمحور لرؤية تنفذ إلى الجديد المعاصر، في مواءمة تهدف إلى انتزاع العبرة والدرس، أما النهج الذي اختاره لتوصيل أفكاره ورؤاه فيقول عنه: «قررت أن أسير فيما أكتبه على طريقة حديث المجالس، لأني نظرت في تأثير حديث المجالس في الناس، فوجدته بالغًا، ووجدت أن إصغاءهم كامل، وبهجتهم في الغالب طافحة، وأنهم كثيرًا ما يتناقلون ما يقال، ويسيرون بمقتضاه فطمعت أن يحظى ما سوف أكتبه بما تحظى به أحاديث المجالس.

أما كتابه الموسوعي «إطلالة على التراث» فقد شرع في كتابته عام ١٤١٤هـ ونشره في سلسلة من المقالات في صحيفة «عكاظ» حتى استوى على ستة عشر جزءًا، وربما يستمر الدكتور الخويطر على نشر أجزاء أخرى من هذا العمل المهم؛ فبحر التراث واسع، يغري بالسباحة فيه، والدكتور الخويطر واحد من أولئك الذين يجيدون السباحة والغوص في أعماقه واستخراج الدرر منه، وهو في هذا العمل المخصب المثمر، ينتقي قصصًا ونوادر يزخر بها بحر التراث، بما ترمز إليه من معانٍ، وبما تلمع به من عبر، يتدبرها ويتبصرها ويقارنها ويوازنها، نازعًا إلى موقف

مهم من كل ذلك ألا وهو معرفة «الصحيح من هذا التراث من المختلق، والأصيل من الدخيل، والواقع من المتخيل. والواقع أن هذا المنحى غاية في الأهمية، ذلك أن التراث العربي الذي وصل إلينا مؤلفًا على ضخامته، قد خضع لما يحتاج إلى تدقيق وتحليل، وإعمال مبدأ القياس العقلي والعلمي، في تمحيص ما ورد فيه من مبالغات هي ما يعنيه المؤلف «بالأصل والدخيل».

كما دون الخويطر سيرته الذاتية المليئة بالإنجازات في كتاب أدبي جاء بعنوان (وسم على أديم الزمن) يعكس ملامح شخصيته ومعالم نبوغه.

وأصدر مؤخرًا كتابًا عنوانه (النساء رياحين) تحدث فيه عن تأثير المرأة أمًا وزوجة وبنتاً.. وأشار في مقدمة الكتاب إلى أنه عندما كتب أحد فصول الكتاب تحت عنوان أمي وأبي كان دمعه يسيل.. من عينيه بسبب تذكره بعض المواقف المؤثرة لوالدته.

قد لا يفي هذا العرض الموجز الذي نقلناه هنا عن البيان الذي ذكرنا أنه صدر عنه في أن يعطينا المعلومات الكاملة عن حياة الدكتور عبدالعزيز الخويطر، ولكنه على كل حال يفتح لنا أبوابًا من المعرفة بسيرته الذاتية الكريمة، ويقرب لنا أفكاره ويسرد في عرض سريع أسماء مؤلفاته.

هبطت عليَّ من الدكتور الخويطر في اليوم السادس عشر من شهر مايو لسنة ٢٠١٠م هدية قيمة، وعليها إهداء بخطه سعدت به كما سعدت بالهدية، وكانت هديته هي كتابه الذي صدر الجزء الأول في سنة ٢٠٠٥م تحت عنوان: «وسم على أديم الزمن» - لمحات من الذكريات. ولم يكتف بذلك بارك الله فيه فأضاف ورقة منفصلة جاء فيها: «سوف يوالي المكتب - إن شاء الله - إرسال بقية الأجزاء، وآخرها حتى الآن الجزء الثاني عشر. أرجو أن تجد فيها بعض الفائدة».

بل وجدت كل الفائدة يا أخي الكريم وهي فائدة لا تخصني وحدي بل إنك قد اتحفت بها كل قارئ من قرائك الكثيرين الذين يتابعون إنتاجك الراقي المتنوع، ويجدون فيه كما أجد أنا الفائدة الكبرى التي ينشدها المرء حين يقرأ لواحد مثلك.

ولقد توالت عليّ أجزاء هذا الكتاب القيم، وسرت مع مؤلفه يومًا فيومًا وسنة تلو أخرى وعرفت خلال قراءتي كثيراً من الأمور عن الحياة الخاصة بصاحبي وعن الحياة الاجتماعية العامة لأهلي في المملكة العربية السعودية.

بدأ المجلد الأول بمقدمة ذات أسلوب رقيق تحدث فيها عن الدافع إلى تأليف الكتاب، وذكر أنه يريد بذلك أن يحتفظ بتاريخ وطنه وتاريخ عدد ممن مر به من الأصحاب فعرفهم وعرفوه ووجد أن ذكرهم ينبغي ألا يمحي من الورق إن قدر فمحي من الذاكرة، كما ذكر دافعاً آخر هو أنه يريد أن يطلع أبناؤه على سيرته، أما ثالث الدوافع فهو إلحاح بعض الإخوان عليه في إخراج هذه المذكرات.

ومما لفت نظري في مقدمة الكتاب ما قاله وهو يتحدث عن أسلوبه في كتابته فهو يذكر مايلي: «سوف أحاول في هذه المذكرات ما أسعفتني أوراقي ودفاتري، وما لدي من وثائق، وما أسعفتني به الذاكرة، أن أكون أمينًا فيما أكتب، صادقاً فيما أنقل، واضحاً فيما أصور، لأن الحقيقة جميلة، ومن يخالفها فقد ترك الجميل إلى القبيح».

وبعد هذا فانه يستمتع بذكرياته قبل القارئ، ويرى أن متعته أكثر، وأن من حقه أن يسير أمام قارئه لأنه يقول إن بعض ما يذكره قد قام هو بدفع ثمنه سنين من عمره. كما ذكر أنه سوف لا يتجنب الإشارة إلى جوانب النقص بل إنه سوف يبرزها إبرازاً عادلًا. لأنه يرى ما لا يدخل حيز العيوب لا يحتاج إلى إبراز فهو يبرز نفسه بنفسه، والخلاصة أنه يرى الأمر كما يلي:

«سيرى أبنائي وأحبائي ومن تهمهم الحقيقة رجلاً على حقيقته، وسيعرفون الأسباب التي أوصلته إلى ما وصل إليه من مزايا ونجاح، وسيرون المعوقات التي حالت دون نجاحه وتبريزه في أمر ما، أو حقبة ما».

☆☆☆☆

هذا هو الدكتور عبدالعزيز بن عبدالله الخويطر، وهذا هو كتابه الجميل «وسم على أديم الزمان». وليس في الاستطاعة الاندفاع في العرض والبيان بأكثر مما ورد هنا لأنني ملتزم بمساحة ينبغي ألا أخرج عنها. ولكنني أريد أن أتجه إلى أمور أخرى وجدت أن من المهم الإشارة إليها، وهي أمور ظهرت لي وأنا أقرأ أجزاء الكتاب. وكلها تتعلق بما يمكن أن نطلق عليه: «علاقة الخويطر بالكويت» وهي علاقة محبة لها ولأهلها، وعلاقة معرفة ونسب، وذلك سوف نراه في الفقرات التي سوف نشير اليها هنا، وذلك بحسب تسلسل ورودها في الأجزاء:

- في ص ٧٧ وص ٧٨ من الجزء الأول للكتاب قال: «استأجر جدي - رحمه الله - لوالدي بعيراً يوصله إلى الأحساء، ومعه ابن عمته محمد العتيبي، بسبعة عشر ريالاً فرنسيًّا (ماري تريزا) ولما وصل محمد إلى البحرين، بقي بها، ثم انتقل إلى الكويت، حيث فتح الله عليه أبواب الرزق هناك، وحظي عند حكامها، وصار من أبرز الشخصيات، وأحد أبنائه:

عبدالعزيز وصل إلى منزلة مرموقة، إذ أصبح أمينًا عامًا لمجلس الوزراء إلى أن تقاعد».

وجاء بعد ذلك أن العلاقة باتت منقطعة مع محمد فترة من الزمن إلى أن تهيأت الفرص فتم اللقاء من جديد.

ولا أظن أحدًا في الكويت يجهل العتيبي، ولا ولده عبدالعزيز فقد قاما بخدمة هذا الوطن في عدة مجالات سواء أكان ذلك في مجال العمل الرسمي أم

في مجال العمل الاجتماعي وقد توفي الرجلان وهما يذكران بالخير، فندعو الله لهما بالرحمة.

وثاني الموضوعات مما ورد في الجزء الأول ص ٨٥ وص ٨٦. هو الذي تحدث فيه عن أمر تطلق عليه كتب تاريخ الكويت اسم: مشكلة المسابلة. حين منعت التجارة بين هذا البلد والمملكة العربية السعودية والواقع أنني ما كنت أتمنى أن يرد هذا الموضوع في هذا الكتاب لأنه من الموضوعات المؤلمة لتُجّار البلدين، وقد أثر آثاراً سلبية شديدة هنا. إضافة إلى أن الواقع يكاد يكون مختلفًا عما جاء في الكتاب، وقد تمنيت أن يطلع الدكتور الفاضل على كتاب الشيخ عبدالعزيز الرشيد «تاريخ الكويت» (القسم الأول ج١) ففيه بيان واضح عن هذه المسألة الشائكة، وأنا لا أريد العودة إلى ما ورد فيه الآن لأن ما فات مات ونحن أبناء اليوم.

أرجو من أخي العزيز أن يلتمس لي العذر فيما ذكرته بشأن هذه المسألة.

كما أرجو أن يحفظ الله البلدين، ويبعد عنهما أي شقاق، وأن يسبغ عليهما رداء المحبة الذي نسعد بارتدائه في هذه الأوقات.

تحدث في الجزء السادس عشر عن زيارته إلى الكويت فقال في ص٢٨٦، إنه قام بهذه الزيارة بناء على دعوة من وزير التربية الكويتي. ثم دعي مرة أخرى لحضور افتتاح جامعة الكويت التي تم افتتاحها في سنة ١٣٨٦هـ وقد وافق ذلك اليوم السابع والعشرين من شهر نوفمبر لسنة ١٩٦٦م. وذكر في هذا المجال أنه حضر من جملة الوفود التي حضرت هذه المناسبة فكانت زيارته هذه هي الثانية.

وكان وزير التربية رئيس المجلس الأعلى للجامعة في وقت الإنشاء والافتتاح هو الأستاذ خالد المسعود.

هذا وكان الدكتور الخويطر قد زار في زيارته الأولى جزيرة فيلكا، وكانت زيارة علمية اطلع خلالها على الآثار التي تركها الأقدمون فيها. وقد قال عن هذه الرحلة: «كان برنامجنا مزدحمًا بالزيارات، وكان المرافق معنا الأخ العزيز دخيل العسعوسي».

والجدير بنا ذكره هنا أن الأستاذ المذكور كان رئيسًا لقسم العلاقات العامة في الوزارة، وقد توفي بعد تقاعده.

أشار في ص٣٩٢ في هذا الجزء من الكتاب إلى أنه عندما كان في الكويت طلب منه الأخ الأستاذ جاسم المرزوق وزير التربية في الكويت سلم رواتب المدرسين الإنجليز فأرسله له وعلق على ذلك بقوله: «وهذا يوحي باهتمامهم بإنشاء الجامعة والاستعداد لها من جميع النواحي، وهذا يدل على أنهم يبحثون في المرتبات وهذا أمر يدل - كذلك - على أنهم قطعوا مرحلة في التهيئة لافتتاح الجامعة».

والواقع أن الذي طلب سلم الرواتب هو الأستاذ خالد المسعود وزير التربية الأسبق، وكانت الوزارة قد عزمت على إحضار عدد من المدرسين الإنجليز للتدريس في المرحلة الثانوية. أما الجامعة فقد كان لها جهازها المتخصص الذي يتولى كافة هذه المهمات.

- الأخ سعدون الجاسم الذي ورد ذكره في ص ٤١٥ من الجزء السادس عشر من الكتاب كان في ذلك الوقت وكيلًا لوزارة الإعلام، وكان استفساره من أجل الإعلام عن التعليم الجامعي في المملكة العربية السعودية.

- وفي الجزء السابع عشر من الكتاب الذي يخص سنة ١٣٨٦هـ (١٩٦٣م) وفي ص ١١٥ حديث عن حضوره حفل افتتاح جامعة الكويت، ومعه تعليق على فكرة إنشاء الجامعة في منطقة الخليج العربي.

- وفي ص ٤٨٥ من هذا الجزء عاد إلى الحديث عن افتتاح جامعة الكويت، وعن علاقته بمديرها الدكتور عبدالفتاح إسماعيل، وقد علق على مراسلته مع مدير جامعة الكويت تعليقًا يدل على سعادته بإنشاء هذه الجامعة، كما يدل على أنه يرى في إنشائها خطوة من خطوات التقدم لمنطقتنا بأسرها.

- وفي الجزء التاسع عشر من الكتاب، جاء في ص ١٨٢ حديث لطيف عني شخصيًّا. وذلك عندما قال: «في يوم الجمعة الرابع من شهر محرم من هذا العام: ١٣٩٢هـ (١٩٧٢م) دعانا الأخ إبراهيم بن محمد الحجِّي على العشاء في هذا اليوم على شرف الأخ الأستاذ يعقوب الغنيم وكيل وزارة التربية في دولة الكويت.

والأستاذ يعقوب خريج كلية دار العلوم في جامعة القاهرة، وعند تخرجه التحق بوزارة التربية في بلاده وقد طالت مدته في منصبه هذا، وإذا لم تخني الذاكرة فقد تسلم منصب وزير التربية والتعليم بعد ذلك، وأظن أن هذا تم في عام ١٩٨٠م، وقد أخذ شهادة الدكتوراه من جامعة الأزهر، وكان يشرف على رسالته، على ما أذكر، أحد الأساتذة من جامعة الأزهر، كان معارًا لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. وكان الأخ يعقوب بين آن وآخر يأتي ليعرض على المشرف على رسالته ما أنجزه، وهذا يتيح لنا الاجتماع به، والائتناس بمجيئه، وكان توليه منصب وزير التربية بعد أن حصل على درجة الدكتوراه».

وأنا سعيد جدًّا بهذا الحديث، ولم تخن الذاكرة أخي الدكتور عبدالعزيز فقد التقينا في عدة مؤتمرات وكان كلانا وزيرًا للتربية في بلاده، أما الدكتوراه فقد نلتها من كلية دار العلوم بجامعة القاهرة، وكان الأستاذ المشرف الذي أذهب إلى لقائه في الرياض هو الدكتور أمين علي السيد، وهو معار من كلية دار العلوم إذ كان أستاذًا بها، وكان وجوده في الرياض مما أسعدني وأتاح لي فرصة اللقاء مع هذا الجمع الكريم.

- تحدث في ص ٥٢٧ عن مؤتمر وزراء الصحة العرب الذي حضره بصفته وزيرًا للصحة في المملكة العربية السعودية، وذكر من حاضري المؤتمر الدكتور عبدالرحمن العوضي وزير الصحة الكويتي وأثنى على جهوده المكثفة في المؤتمر.

- وفي الجزء العشرين تحدث في ص ٢٢٨ وما بعدها عن زيارة قام بها سمو الشيخ جابر الأحمد الجابر، وكان وقتها وليًّا للعهد رئيسًا لمجلس الوزراء في الكويت، وذكر الدكتور الخويطر كثيرًا من مظاهر الحفاوة بضيف المملكة العربية السعودية مما هو غير مستغرب على أبناء هذا البلد الكريم.

- وفي الجزء الثاني والعشرين تحدث في ص ٢٧١ وما بعدها عن زيارة سمو الشيخ سعد العبدالله السالم بصفته وليًّا لعهد الكويت إلى الرياض، وذكر الحفاوة به، والبرنامج الحافل الذي أعد له. ثم تحدث عن رحلة العمرة التي قام بها الشيخ سعد ضمن الزيارة.

- أبدى في هذا المجال مدى اهتمام الشيخ بإنشاء جامعة الخليج في البحرين، ومتابعته لها حتى أنجزت، وتحدث عني هنا قليلًا بمناسبة تقلدي لمنصب الوزير.

- في الجزء الثالث والعشرين تحدث عن موضوعين هما: اهتمام الشيخ جابر الأحمد الصباح بمشروع مجلس التعاون الخليجي ومتابعته له إلى أن صار أمرًا واقعًا، وثاني الأمرين حديثه عن البروفيسور فؤاد سزكين التركي الأصل المقيم في ألمانيا المهتم بالتراث العربي. الذي فكر في إنشاء معهد للدراسات الحضارية الإسلامية. ثم سعى إلى إخراجه إلى حيز الوجود وكان مدرساً في إحدى جامعات ألمانيا. ولا أريد أن أتحدث عن الموضوعين وذلك لأن مركز البحوث والدراسات الكويتية تحدث عن الموضوع الأول بصورة موسعة في كتاب أصدره عن الشيخ جابر الأحمد. وأما الموضوع الثاني فقد كانت لأخي الدكتور عبدالله يوسف الغنيم ملاحظات على مشروع فؤاد سزكين ولو أخذ بها لما قامت لمشروعه قائمة. ولكنه حقق ما أراده دون أن يجعل له مساعدًا ينوب عنه إذا ما حدث له أمر من أمور الحياة مما نخشى معه أن يستولي اليهود المتسلطون هناك على هذا المركز الذي بذلت دولة الكويت والمملكة العربية السعودية الكثير من الأموال من أجل إقامته.

وأخيراً فإن مما يذكر للدكتور عبدالعزيز الخويطر أنه قدم إلى الكويت مرارًا بعد الرحلتين اللتين أشار إليهما، ولكنه كان يأتي حاملًا رسائل شفهية إلى سمو أمير البلاد من خادم الحرمين الشريفين. ولم يرد فيما قرأته من أجزاء كتابه «رسم على أديم الزمن» ذكر لهذه الرحلات فقد أبت نفسه الكريمة أن يفصح عما كلف به رسمياً، وعن الأسرار الحكومية التي يحرص مثله على حفظها.

وبعد، فإننا لو أردنا تتبع خُطا الأخ العزيز الدكتور عبدالعزيز الخويطر كلها لاحتجنا إلى وقت طويل، ومجال أرحب، ولكن ما قدمناه هنا كافٍ فيما نظن، لأن كتبه العديدة قد ضمت الكثير مما ينبغي أن نذكره عنه وعن نشاطه. والخلاصة أن الدكتور الخويطر موسوعة تحتوي على كل ما يحتاجه المرء من معلومات، فهي جمة الفوائد، كثيرة النفع.

****

فرسان اليامال...[1]

يامال...

كلمة يتردد صداها في البحار. ويمتد هذا الصدى ملاحقاً السفن الشراعية الكويتية في رحلاتها الطويلة وفي تحركاتها المحدودة، وتتردد مع أنشطة البحارة المتعددة أثناء تأدية أعمالهم.

هي غناء عذب فيه عاطفة، وفيه شعور بالعذاب وإحساس شديد بالفراق... فراق الأحبة الذين غادرهم البحّار من أجل كسب رزقه ورزق عياله.

يردد مغني السفينة (النهام) مقطوعة تسمى الموال ويطلق عليها في بعض الأماكن الزهيرية، وقبل أن يبدأ بهذه المقطوعة ثم عندما ينتهي من ترديدها يكرر كلمة يا مال، ويمد في نطقها، وكأنه يئن بسبب شدة الوجد، والاشتياق إلى الديار ومن فيها.

ولقد سبق أن ذكرنا في موضع آخر شيئًا عن هذه المقطوعات التي تحدثنا عنها آنفًا، وقلنا إنها تكتب من سبعة أشطر، تكون قافية الثلاث الأولى واحدة، ثم تكون قافية الأشطر الثلاثة الأخرى مختلفة عنها، ويعود الشاعر بعد هذه الأشطر الأخيرة الى الشطر السابع ليجعل قافيته متماثلة مع قافية الأشطر الثلاثة الأولى.

(1) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠١٢/٩/٥م.

ومن الملاحظ أن ما تشتمل عليه كل مقطوعة من المقطوعات المغناة مع اليامال أو الموال إنما هو التعبير عن فكرة يريد الشاعر أن يعبر عنها، وهو في سبيل ذلك يفرغ كل ما يريد أن يقول في هذه الومضة التي هي مجمل ما يغنيه النهام ضمن المقطوعة، وكلما أنشأ الشاعر مقطوعة إضافية أتى بأفكار جديدة غير ما كان قدمه، مع عدم الخروج عن النظام الذي ذكرناه مما سارت عليه المقطوعة الأولى.

يُغنّى هذا النوع من الشعر على الطريقة التي تسمّى الموال، ومنها جاء لفظ اليامال على أقرب تقدير لذلك، وتكون طريقة الغناء في الكويت وفي البحرين بأسلوب المنشد المنفرد الذي تصحبه الآلات الموسيقية، أما في الغناء البحري فإن ذلك يختلف فإن هذا الشعر عندنا مرتبط بهذا النوع من الغناء الذي له طرق وأساليب خاصة. وقد تحدث الأستاذ عبدالله الدويش كثيرًا عن هذا الفن في كتابه: «ديوان الزهيري» فقال: «ويعرف لحن الموال في الكويت وغيرها من مناطق الخليج بهذه الأنواع:

١ - الياهي. ٢ - الغريري. ٣ - الراكد. ٤ - المحرقي. ٥- المخالف ٦ - الحدادي. ٧ - الفجري. ٨ - العدساني.

ويؤدى اللحن الأول حتى الرابع من قبل منشد يُدعى النهّام تشاركه جوقة تسمى الردادة، والجوقة عادة هي مجموع البحارة في أثناء قيامهم بعملهم في التجديف وتسمى نغمة هذه الأنواع بـ «اليامال» وهي كلمة مشتقة من كلمة الموال المشتقة أيضاً من أصلها القديم المعروف «مواليا» التي كانت تردد في آخر كل موال يغنى.

أما الأنواع الأربعة الأخيرة فإنها تؤدى بلحن يختلف عن القسم الأول، ففيها تستعمل آلات الإيقاع فقط، مثل: الطبل، الطار (الدف)، الجحله وتلفظ «اليحله» على عادة أهل الكويت في قلب الجيم ياء، وهي وعاء فخّاري شبيه بالجرة تعطي

إيقاعاً غليظاً حين يُضرب على فتحتها بالكف. وتُؤدّى هذه الأنواع في أثناء راحة البحارة على ظهر السفينة، أو في أماكن رسوهم».

ويضيف قائلًا:

«وينفرد الموال الزهيري في الكويت والبحرين وقطر بمثل هذا اللون من الأداء، نظراً لكون معظم سكان هذه المناطق بحارة على سفن يجوبون البحار بها غوصاً وتجارة، ويتأثر اللحن تبعاً لهذا الارتباط بجو البحر وبيئته، فهو هادئ لا صخب فيه أو ضجيج، وصوت الردادة بأشكاله وتنوعاته، يشبه إلى حد بعيد موجات البحر الصغيرة حين تكر على الشاطئ، ويمثل تعاقبها، وتصفيق الأيدي بإيقاعه الذي لا مثيل له في أية منطقة أخرى في العالم؛ اصطفاق الشراع حين يضربه الهواء».

وهذه تفصيلات جيدة بين فيها الأستاذ الدويش أنواع المواويل وبين أصلها. وذكر أنها تغنى في البحر على أغلب الأحوال، وقد فهمنا أن هذا الموال هو اليامال وهو الزهيرية، وهو أيضاً ما وصل إلينا من فن المواليا الشعري القديم الذي نورد فيما يلي شيئًا عنه.

من أيسر كتب العروض كتاب ألفه السيد أحمد الهاشمي، ونشره تحت عنوان: «ميزان الذهب في صناعة شعر العرب»، وهو كتاب شهير في بابه، لأنه لم يكتف بأوزان البحور الشعرية التي وضعها الخليل بن أحمد بل توسع في ذكر ما يتعلق بفنون الميزان الشعري، فتحدث إلى جانب العروض والقوافي عن أشياء أخرى منها الزجل والموشح والمواليا والكان كان، والتصريع وغير ذلك. وقد قال عن المواليا التي أشرنا إليها فيما سبق أنها فن من الفنون الشعرية التي تم وضعها للغناء، وكان أول من تكلم بهذا النوع - فيما ذكر - بعض أتباع البرامكة الذين عصف بهم الخليفة العباسي هارون الرشيد، فقد كان هؤلاء الأتباع ينوحون على أسيادهم بعد أن نكبوا ويكثرون من ذكرهم والإشادة بصنائعهم الدالة على كرمهم وجودهم، وفي

هذا النواح يكثرون من قولهم: «يا مواليّ» فصار إنشادهم يُعرف بهذا الاسم منذ ذلك الوقت. وجاء في أقوال عن نشأة المواليا التي هي الموال الآن أن أول ما ذكر من هذا الفن هو قول جارية من إماءِ البرامكة قالته في رثائهم:

يا دارُ أين ملوك الأرض أين الفُرس
أين الذين حَمَوْها بالقنا والتُّرس
قالت: تراهم، رِمَمْ تحت الأراضي الدُّرسْ
خُفُوتٌ بعد الفصاحة السنتهم خُرسْ

هذا هو إذن أصل الموال. وقد استمر منذ الوقت الذي ظهر فيه إلى أن بدأ الناس يدخلون عليه بعض الألفاظ العامية سواء أكانت مجموعة الألفاظ كاملة في مجمل المقطوعة أو داخلة في بعض أجزائها إلى أن وصل الوضع إلى ما وجدناه عليه عند فرسان الموّال من أبناء الكويت الذين شهد لهم عملهم بالإجادة، وضج البحر بأصواتهم الرنانة العذبة، وتبارى شعراؤهم في تقديم كل جديد يغذون فيه رغبة المغنين في الشدو الدائم وبخاصة في أثناء السفر وما تجرى خلاله من أعمال، وقد ثبت أن هذا النوع من الغناء وبخاصة إذا تزامن مع حركات البحارة وتصفيقهم ورقصهم له دور كبير في التشجيع على العمل، والنهوض بأكبر المهمات دون سأم أو عجز.

ولقد صدرت كتب بحثية مهمة عن فن الطرب البحري منها ما أصدرته الدكتورة حصة الرفاعي، وكان ذلك نتيجة لبحثها الذي نالت بسببه درجتها العلمية، وأصدر الأستاذ غنام الديكان كتابه: «الإيقاعات الكويتية» وقد ذكر فيه الكثير من هذا الفن، أما الدكتور يوسف الدوخي فله كتاب مشهور هو: «الأغنية الكويتية» وقد تناول فيه الحديث عن هذا الفن كثيراً وقدم له عدداً من الأمثلة.

ولم يكن الغناء ينقطع على ظهر السفن إلا إذا شغل البحارة بأعمال لها أهمّيتها القصوى، أو كان الجو العام يقرب سفينتهم من الخطر، نذكر أننا أشرنا إلى البحار الأجنبي العريق ألن فاليارز صاحب كتاب «أبناء السندباد» وتحدثنا عن رحلته، ونشير هنا إلى أنه لم يهمل الحديث عن الغناء البحري الذي يمارسه البحارة الكويتيون وهم يبحرون بسفنهم إلى الآفاق البعيدة.

كان من أهم ما يستدعي الغناء تلك السعادة التي تغمر البحارة لحظة وصولهم إلى الميناء المطلوب الرسو فيه، يقول فاليارز عن وصول السفينة التي يستقلها: «وقبل انتصاف النهار لاحت لنا مدينة زنجبار، ونحن نبحر في الممر الواقع بين الشعاب، وطبولنا تقرع، وبحارتنا مجتمعون على مقدمة المركب يصرخون بالغناء، وعلم الكويت الأحمر يرفرف على ساريته في المؤخرة».

ثم يوالي وصفه لدخول المرسى قائلا: «وفي هذه الأثناء لم ينقطع بحارتنا عن المرح والغناء، وكانوا يقرعون الطبول بشكل لم أر مثله من قبل قطُّ، يقودهم في ذلك عريفهم بنشوة عارمة كانت ظاهرة على قسمات وجهه بوضوح تام، وقد واصلوا غناءهم دون انقطاع أبداً، كما واصلوا قرع الطبول والدُّفوف، وكانوا يحدثون ضجة هائلة جدًّا، حتى إنه لم يكن بإمكانهم أن يسمعوا أية أوامر تصدر إليهم...».

ومن المعروف أن هذا الرجل قد شارك في رحلة من رحلات الغوص مع سفينة كويتية بعد أن عاد من رحلته الكبرى التي قدم إلى الكويت بعدها من أفريقيا، وفي جزء من أقواله الخاصة برحلة الغوص كان يتحدث عن قيام البحارة بجر الحبل الطويل المتصل بآخره بالمرساة وما يصاحب ذلك من أناشيد متنوعة فقال: «وها هم البحارة يرقصون في صفين طويلين متقابلين على ظهر المركب، ويدورون ويدورون وهم يصفقون بأيديهم الضخمة، ويهزجون، بينما يصعد الحبل الغليظ تدريجياً إلى أعلى قامة بعد قامة».

وهذه الحركة تسمى جر الخراب ويكون معها عادة نشيدها الخاص بها، ثم يضيف إلى ذلك وصفه لحركة المركب بواسطة المجاديف بعد أن انتقلت المرساة إلى الأعلى ولم تعد تشكل أية إعاقة للحركة، ويصف - أيضًا - الطريقة التي كان البحارة يزاولون بها عملية التجديف، وهي عملية تكون عادة من العمليات المهمة الدالة على قوة البحار ومهارته وهي مصحوبة كذلك بالمواويل التي يصرخ بها نهام السفينة الخاص ويتجاوب معه فيها بقية البحارة.

☆☆☆☆

منشد الموال أو اليامال، بل وأي صنف من أصناف الغناء البحري الدارج عند البحارة في سفراتهم الطويلة أو القصيرة له وضع خاص، فهو إذا كان منشداً جيداً مطلوب من جميع النواخذة، ويكتسب شهرة كبيرة بين أصحاب السفن، وهو يتقاضى نسبة من مردود السفينة أعلى من النسبة التي يتقاضاها البحار عادة وهذا لأهميته في الرحلة، ولأنه يدفع بهمم البحارة إلى الانطلاق في العمل وعدم التواني.

تحدث الأستاذ المؤرخ سيف مرزوق الشملان عن الطرب البحري في كتابه: «تاريخ الغوص على اللؤلؤ في الكويت والخليج العربي» وأورد في ص٢٥١ من الجزء الثاني من الكتاب أسماء عدد من ممارسي النهمة الذين يَصْدَحُون بموالاتهم أثناء رحلات الغوص والسفر فقال مايلي:

«اشتهر في تاريخ الكويت عدد من النهامة الممتازين وأشهرهم فرحان أبو هيلة، ثم من بعده سليمان الغرير وسلطان بن دليم، وصالح كحيل، وشريدة وابناء سعد وعتيق، وسعد بن فايز، وعبدالله اليحيى، وبخيت ابن بشير، وسالم المرطة،

وعبدالعزيز الدويش، وحسين الملا، وجوهر عبد السيد، وملا فرج بن هندي، وعامر الدويش، ومحمد القشطي، وعثمان الدراعة، ومحمد الجاركي من أهالي فيلكا كما إنه مطرب.

ويوجد نهامة آخرون غيرهم ولكنهم لم يبلغوا مرتبتهم ومن أشهر الموجودين على قيد الحياة:

«راشد الجيماز وسعد العبكل ويعقوب كحيل وسعود صرام وعبدالله بن عاصي وسعود الغرير».

والجدير بالذكر أن هذا الكتاب قد طبع في سنة ١٩٧٨م. وأن بعض هؤلاء قد توفي إلى رحمة الله ولكن ما ذكره الأستاذ أبو شملان ينطبق على وضعهم عند تأليفه لكتابه المذكور.

نظم الشعراء الكويتيون الذين يكتبون الشعر النبطي كثيرًا من المواويل ولنسمها الأبوذيات وهو الاسم الذي اصطلحوا عليه وعم المنطقة، ولقد لاحظنا أنه لا يكاد يخلو شعر واحد من هؤلاء الشعراء من هذا النوع من الشعر. ويبدو أن عددًا منهم كان يحرص على أن تكون بين قصائده مقطوعة أو أكثر من هذا النوع الشعري المتميز، وذلك لأنه يرغب في إظهار قدرته على إبداع شكل من الأشكال الشعرية التي قد تصعب على غير المتمكن لأن الشاعر يحتاج لكي يبدع فيه ويجيده إلى مقدرة على الصياغة ودراية بلاغية يلزمه العمل بها، فهو في هذه الحال في حاجة إلى أن يحشد لنفسه ثروة من الألفاظ المتعددة المعاني ذات التشّابُه الشكلي إذا أراد أن يجاري الآخرين في فنهم.

ومما قاله شعراؤنا القدماء من هذا النوع من الشعر تلك المقطوعات التي صاغها الشاعر الفنان عبدالله الفرج، بأسلوبه الراقي، وذوقه العالي. وقد تضمن

ديوانه ما يقرب من أربعين موّالًا. ذكر خالد الفرج الذي أشرف على طباعة الديوان أن بعضها ليس له، وإنما هو منسوب إليه:

ومما قاله عبدالله الفرج:

«يا مُقلتي تِنزِجِين الدموغ من عيني
كفى ومن طول مَدّ النظرْ مِنعيني
ماني سواتِك بْهذا الحال مِنْ عيني
انتي سَبَبَ هَيْمتي بالشوق قالتْ بلى
ريم نطحني سَلبْ عَقلي وْجسمي بَلى
يا عينْ انتي الذي سِقتي عليّ البلا
من أين اراعي وكِثر بْلاي مِنْ عيني

يخاطب عينه التي تسبح بالدمع نازفًا وكأنه ينتزع من نبع دارٌ لا ينقطع، ويقول لها: كفي عن هذا، وأيضًا: امنعيني عن مد النظر إلى الجمال الذي يسبب لي ما أنا فيه من عناء، أنا لست مثلك، فأنا من عينة أخرى لا تستطيع الاحتمال. ويقول: وجهت سؤالي إلى عيني قائلًا: أنت سبب هيامي بهذا المحبوب، فقالت نعم أنا أريتك إياه وحسنته في بالك. والحق أنه غزال جميل واجهني فسلب عقلي، وأبلى جسمي، فيا عين أنت التي سُقت عليّ البلاء الذي أنا فيه. ثم يقول: كيف لي أن أراعي حالتي وأدرأ عني هذا البلاء وأكثره من عيني التي لا غنى لي عنها.

وفي هذه المقطوعة ما يلي من الكلمات:

مقلتي: عيني، وهي عربية فصيحة.

عيني: في الشطر الأول يقصد بها: عين الماء (النبع).

منعيني: امنعيني.

سواتك: مثلك - من عيني: في الشطر الثالث يقصد بها من عيِّنتي أي من حالي الذي يختلف عن حالك.

هيمتي: هيامي وغرامي.

الشوق: المحبوب.

بلى: في الشطر الرابع بمعنى: نعم.

بلى: في الشطر الخامس بمعنى بلي وتلف.

البلا: في الشطر السادس بمعنى: البلاء.

عيني: في الشطر السابع: عين الإنسان.

ومن شعرائنا القدماء الذين أنشدوا القصائد على هذا المنوال الشاعر حمود الناصر البدر المتوفى في سنة ١٩١٥م، وقد وجدنا له عددًا من هذه المقطوعات في ديوانه الذي ضم بعضًا منها، علمًا بأننا على يقين من أن هذا الديوان لم يحتو على كل ما قاله من شعر. وقد ورد في ديوانه هذا ما عدده إحدى عشرة مقطوعة منها قوله:

عفنا المنازل بْسرعه والمقدر كان
والبال صوب الأوده كيف حاله صار
العمر كفات كفتني بحيله وصار
ما ظن في مهجتي لديارکم وقرى
ومدامعي لم تزل فوق الوجن تقرى
يا خوي لي جاك خطي فسره واقرا
واسال على حال خيك باي ديره صار

يقول الشاعر: لقد عفنا المنازل، ونزحنا عنها مسرعين، وذلك أمر مقدر علينا وقد حدث كما قُدِّر، وقد ظل البال مشغولاً متجهًا إلى جهة المحبوب الذي أهواه، وبت أتساءل عن حاله كيف أصبح من بعدنا. لقد ربطني الدهر، وعبر عنه بقوله العمر، الذي هو دائم العمل على ربط الإنسان بعيدًا عن غرضه، فصار له ما يريد، وهأنذا لا استطيع العودة إليكم، ولا أظن أنه سوف يكون لي مقر بدياركم أيها الأحباب، ولا أزال حيث أنا وعلى حالي التي وصفت ومازالت مدامعي تسيل على وجنتي على فراقكم، فيا أخي إذا جاءتك رسالتي فاقرأها وفسرها، وتساءل عن حال أخيك بأي بلد يقيم.

معاني كلمات هذه الزهيرية كالآتي:

عفنا: يقول عفنا المنازل؛ بمعنى: زالت رغبتنا في البقاء بها، وعزفت نفوسنا عنها.

صار الأولى: حدث.

صوب: جهة.

الأوده: الذي أوده.

صار الثانية: أصبح.

كفات كفتني: الكفت هو ربط يدي الإنسان من خلاف وهو هنا يقول إن الدهر كثير الكفت للناس، وقد كفتني مثلهم.

وقرى: مقرا.

الوجن: يقصد الوجنتين أي الخدين.

ديره: بلد – صار الأخيرة: استقر وأقام.

وهذا هو شاعر آخر من كبار شعراء الكويت الذين أبدعوا في الشعر النبطي، وبرزوا فيه لفت إليهم الأنظار وهو الشاعر الكبير فهد بورسلي المتوفى في اليوم التاسع والعشرين من شهر ابريل لسنة ١٩٦٠م، وهذا نموذج من مشاركاته في فن الموال:

يا عيد الأفراح ونسهم وناهملي

وعيون الأضداد مِسْتَرّه واناهم لي

مليان قلبي مصايب والحشا هملي

أنا وقلبي على نار الغضا نصله

متقاسمين الحزن نص لي وهو نص له

منين ما صابته نصله على نصله

ضرب السهم بيننا هم له وانا هم لي

أقبل العيد على الشاعر وهو في هم يشغله عن المشاركة في الأفراح، وهو قد عانى كثيرًا في حياته، فلم تعد تسره مظاهر الأعياد كما تسر غيره من الناس الذين لا يشغلهم ما شغل باله من هموم، يقول: أيها العيد الذي أتى للناس بالأفراح، اغمرهم بالأنس والسعادة وأهملني دونهم، ويكفي أن عيون أعدائي فرحة مسرورة، وأنا لي الهم والشقاء. إن قلبي ليمتلئ بآثار المصائب، وإن هذه المصائب لتصب على جوفي كما تصب الأمطار فهي تهمل عليه دائمًا دون توقف. بينما أنا وقلبي نصطلي في نار شديدة شبيهة بالنار الموقدة بالغضا ذلك الوقود الشديد الاشتعال. وأنا وقلبي نقتسم الحزن بيننا نصف لي ونصف له، ومن أين جاءت النصال، نصلًا بعد آخر فإن سهامها تنهمر علينا على ما وصفت، فهي قسمة بيننا له شطر منها ولي أيضًا شطر.

أما معاني الكلمات فهي:

ونسهم: أدخل الأنس والسرور عليهم.

هملي: أهملني.

الغضا: نوع من أشجار البادية يصلح للوقود.

نصله: نصطلي. وهي عربية فصيحة.

نص لي: نصف لي. – نص له: نصف له.

صابته: أصابته – نصله: يقصد نصل السهم.

هم له: أيضًا له – هم لي: أيضًا لي.

ليس بالإمكان الإفاضة في هذا الموضوع الواسع الذي يحتاج الحديث فيه إلى كتاب كامل وليس إلى مقال مفرد مثل مقالنا هذا، ولكننا حاولنا بقدر المستطاع إيجاز الحديث عن الموال، تذكيرًا بأولئك الفرسان الذين كانوا يَصْدحُون في تلك الرحلات البحرية المهمة التي عادت على البلاد بالخير في وقت لم يكن لها من مورد آخر غير خوض البحار والوصول بالسفن إلى أقاصي أفريقيا وإلى الهند وما جاورها. كان صوتهم عاليا ينبئ عنهم، ويدل على السفن الكويتية بمجرد الاستماع إلى النهام الكويتي وهو يردد مواويله الجميلة. وفي ختام هذا الحديث نود الإشارة إلى بعض النقاط التي نجملها فيما يلي:

– على الرغم من توقف رحلات السفن الشراعية منذ مدة طويلة فإننا نلاحظ أن أبناء أولئك الفرسان لايزالون يحافظون على هذا الفن الجميل الذي ورثوه من آبائهم وفي الكويت اليوم عدة فرق تمارس الفنون الشعبية وتقدمها في أماكن خاصة بها أو في المناسبات الوطنية تذكيراً بذلك الماضي الذي ينبغي علينا الا ننساه.

ومن هذه الفرق فرقة العميري، وهي فرقة عريقة لها شهرة في الفنون البحرية، ولها جلسات معروفة أوقاتها يأتي إليها محبو هذه الفنون فيستمعون ويستمتعون.

ومن المميزات التي تميزت بها هذه الفرقة تشجيعها لأجيال جديدة من منشدي اليامال وبقية الفنون البحرية، وقد ازداد بسبب ذلك عدد الذين يجيدون ذلك ويسهمون في الإنشاد عند الحاجة إلى إنشادهم. وهذه ميزة تحفظ لهذه الفرقة، وإن كنت أظن أن فرقاً أخرى تقوم بمثل هذا الدور غير أنني لاحظت أن عمل فرقة العميري في تدريب الأجيال الصاعدة من المنشدين عمل بارز شديد الوضوح.

– إذا أراد القارئ أن يطلع على أكبر عدد من المقطوعات التي تغنى على طريقة الموال أو اليامال، فإنه سوف يجدها في كتاب ألفه المرحوم عبدالله الدويش، وجمع فيه عدداً كبيراً من هذه الأشعار التي تحدثنا عنها في هذا المقال، وقد كان ذلك في كتابه: «ديوان الزهيري» الذي جمع فيها أشعاراً لما يزيد على ثلاثين شاعراً من الكويتيين. ولا شك في أن عدداً كبيراً من الشعراء لم يذكرهم أو يختر من أشعارهم لأنه اكتفى بهذا العدد، بينما هنا كثيرون ممن يستحقون الذكر.

– من المعروف أن هذا الفن كان مزدهراً أيام كانت سفن الكويت ترفع أشرعتها وتبحر إلى مختلف الآفاق، وكان بعض الملتحقين بها من نهامين وبحارة يشاركون في نظم عدد من المقطوعات التي ينطبق عليها وصفنا لهذا النوع من الشعر، وقد بدأ شعر الموال (الزهيري) في التراجع بعد توقف تلك الرحلات المشار إليها.

وفي خضم هذا التراجع وجدنا أحد أبناء الكويت يعود بنا أخيرًا إلى ذلك الزمان فينشدنا عدداً لا بأس به مما ألفه من الزهيريات أو المواويل أو اليامال. هذا هو المرحوم عبدالرحمن الضويحي الذي شارك في إحياء هذا النوع من فن

الشعر وأنشده في الإذاعة والتلفزيون بلا تلحين، ولكنه قام أوصى قبل وفاته بطبع إنتاجه هذا كاملاً في كتاب قيم.

- نلاحظ أن بعض الشعراء قد أرهقوا أنفسهم في سبيل اصطياد القوافي المتشابهة التي تلائم مقطوعاتهم، وقد وقع بعضهم في مزالق لفظية ومعنوية. والأهم من ذلك وهو الأسوأ هو اضطرار بعضهم إلى الخروج عن اللهجة الكويتية في طريقة النطق أو في اللفظ كاملًا. لذا نجد صعوبة في اختيار بعض ما انتجوه من مواويل فاكتفينا بما مثلنا به منها هنا.

- لا ندعي أن الشاعر والفنان الكويتي الشهير عبدالله الفرج هو أول من نظم الشعر الزهيري، ولكنه أبدع فيه وأعطانا النماذج الأولى المحتفظ بها من المواويل الكويتية وهذا لا يمنع وجود شعراء سبقوه ولكن شعرهم لم يحفظ وبالتالي فإنه لم يصل الينا.

وبعد؛ فليس هذا المقال إلا محاولة صغيرة من أجل التنبيه إلى هذا الفن الجميل. والإعـلان عن أهميته، والإبـلاغ بأنه لايـزال يعيش على أيـدي فرسان اليامال من أبناء الكويت الذين كوَّنوا لهم فرقاً شعبية فنية تعنى بالفنون البحرية وتواصل إحياءها.

****

ملحاق خير

وردت في المقال المرافق لهذا الملحاق إشارة إلى أحد أبناء الكويت الذين لم يتخلفوا عن كتابة شعر الموال. ذلك هو المرحوم عبدالرحمن سليمان الضويحي. الذي أنجز لنا عددًا كبيرًا من الأشعار (الزهيرية) وقد صدرت الطبعة الأولى منها في كتاب أنيق باسم: «زهيريات الضويحي» وذلك في سنة ١٩٩٩م، وقد اهتمت ابنته هالة الضويحي بطباعة الديوان وقدمت له بكلمة إهداء إلى روح والدها التي أبدعت فنّاً وشعراً وحبّاً كما ورد في كلمتها وقد ذكرت - أيضًا - أنها تنشرها وفاء بعهد عاهدته به فيما يبدو على العناية بها وطبعها. ولذا فإنها تقول ضمن ما قالت: «وها هي أمنيته تتحقق بولادة أول جزء من زهيرياته المكنونة، التي أمضى حياته في إنجازها».

إذن فإن ما كتبه الشاعر كان أكثر مما ورد في هذا الكتاب على الرغم من أن عدد المقطوعات الواردة فيه كثيرة. ونحن بانتظار وفاء ابنتنا هالة ببقية عهدها وذلك بطباعة القسم الباقي من إنجاز والدها رحمه الله.

هذا وقد اهتمت مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري بطباعة هذه المجموعة، وقدم لها صاحب المؤسسة بمقدمة رقيقة. وقام الأستاذ مبارك العماري بكتابة دراسة سريعة عن فن عبدالرحمن الضويحي مفعمة بنفحات تاريخية تحدث فيها عن لقاءاته بالشاعر وكيف عرفه وعرف فنه.

أعرف الأستاذ الضويحي منذ أمد بعيد، فهو من حيث السكنى قريب من الحي الذي كنت أعيش فيه، ولكنني ازددت صلة به بعد أن عملت في جهاز تلفزيون الكويت في نهايات سنة ١٩٦٢م، وكان يتردد على التلفزيون هو وعدد من أصحابه الفنانين الذين شغلتهم هواية التمثيل وكان مهتماً بكتابة التمثيليات والمسرحيات التي كانوا يقومون بأدائها للتلفزيون وللمسرح.

وقد أنجز في فترة الستينيات من القرن الماضي عددًا كبيرًا من النصوص التمثيلية فأغنى الساحة، وقدم لزملائه ما يقومون بتمثيله في ذلك الوقت الذي كانت فيه كتابة النصوص من أصعب الأمور، وكان الحصول على نص محلي من أجل تمثيله مسرحيًّا أو تلفزيونيًّا أمراً شاقاً لولا وجود هذا الفنان الذي أبدع في هذا المجال.

وبعد فترة من الزمن انقطع عبدالرحمن سليمان الضويحي عن هذا النشاط، ويبدو أن ذلك حدث منه لأن الميدان اتسع وكثر عدد الذين كانوا يقلدونه فيما صنع، فأحب أن يبتعد. ولكنه لم يبتعد عن الفن الذي كان يعيش في وجدانه، فانتقل - فيما يبدو - منذ توقفه الذي أشرنا إليه إلى هذا الفن الذي نتحدث عنه منذ البداية وهو فن إبداع الزهيريات.

نشر الضويحي عدداً من المقطوعات التي كتبها في عدد من الصحف الكويتية، وقد استغرب القراء وخاصة أولئك الذين يعرفونه جيداً هذه المبادرة الجديدة عليه، ذلك لأنهم لم يعهدوه شاعراً، ولم يعرب عن نفسه أنه صاحب هذه الصفة، ولكنه استمر في النشر وتطرقت إليه وسائل الإعلام الأخرى كالإذاعة والتلفزيون فشدا في برامجهما ببعض ما أنتج، وعرف الناس قيمة الشعر الذي أبدعه، فأقبلوا عليه، ولذا فإن هؤلاء قد اهتموا بديوانه بعد طباعته لمعرفتهم بجودة ما فيه من أشعار،

ومن أجل ذلك فإننا نأمل من الابنة العزيزة هالة أن تسعى جهدها لإكمال النشر، وذلك بإصدار القسم الثاني الذي يترقبه الجميع.

عبدالرحمن سليمان الضويحي رجل كريم النفس، دمث الأخلاق يحبه كل من له به صلة مهما كانت، ولذا فلقد كان حزن الجميع على فراقه شديدًا. ومتابعو فنه اليوم في حاجة إلى المزيد من المعلومات عن حياته وأنشطته المتعددة وعن فنه الراقي شعرًا ونثرًا، فهل من مُستجيب؟

****

المحتوى

****